مذاهب
و
تيارات

(١)

الاستشراق

بين الموضوعية والافتعالية

الدكتور / قاسم السامرائي

ورات
فاعي للنشر والطباعة والتوزيع

الاستشراق

بين

الموضوعية والافتعالية

الدكتور

قاسم السامرائي

أستاذ في مركز البحوث

جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الرياض

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ

فبراير ١٩٨٣ م

منشورات

دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

الغلاف من تصميم

عبده ابو المكارم

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

مهما يكن الرأي في الاستشراق، بين مدح أو قدح فإن هناك التقاء بين المنصفين على أمرين:

أولهما: أن الاستشراق انبثق من أفكار تبشيرية، هي من وجهة نظرنا ــ معشر المسلمين ــ تخريبية، تهدف الى مهاجمة حصوننا من داخلها .. وتلك هي أخطر أنواع الحروب ...

وثانيهما: أن المستشرقين كانوا أساتذة بارعين في التحقيق والتدقيق، والغوص في التراث، بغض النظر عن أغراضهم، وعن تباين هذه الاغراض، التي قد تخلو في أحايين قليلة من الشوائب، إلا الهدف العلمي المحض..

وليس بين النتيجتين من تعارض .. فإن واقع الحياة اليومية المعاشة، مليء بالأمثلة على أنك قد تقصد هدفاً ما، ثم يلتوي بك الطريق إلى هدف آخر مغاير تماماً لهدفك الأول .. وهكذا وجدنا بين المستشرقين من أُشرب حب التراث العربي .. فمحضه الود وأخلص له، بل منهم من اعتنق الاسلام دينا، وتسمى بأسماء العرب المسلمين .. وإن كان هؤلاء أقل من القليل .. ولكننا وجدنا فيهم مايدل على أثر التراث الإسلامي في وجدانهم.

ولأهمية الأثرين العظيمين اللذين للاستشراق والمستشرقين سواء في السياسة أو الفكر، كان حتما أن يعنى المؤلفون العرب بهذين الأثرين .. وماينتج عنهما من آثار فرعية كثيرة ..

ومع أن هناك من المؤلفين العرب، من عني بقضية الاستشراق، وحاول التعريف بالمستشرقين وآثارهم، وتلمس مذاهبهم وميولهم .. إلا أن مجال القول لايزال منفسحاً للمزيد من التمحيص والتدقيق .. ولا تزال الأيام

كفيلة بإعطاء المزيد من أخبار المستشرقين، والكشف عن مزيد من أسرار الاستشراق..

والأستاذ الدكتور قاسم السامرائي، الذى أناط بي شرف تقديم كتابه هذا إلى القراء .. أحد أولئك الرجال القلائل الذين عنوا بالاستشراق والمستشرقين وتتبع أخبار هذه الظاهرة الخطيرة .. التى كانت بعيدة الأثر في حياتنا معاشر العرب والمسلمين .. بل هو يُعدّ فيها أحد الخبراء النوادر، فقد قضى في معاقل الاستشراق ردحاً من الزمن غير يسير .. أتاح له أن يطلع على كثير من حقائق الحركة الاستشراقية..

والدكتور السامرائي .. كما لمست بالفعل من خلال كتابه هذا .. من أولئك المفكرين القلائل الذين يعلمون خطر الكلمة، تكتب فيذهب بها التاريخ لتظل في موازين صاحبها سجلاً محسوباً عليه .. يتحمل تبعته ..

ذلك لأن العملية الاستشراقية عملية معقدة جداً .. انعكست آثارها على السياسة والاجتماع، والحركة الفكرية بل على الحياة العربية والإسلامية كافةً .. واختلفت فيها الآراء وتباينت .. حتى لقد اختلط الحق بالباطل .. وكان من نتاج كل ذلك بلبلة فكرية واجتماعية لا تزال الأمة تعانى من آثارها..

ومن المؤكد، أن تلك البلبلة، لم تكن لتجد طريقها، لو اتخذت الأمة الإسلامية، قاعدة فكرية خاصة بها ترتكز إليها في خطواتها التجديدية .. أرستها على قواعد الدين الإسلامي ..

نحن هنا في المملكة العربية السعودية، تمسكنا بأهداب الشريعة الإسلامية السمحة .. بفضل من الله عز وجل، ثم بحسن سياسة الملك المؤسس العظيم عبد العزيز آل سعود رحمه الله .. تلك السياسة التي انتهجها أبناؤه من بعده ..

كان هذا من فضل الله سبحانه..

ولعلنا بهذا الوصف، كنا أقل الشعوب تأثراً بدسائس الاستشراق .. أقول أقلّ .. لأن الطوفان الذى انساح من الغرب .. سواء أكان انسياحه على يد المستشرقين في البدء، أو على المد الحضاري بكل مايحمل من غثاء .. أقول إن هذا الطوفان تسلق السدود وتجاوز القيود ..

إذن .. فأين الطريق .. أو ماهو الحل ؟

الحل .. وهو الطريق .. أن نعرف الحقيقة .. حقيقة الاستشراق .. وحقيقة المذاهب المتباينة التي تنقذف علينا من اليمين واليسار، لنعلم يقيناً سوءاتها وأخطارها .. ولنعلم يقيناً أن العلاج الصحيح إنما هو الاعتصام بالإسلام .. بالإسلام نقياً مبرّأً من الشوائب، كما أنزل على سيد البشر .. نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ..

وبعد.. فهذا خبير واسع الاطلاع.. يحدثنا في كتابه هذا عن الاستشراق والمستشرقين.. فلنلق إليه الأسماع والأبصار.. وماينبئك مثل خبير..

الرياض في ١٣/١/١٤٠٣هـ

عبد العزيز الرفاعي

الفصل الأول

الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية

الحقيقة المزدوجة

ان فهم الكثير من المسلمين للاستشراق يختلف عن فهمي له، بل ان الكثير من الانطباعات العامة التي اكتسبها القارىء المسلم من خلال قراءآته وسماعه تختلف تماماً عن انطباع كل من كان على اتصال مباشر واطلاع شامل على مايكتبه هؤلاء المستشرقون بلغاتهم في مجلاتهم المختلفة أو حولياتهم التي لاتصل اطلاقا الى العالم الاسلامي بله الدول الاوربية التي تشترك في التجاور. والسبب هو عمق الحاجز اللغوي بين مستشرقي هذه الدول: لأن مايكتب بالروسية والسويدية والدنماركية والهولندية والبلغارية مثلا لايستفيد منه الا من يتكلم أو يقرأ هذه اللغات ولهذا لجأ الكثير من هؤلاء المستشرقين الى الكتابة أو المحاضرة بالانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية اذا ما أراد لكتابه الذيوع أو أراد لمحاضرته الانتشار، ومن ثم فهم يكتبون بلغاتهم المحلية أو يحاضرون بها اذا كان القارئون أو كان المستمعون من أبناء جلدتهم، ومن يفهم لغتهم. فظهر نوعان من الكتابات الاستشراقية: نوع محلي، وآخر للتصدير. ولكل من هذين النوعين سمات خاصة واتجاهات أخص، والغالب على النوع التصديري سمة العلمية المجردة المفتعلة وخاصة اذا ما أراد المستشرق لكتابه الانتشار ولاسمه الذيوع في بلد عربي أو اسلامي وهذا واضح كل الوضوح في المقالات التي ينشرها المستشرقون، وبخاصة في مجلات المجامع العلمية في بغداد والقاهرة ودمشق وفي المجلات الصادرة في ايران وباكستان واندونيسيا وغيرها بعد استقلال هذه الدول. ولو قارنا بين ما قد كتبوه عن الاسلام، ومايكتبونه في المجلات العلمية الصادرة هناك وبين مايلقونه في المؤتمرات الاستشراقية أو ماينشرونه عن الاسلام في الصحف والمجلات الصادرة في بلدانهم وبلغاتهم، لظهر البون الشاسع في مدى العلمية المفتعلة عند الكثير من هؤلاء المستشرقين. فهل ابن رشد اللاتيني وحقيقته ذات الوجهين مايزالان أحياء؟

لقد تعودنا على سماع الكثير من تهم العصبية والكراهية والتعصب البغيض التى حملها أو مايزال يحملها بعض المستشرقين للاسلام وللفكر الإسلامي أو العربي. وقد تعودنا أن بعضا من هؤلاء قد أنصف الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كتاباته التي نراها احيانا كثيرة في بعض مجلاتنا وصحفنا والكثير من الكتب مثل اقوال توماس كارلايل[1] المتوفى سنة ١٨٨١ في النبي عليه الصلاة والسلام والمنتزعة من كتاب «**حول الابطال: عبادة البطل والعمل البطولي في التاريخ**» الذي يعرف عند العرب بكتاب الابطال. يحتوى هذا الكتاب الصغير على ست محاضرات القاها كارلايل تباعا (مابين ٥ مارس و٢٢ مارس من سنة ١٨٤٠) وقد تناول فى المحاضرة الأولى موضوع البطل إلها: وهي تدور حول الاساطير الاسكندنافية الوثنية ثم تناول في المحاضرة الثانية البطل نبياً، وتناول فيها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام. أما المحاضرة الثالثة فتناول فيها البطل شاعراً، ودارت حول الشاعر الايطالي دانتي. أما في المحاضرة الرابعة فتناول فيها البطل قسيساً ودارت حول لوثر والبروتستانتية وفي المحاضرة الخامسة تكلم كارلايل عن البطل كاتباً واديباً وتناول فيها روسو و بيرنز، واخيراً دارت المحاضرة السادسة حول البطل ملكاً وتكلم فيها كارلايل حول نابليون وكرومويل. وفي كل هذه المحاضرات استطاع كارلايل وبما أوتي من ملكة أدبية رائعة أن يبرز أن كل هؤلاء كانوا مخلصين في دعواهم وفي كل عمل قاموا به وأن سمة الاخلاص والاصالة لازمة لكل هؤلاء ..إلاَّ أن الذي يعنينا من كل ذلك هو كلامه عن النبي الكريم فى محاضرته التى القاها في يوم الجمعة الثامن من شهر مارس من سنة ١٨٤٠ وقد ترجمت هذه المحاضرة الى العربية، ترجمها الأستاذ علي أدهم بيد انني لم احظ برؤية هذه الترجمة بعد.

ان الفكرة السائدة في هذه المحاضرة تدور حول نقطة واحدة لا تتعدى مبدأ الاخلاص في دعوة النبي عليه الصلاة والسلام ولذلك حين بدأ كارلايل محاضرته قال: «لقد اخترت محمداً لا لأنه أسمى مقاما بين الأنبياء

ولكن لأنني أستطيع أن أتكلم عنه بحرية أكثر. وهو ليس أكثر اخلاصا بين الأنبياء بيد أنني اعتبره مخلصاً. ولما لم يكن هناك خطر أن يصبح أي منا محمديا فانني سأتكلم عن كل خير فيه بما أستطيع وبانصاف (٢) . وقد فعل، إلا أن مفهوم الاخلاص عند كارلايل لم يزد على: أن النبي عليه الصلاة والسلام كان صادقا في دعوته بيد أن هذا الصدق وهذا الاخلاص لم ينفرد بهما النبي عليه الصلاة والسلام فإن لوثر كان صادقاً ومخلصا ونابليون وكرومويل كانا أيضا صادقين ومخلصين وروسو وبيرنز لم يكونا أقل صدقا واخلاصا من الدلاي لاما. لقد كان كارلايل صادقاً ومخلصاً حين ردّ الكثير من الخرافات الشعبية التى افتعلها كتّاب القرون الوسطى حول النبي عليه الصلاة والسلام ورفضها فكان حين ذاك شجاعاً غير أنه لم يعد محمداً نبياً ولا القرآن كتاباً من الله.

المستشرقون والنظرية العرقية

ثم هناك المستشرق ارنست رينان (المتوفى سنة ١٨٩٢/١٣١٠) الذي أولع بابن رشد وفلسفته فجرّه ولعه هذا إلى ربط النحو العربي بمنطق ارسطو، وهو الذي جاء بنظرية الاجناس المعروفة. فقد صرح في كتابه **«تاريخ اللغات السامية»:** بأن الجنس السامي دون الجنس الآري وأقل منه حظاً في قابلياته الفكرية. وقد تأثر بهذه النظرية الكثرة الكاثرة من المستشرقين من معاصريه ومن جاء بعده ممن عني بالدراسات العربية والاسلامية من أوربيين وغيرهم وخاصة أولئك الذين درسوا في فرنسا وانكلترا وألمانيا في بداية هذا القرن. وقد كان أكثر من واحد في العالم العربي يصّر على صحة هذه النظرية السقيمة. وخلاصة نظرية رينان كما وردت مفصلة في كتاب **«تاريخ اللغات السامية»:** أن خواص العقلية السامية تتجلى في انسياق فطرتها الى التوحيد في الدين وإلى البساطة في اللغة والصناعة والفن والمدنية، أما العقلية الآرية فيميزها ميل فطري الى التعقيد وانسجام التأليف(٣) .

ان الهوس القومي والعرقي الذي ساد أوربا اذ ذاك، واشتداد التوسع الأوربي لاستعباد الشعوب الملونة خلق نوعا من الغطرسة البيضاء في نفوس الأوربين وشعوراً عاماً بتفوق العرق الأبيض وحضارته وبالتالي دينه وانحطاط كل حضارة، وكل دين غير دين الرجل الأبيض، ولذلك فإنهم برروا كل ضروب المجازر التي ارتكبوها سواء ضد الهنود الحمر في امريكا ثم الانكا(٤) في امريكا الجنوبية أو الزنوج في افريقيا وامريكا وغيرهم بأن هؤلاء أشبه بالحيوانات التي تعيق تقدم الحضارة. والأمر لايختلف حتى وإن دان هؤلاء بدين الرجل الأبيض فإنهم لن يصبحوا أسعد حظاً، والشواهد كثيرة في يومنا هذا والتميز العنصري في امريكا واسرائيل وجنوب افريقيا وغيرها دليل ناصع يصح عليهم به مارأته احدى قبائل الهنود الحمر في نفسها بأنهم «الناس الذين لا ناس سواهم»(٥) . والعجب العجاب أن نزعة الاستعلاء العرقي مازالت تتحكم كثيراً في أسلوب الحياة حتى اليوم لأن جذورها تستمد حياتها من قصة نوح وأولاده التوراتية حين حكمت على الجنس الملون بالعبودية الأبدية(٦) .

لقد تعودنا فيما تعودنا أيضا ــ والفضل كل الفضل في تعويدنا يرجع إلى المعجبين من أبناء جلدتنا بالغرب ــ على الاعجاب الجم بما حققه المستشرقون ونشروه من نصوص عربية واسلامية في فنون المعرفة المختلفة ومأسدوه من خدمات لتراثنا حين قلبوه ظهرا لبطن ودرسوه، وسهروا الدهر عليه وخرجوا علينا بكتب ودراسات ومقارنات وفوائد، وعودنا هؤلاء المعجبون أن نلتمس العلم الآن عند هؤلاء الناس، «ولابد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ونسترد ماغلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا»(٧) وقال آخر من هؤلاء المعجبين الكثار: «فلو لم يقدر لتراثنا، من مخطوطات وآثار، تلك الأيدى فتجمعه وتكشف عنه وتحل رموزه ثم ترتبه وتصونه وتفهرسه وتيسّر سبل الانتفاع به، لما قدر لجلة آثارنا أن ترى الشمس»(٨) . ولم يدر هذا المغالي أن جمع المخطوطات لم يكن في أساسه ومعناه مقصوداً لنفع العرب أو المسلمين بقدر

ماكان نابعاً من الشغف بجمع العاديات والتحف والآثار للزينة أو للتجارة أما الاستفادة المقصودة منها فكانت لمنفعة المستشرقين أولا وأخيراً مع اختلاف الأهداف وتنوع المقاصد. وهم لم ينشروا الذي نشروه لرفع مستوى التعليم عند العرب أو المسلمين لأن مانشروه كان مقصودا لامثالهم ولرفعة شأن الناشر منهم. ولو قدر لهذا الرجل أن يقرأ الكثير من كتابات المستشرقين في أي موضوع يتعلق بالعرب أو بالإسلام لخفت حماسته لأن كل الدراسات والموسوعات التي كتبها أي مستشرق أو مستغرب تسير على منهج واحد لا تعدوه، هو منهج التأثير والتأثر والاستعارة. ولما كان الاسلام متأخرا تاريخيا عن اليهودية والنصرانية فإنه بحكم التاريخية استعار منهما، وكذلك الأمر مع كل الجزئيات الحضارية واللغوية والأدبية ومايدور حول كل ذلك من مظاهر، لأن نظرية رينان العرقية أصبحت جزءاً من التفكير العلمي الأوربي في معالجة أية مسألة تتصل بالدين أو الفكر وماأنتج من ضروب المعرفة. ولم يسلم من اتباع هذا المنهج أي مستشرق أو مستغرب أو مستعرب اطلاقاً لأن في خروجه خروجاً على مثله الاستعلائية العميقة وأن كل الدعاوى التي يروجها المعجبون حول علمية المستشرقين المجردة تتهاوى حين تعرض على النقد النزيه العلمي الخالي من كل هوى وولاء ولا بأس أن أورد لك مثالاً واحدا من دعاوى أحد هؤلاء الذين يدافعون عن المستشرقين الاوائل بحماسة غريبة في كتابه المليء بالمغالطات التاريخية.

ذكر نجيب العقيقي في كتابه **طلائع المستشرقين** وذكر في من ذكر ريموند لول المتوفى في سنة ٧١٤هـ/١٣١٥م وقال: «ولد في بالما من جزيرة ميورقة وقضى في تعلم العربية وحفظ القرآن ــ على عبد أسود (*) ــ والقطلونية تسع سنوات، ثم قصد باريس وانضم الى الرهبانية الفرنسسكانية واقنع ملك أرغون بانشاء مدرسة لها في ميرامار لتدريس العربية وأشرف بنفسه عليها فتخرج منها بالعربية أكثر من ١٣ راهبا ولكنها نجحت بصعوبة مدة ٣٥ سنة وقد مهد إلى إنشاء معهد الدراسات الاسلامية في مدريد

(*) العبد الأسود كان رجلاً عربياً أسيراً وليس زنجياً ومن هنا تفوح الروح العرقية.

ومراكز الثقافة الاسبانية في الشرق. وصنف في ذلك كتب جدل كثيرة في الرد على المسلمين واليهود. ثم أخذ بالصوفية فأبحر إلى تونس حيث عرف بالصوفي النصراني وطفق يطوف فيها فقيراً واعظاً فاعتقل وسجن ثم طرد وبلغ نابولي وبذل قصارى جهده لاثارة الكنيسة والملوك بتعليم اللغات الشرقية في جامعات أوربا فحول وجهه شطر بجاية من أعمال الجزائر (في سنة ١٣٠٦/٧٠٦)مبشراً فلم يكن فيها أوفر حظا منه في تونس فسجن ستة أشهر ثم طرد وفي عودته استقر بساحل بيزا وحارب فلسفة إبن رشد في باريس وحضر مؤتمر فينا (١٣١١ ـ ١٣١٢) حيث شاهد مساعيه تكلل بالنجاح اذ أقرّ البابا كليمان الخامس إنشاء كراسي للعبرية والعربية والكلدانية في الجامعات الرئيسية باوربا وهي باريس واكسفورد وبولونيا وسلمنكه ثم في جامعة خامسة بالبلاط البابوي مع تنصيب أستاذين لكل من هذه اللغات الثلاث في كل كرسي وتكليفهم بترجمة نصوص عبرية وعربية وكلدانية للرد على منتقدي الدين»[٩]، من هذا المثال يظهر لنا أن نجيب العقيقي يريد أن يقنعنا أن ريموند لول أفنى جهوده وأوضاع حياته الغالية في سبيل اقناع الملوك والبابا بتشجيع تدريس العربية لحبّه الدافق لها ولآدابها بينما نجد لول نفسه يقول في هذه اللغة التى تعلمها لغرض التبشير: «انها تشبه اصوات ولغات الحيوانات»[١٠]. ثم إن رينان الفرنسي يحدثنا عن لول هذا فيقول:

«لا ريب أن ريموند لول بطل الحرب الصليبية ضد الرشدية، فالرشدية عنده هي الاسلام في حقل الفلسفة، ومن المعلوم **أن هدم الاسلام كان حلم جميع حياته**، وبلغت حمية لول منتهاها فيما بين سنة ١٣١٠ ـ ١٣١٢ على الخصوص فنجده بباريس وفينا ومونبليه وجنوه ونابولي وبيزه سائراً وراء تلك الفكرة المقررة، مفنداً ابن رشد ومحمداً بتأليف حلقات مثيرة في كتابه **«الفن الكبير»** وقد قدم في سنة ١٣١١ وذلك في مجمع فينا الديني ثلاث عرائض إلى كليمان الخامس (بابا روما) حول إيجاد منظمة حربية جديدة **لهدم الاسلام**، وانشاء كليات لدراسة العربية والحكم على ابن رشد

وأتباعه. وكان ريموند يريد ازالة كتب الشارح **(ابن رشد) في المدارس ازالة** مطلقة وأن تحظر قراءتها على كل نصراني»[١١] . من هذا المثال **ومن أمثلة** كثيرة يظهر الغرض الذى من أجله كتب العقيقي كتابه **«المستشرقون» فى** أجزائه الثلاثة إذا علمنا أن أكثر مواد الكتاب كتبها المستشرقون أنفسهم له، فغلبت عليه روح التبرير، وجمع فيه كل من هبَّ ودبَّ من العلماء المنصفين الى المبشرين المسرفين ومابين هؤلاء من كل مغامر، وضارب طبل وزامر والصلة بين كل هؤلاء على تباينها واحدة هي اهتمامهم بالإسلام بمختلف ضروب الاهتمام وتفرق مشاربهم وأهدافهم ومبتغاهم ودوافعهم.

ماهو الاستشراق ؟

ان لفظة «مستشرق» تثير فى نفوسنا أحاسيس شتى بيد أنها لاتخلو من الشك والارتياب وهذا الشك وهذا الارتياب ليسا من صنعنا ولا من طبيعتنا بل انها من صنع بعض المستشرقين المسرفين الذين لم يتجردوا عن يهوديتهم أو نصرانيتهم أو عرقيتهم حين كتبوا عن العرب أو عن الاسلام وضرر هؤلاء لم يهدم للاسلام تراثاً ولا للمسلم ديناً قدر ماكان في كتاباتهم من ضرر على ابناء جلدتهم من تشويه للحق ومجانبة للبحث العلمي الصرف الذي يفرض على الدارس أمانة الضمير وتثبت الخبير فرددوا ماقاله أسلافهم المدفوعون بعصبيتهم الحمقاء دون بحث أو تمحيص فتخلوا عن صفة العالم الثبت وهم بذلك قد رسخوا الصور والمفاهيم المشوهة والمقصودة في عقول وأذهان أبناء بلدهم وفي أذهان رجال اللاهوت حين اعتمدوا على كتابات مستشرقي عصرهم فاتسعت بجهودهم هوة التشوية التي نراها حتى اليوم سائدة في وسائل الاعلام الأوربية. وبدلا من رؤية الواقع دون مواربة يحاول الغرب زعزعة الثقة فى الاسلام بابراز وجهات النظر التي لا تتعلق بروح الاسلام أو تعاليمه»[١٢] ولاأدري متى توقف هؤلاء فى الشرق الأحمر أو الغرب الأبيض فى محاولاتهم فى هذه الزعزعة والهزهزة بله الرجرجة

والصحف الأوربية بأجمعها لم تتوقف بعد عن نشر مطاعن الطاعنين وآراء أساتذة علم التبشير في الجامعات.

ان لتوماس كارلايل ولرينان ولمئات من أمثالهم ماضياً وحاضراً آراء في النبي الكريم والقرآن الشريف والسنة والتاريخ والأدب والتصوف والفلسفة والطب والفلك والعمارة والريازة وغيرها احتوتها كتبهم أو مقالاتهم لاأصفها الا ببعدها عن العقل ومجافاتها للبحث النزيه فان توماس كارلايل لم يعجب بمحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ نبياً مرسلاً مبلغاً لرسالة إلهية بل كان إعجابه منصباً كله على دوره وعظمة هذا الدور فى الاصلاح لايفضل مارتن لوثر فى اصلاحه النصرانية الكاثوليكية حين هدم سلطة البحر المقدس (البابا) وان هذا الإعجاب تهاوى حين تناول القرآن الكريم فردد ماقاله غيره بل وزاد وإليك نص ماكتبه[١٣] وكان قد قرأ ترجمة سيل الانكليزي:

(I must say, it is as toilsome reading as I ever undertook. A wearisome confused jumble, crude, incondite: endless iterations, long - windedness, entanglement; most crude, incondite; - insupportable stupidity)

ومعنى كلامه: [أنني يجب أن أقول: أننى لم أعان قراءة متعبة كقراءته أبدا. مجموعة مشوشة مضطربة، فج، مضطرب: تكرار بلا نهاية، التواء طويل، تشابك، فج جدا، مشوش، ــ غباوة لاتحتمل]. وبعد: **فهل كل** هذا في القرآن؟ أم أن القشة في عين القرآن صارت خشبة؟

أما رينان فانه لم ير فى الحضارة الإسلامية جديداً لأنها حضارة نصرانية ويهودية معا غير أنها مكتوبة باحرف عربية. وهو صاحب نظرية الاجناس التي ذكرناها فعزى بموجبها كل مظهر حضاري أو أصالة في الفكر الاسلامي الى أصلها القومي العرقي وتبعه الكثير ممن جاء بعده: فالزهد نصراني والتصوف بوذي وهندي والفلسفة ايرانية والكلام يوناني والطب سرياني والعرب مقلدون.[١٤] ولو اتبع المسرفون من المستشرقين أسلوب البحث الموضوعي لوجدوا أن العلماء المسلمين عربا أو غير عرب كانوا ينسبون

العلم لأهله في الوقت الذي كان الاغريق (اليونانيون) لا تعرف مصادر أعمالهم وكان اللاتينيون يسرقون أعمال العلماء العرب المسلمين و يشتمون. وفي الوقت الذي اتصف العلماء العرب بالانصاف الاخلاقي والامانة في النقل والنقد كان اللاتينيون ينتحلون كتب العلماء العرب و ينسبونها لانفسهم أو يذهب بهم الجهل والهوى حد الاسراف فينسبون أعمال العلماء المسلمين بعد أن ينقلوها الى لغاتهم الى مشاهير الاغريق مثل ارسطوطاليس وجالينوس وردفوس وسواهم(١٥) . والواقع أن اللاتين الذين كانوا يقومون بالسفر الى طليطلة كانوا لايبالون بانتحال عمل المترجم وان اسم المترجم في القرون الوسطى كان في الغالب اختلاقاً لأن اسم المترجم الفعلي كان يغفل عمداً. ومن هؤلاء الذين نالوا شهرة وشأناً كبيرين مايكل سكوت الذي كان أول من أدخل ترجمات كتب ابن رشد الى أوربا فاكتسب لقب مؤسس الرشدية والذي اتّهمه روجر بيكون بانتحال عمل غيره لجهله اللغات والعلوم التي هي موضوع كتبه (١٦) .

نشأة الإستشراق

ان الكثير من الذين كتبوا عن الاستشراق يرجعون أسباب نشوئه الى عوامل مختلفة منها: احتكاك المسلمين بالرومان في غزوة مؤتة ومن ثم غزوة تبوك ومن يومها، كما يقول الأستاذ محمد حسين هيكل: «وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية»(١٧) . والسؤال الذى يفرض نفسه الآن: الم تنته بعد هذه الخصومة السياسية؟ أم أن هذه الخصومة أوسع مجالا وأعمق هدفا من الخصومة السياسية؟ ومع هذا فان للأستاذ هيكل رأياً طريفاً في سبب الخصومة بين الاسلام والنصرانية يعود، على رأيه، الى «جهل الغرب بحقيقة الاسلام و بسيرة النبي ... والجهل ولا ريب من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدها استعصاءا»(١٨) . بل والأطرف من هذا أن الأستاذ هيكل يرى: «أن طبيعة الغرب الذى عاش ألوف السنين على دين تعدد

الآلهة والذي يدعوه مركزه الجغرافي الى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير والضنك وسوء الحال لا تتلائم مع طبيعة المسيحية السمحة الجميلة، فإذا قضت الظروف التاريخية عليه بأن يدين بالمسيحية فلا مفرّ له أن يسبغ عليها ثوب الكفاح»[١٩] . وهذا رأي يقطر غرابة و ينضح عجبا؟

المعروف عند أهل التاريخ أن اليونان والرومان كانوا وحدهم يدينون بتعدد الآلهة أما من دخل تحت حكمهم ومن لم يدخل فلم نعرف ذلك عنهم قبل فرض نصرانية الامبراطور المتنصر قسطنطين الروماني وخاصة إذا عرفنا أن بعض شعوب أوربا قد عبد الأشجار بل كان الناس يعبدون أوُدين اله الطبيعة فى الأقطار الأسكندنافية حتى القرن الحادى عشر المسيحي / الخامس الهجري. وأن عبادة الأشجار اتخذت مظهراً نصرانياً برزفي شجرة عيد الميلاد وأمثال ذلك كثير ذكرها العالم الانكليزي فريزر في كتابه «**الغصن الذهبي**» (The Golden Bough) مما دخل في النصرانية الغربية من الطقوس والعادات الوثنية ومن ثم تسرب بعضها الى النصرانية الشرقية.

وقسم آخر ممن كتب عن الاستشراق رأى أن بداية الاستشراق كانت بسبب الحروب الصليبية حين بدأ الاحتكاك السياسي والديني بين الإسلام والنصرانية الغربية في فلسطين. وحجة هؤلاء أن العداء السياسي استحكم بين النصارى والمسلمين أيام نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومن ثم أيام أخيه العادل إثر الهزائم المتكررة التى الحقها هؤلاء القادة المسلمون بالصليبيين ، فرض كل هذا على الغرب أن ينتقم لهزائمه. وقد روى لنا ابن الأثير في كتابه «**الكامل في التاريخ**» خبراً طريفاً مفاده أن بطرك بيت المقدس خرج مع كثير من مشهوري الصليبيين وفرسانهم حين فتح صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، ولبسوا السواد وأظهروا الحزن على ذهاب بيت المقدس من أيديهم ودخلوا بلاد الافرنج يطوفونها و يستنجدون أهلها و يستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس وصوروا المسيح وجعلوا صورة رجل عربي أمامه والعربي يضرب المسيح وقد جعلوا الدماء

تسيل على صورة المسيح وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله.[٢٠] وروى القاضي بهاء الدين ابن شداد في كتابه «**النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**» أنهم صوروا قبر المسيح وصوروا أيضا على القبر فارساً مسلماً وقد وطأ قبر المسيح وبال الفرس على القبر وأنهم أبدوا هذه الصورة وراء البحر (في بلادهم) في الأسواق والجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور[٢١] . وهذه وسائل دعاية واستثارة فريدة.

وقسم آخر يرجع نشوء الاستشراق الى الحروب الدموية التي نشبت بين المسلمين في الأندلس ونصاراها وخاصة بعد استيلاء الفونسو السادس على طليطلة في سنة ٤٨٨هـ /١٠٨٥م فنشأت حركة التوبة والتكفير عن الذنوب وكان مركزها في دير كلوني الذي سيطرت عليه طائفة الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب بطرس المحترم الفرنسي ومن هذا الدير انطلقت حركة تغيير النصرانية الاسبانية بكل كتبها وطقوسها وجعلها نصرانية كاثوليكية رومية صرفة، وذلك لأن هؤلاء الرهبان رأوا أن النصرانية الاسبانية أصابها الفساد لاكتسابها الكثير من الاسلام ولذلك بدأوا حربهم الصليبية ضد نصرانية أسبانيا وبالتالي اسلامها[٢٢] .

لقد اتخذ رهبان دير كلوني القديس جيمس (يعقوب أخو المسيح كماذكره العهد الجديد) حاميا للنصرانية في اسبانيا واستطاعوا ترويج الدعايات الواسعة من خلال فروع اديرتهم في كل أوربا النصرانية بقداسة كنيسة «سانت جيمس»(*) في مدينة سانتياكو دى كومبستلا والعجيب أن المسلمين لعبوا دورا في إضفاء هذه القداسة عليها إذ حين فتح ابن أبي عامر المنصور الحاجب المدينة هدمها بيد أنه أبقى على الكنيسة فنسب احجامه عنها الى معجزة سانت جيمس والأعجب من كل ذلك أن أصول هذه القداسة أسطورية وثنية كما أثبتها المؤرخون الاسبان[٢٣] . فتوافدت عليها

(*) وتسمى «شنت ياقب» في المصادر الاندلسية ومعناها: «القديس يعقوب» ويعقوب هذا هو أخو السيد المسيح كما ورد في الأنجيل.

الجموع الغفيرة من البشر الذين وجد فيهم ملوك اراغون وقشتالة ونافار جيشاً جديداً مغامراً وقوة بشرية يمكن استخدامها فعلياً في أغراضهم الحربية ضد المسلمين فتعاون الرهبان مع الملوك في استمالة هؤلاء السّياح وتوطينهم في مدن يسيطر الدير على شؤونها الدينية والاقتصادية وكان الدير يتسلم نسبة جيدة من ذهب الاتاوات التى كان يدفعها ملوك الطوائف لملوك قشتالة. ومن هؤلاء السياح استطاع جيش منهم أن يفتح طليطلة قبل عشر سنوات فقط من وصول أول حملة صليبية الى الأراضي المقدسة فى فلسطين فكان أول أسقف فى طليطلة من رهبان دير كلوني الفرنسي(٢٤) . ومن هذا الدير ــ كما يقول نجيب العقيقي فى كتابه: **المستشرقون** ــ [انطلقت حركة اصلاح عمت النصرانية الأوربية وجعل منه الرهبان، بعد أن آووا اليه في القرن الثاني عشر، مركزاً خطيراً لنشر الثقافة العربية(؟). وقصد رئيس الدير بطرس المحترم الأندلس فيمن قصدها مستزيداً من علومها(؟) ولما رجع الى ديره طفق يصنف الكتب في الرد على علماء الجدل (؟) المسلمين وشجب اليهود] (٢٥) . وهذا المحترم قد كان كلّف اليهودي المتنصر بطرس او بيدرو الفونسي أو العبري أو الطليطلي (تنصر فى سنة ١١٠٦م فى مدينة وشقة الواقعة فى الشمال الشرقي من أسبانيا، وتوفي بعد سنة ١١٤٠م ؟) أن يترجم القرآن الى اللاتينية. وبالرغم من أن هذه الترجمة عزيت إلى هرمان الألماني وروبرت أوف جستر الراهبين اللذين قيل فيهما أن المحترم صرفهما عن دراسة علم الفلك في الأندلس الى ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية(٢٦) ، فان المترجم الحقيقي نفسه يقول فى مقدمة هذه الترجمة مانصه اللاتينية:

(Ego Petrus Toletanus qui hunc librum transtulit de Arabico Latinum)

[أنا بطرس الطليطلي الذي ترجم هذا الكتاب من اللسان العربي الى اللاتيني] وذكر أيضا أن راهباً من دير كلوني كان قد أرسله بطرس المحترم قد [أصلح لغتي اللاتينية لأنني لاأجيدها مثل إجادتي اللغة العربية]. وبطرس الفونسي أو الطليطلي هذا من عائلة يهودية نزحت من قرطبة حين

استولى الموحدون عليها الى طليطلة وقد عرف المشهورون منهم بابن الفخّار في المصادر العربية الأندلسية (٢٧) . وقد نسبت ترجمة القرآن الكريم هذه أيضا لبطرس المحترم لأنه ترجمه «حتى يستطيع دحضه» (٢٨) . وبعد عشر سنوات من سقوط طليطلة عُقد مجمع كليرمون في سنة ١٠٩٥م / ٤٨٨هـ حيث أقر وجوب حرب المسلمين في الأندلس وفي فلسطين لأن هذه الحركة التى تزعمها رهبان دير كلوني رأت فى توسع الاسلام غضباً الهياً يجب التكفير عنه بالدعوة الى حرب الوثنيين المسلمين (الموروس)، فكان رهبان دير كلوني يرافقون الجيش الصليبي في الأندلس لتحطيم كل شعائر المضريين وابدالها بشعائر روما(٢٩) :

"the Christian troops were followed by Clunic monks, who set to work to destroy the national Mozarabic rites and to substitute those of Rome."

وقسم آخر رأى أن نشوء الاستشراق كان لحاجة الغرب للرد على الاسلام أولا ولمعرفة أسباب هذه القوة الدافعة لأبنائه ثانيا وخاصة بعد سقوط القسطنطينية في سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ومن ثم وصول العثمانيين الى اسوار فينا، فان الاسلام وقف سداً مانعاً من انتشار النصرانية (٣٠) .

وقسم آخر رأى أن نشوء الاستشراق وخاصة عند أصحاب اللاهوت كان لحاجة هؤلاء الى تفهم العقلية السامية لعلاقة هذه العقلية بالتوراة والانجيل ولذلك انصبّت دراسة هؤلاء على اللغة العبرية والآرامية والعربية وآداب هذه اللغات. ومع هذا فانهم رأوا: « إن التمكن من اللغة العربية يجب أن لايقل عن التمكن من اللغة العبرية لغرض ترجمة الكتب المقدسة من العبرية إلى اللاتينية ترجمة مرضية(٣١) . بل ان المستشرق الهولندي سخولتنس ناقش في رسالته فوائد اللغة العربية في تفسير الأنجيل(٣٢) .

وقسم آخر رأى إن الاستعمار الأوربي لبعض البلدان العربية والاسلامية فى الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وجنوب شرق آسيا وحاجة هؤلاء الى فهم عادات وتقاليد ومن ثم اديان هذه الشعوب التي استعمروها

لتوطيد سلطانهم وتثبيت سيطرتهم الاقتصادية عليها، كل ذلك دفعهم الى تشجيع الاستشراق بصور شتى وأولته دولهم عنايتها وتشجيعها وحثّت جامعاتها على دراسته.

وقسم آخر جمع بين كل هذه العوامل والأهداف وأضاف اليها أسباباً أخرى ساعدت أو قادت إلى نشوء الاستشراق والدراسات الشرقية منها: فائدة الدراسات الشرقية للتجارة ونشاط بعثات التبشير النصرانية بين المسلمين فبدأت المؤسسات الدينية كالفاتيكان وماتبعه من الكنائس الكبرى في جميع أنحاء أوربا بفتح المدارس لتعليم العربية للرهبان المبشرين. وفرض على الملوك والأمراء والبلديات تأسيس مدارس اللغات الشرقية في عواصم بلدانهم وتخصيصها بكراس مستقلة في جامعاتها فاستجابوا له[٣٣].

ان كل من قال بهذا الرأي أو ذاك فله براهينه الاستنتاجية، وله منطقه وحججه التي رأها صالحة لرأيه، وكل واحد من هؤلاء أيدّ رأيه ودافع عن وجهة نظره لأنه رأى رأيه صواباً، وكل واحد من هؤلاء محق في مادعى وفي ماساق من حجج، وكل هذه الآراء جديرة بالقبول وهي بعد ذلك مفتوحة للمناقشة والدحض أيضا، بيد أن كل هؤلاء لم يتعرضوا في كل استنباطاتهم التاريخية وحججهم المنطقية الى أثر الفكر الاسلامي على الفكر الديني النصراني في القرون الوسطى، ومن ثم أثره على الكنيسة الكاثوليكية وماخلّفه هذا التأثير على الفاتيكان وبالتالي على سيطرته الدينية والدنيوية والتي لم يترك وسيلة مافي تدعيمها حتى بالوثائق المزورة على الامبراطور قسطنطين أو على أساقفة روما السابقين[٣٤].

ان تفشي التحرر العقلي الذي أحدثته فلسفة ابن رشد في الفكر الديني الأوربي منذ أن بدأت ترجمات مايكل سكوت، أو من ترجمها له، في الذيوع والشهرة ورد فعل الكنيسة جديران بالدراسة الشاملة، فبعد أن كانت الكنيسة وعلى رأسها البابوات قد أحكمت قبضتها على الحياة العامة الفكرية والروحية وحتى التصرفات الفردية، بدأ التمرد على شكل حركات وصفتها

الكنيسة بـ«الزندقة» مما خولها أن تقضي على سكان مدن بكاملهم مثل مدينة تور الفرنسية. ولم ينته هذا السيل الدموى فقد تولت أهداره محاكم التفتيش، كما سنبينه في ما بعد.

ظهور لوثر بالبروتستانتية والإنشقاق في الكنيسة :

وقد ظلت الكنيسة تعاني من ابن رشد حتى ظهر لوثر بالبروتستانتية (مذهب الاحتجاج) في بداية القرن السادس عشر المسيحي (١٥٢١م) وما جرَّه هذا الانشقاق العنيف فى الكنيسة الكاثوليكية من الوهن الذي نراه اليوم. وأن انشقاق لوثر مهّد السبيل لسلاسل الانشقاقات التي لم تنته بعد. والعجيب في انشقاق لوثر أن الكاثوليك كانوا حينئذ يصرون على أن لوثر يريد أن يقيم مملكة محمد فى أوربا بدلاً من مملكة المسيح وأن قساوسته واتباعه قد تنافسوا بالفعل فيما بينهم على الارتداد الى دين محمد. ولوثر من جانبه لم يأل جهداً في الانتقاد والتشنيع على البابا بأن اعتقاده لايقل شراً عن اعتقاد المسلمين، وقولته المشهورة التي أصبحت مثلا يدور على الألسنة في تفضيل أحد الشرين على الآخر: Liever Turks dan Paaps (معناها: أولى أن نكون تحت حكم الأتراك من أن نكون تحت حكم الباباوات)، نبعت من اعتقاده بأن البابوية هي اسوأ عدو للمسيحية، بل هي أسوأ من الأتراك المسلمين. وذهب لوثر إلى أبعد من ذلك فقال: ان المسيح الدجال الحقيقي في الواقع ليس محمداً بل البابا في روما[٣٥] وأن كنيسة روما هي كنيسة الشيطان (٣٥أ).

أثر ابن رشد في الفكر الأوربي

وهنا أود أن أشير الى أنني لست معنيا بالحديث عن كل الأسباب التى أدت الى أنشقاق لوثر مما يسمّى في التاريخ الأوربي بـ«عهد الاصلاح

الديني» ولست معنياً أيضا بمناقشة هذا الرأي أو ذاك لأن نقاش علماء الكنيستين مدوّن في مصادر لا حصر لها، ولست معنيا بعد ذلك بالحديث عن أثر الحضارة الاسلامية كحضارة انسانية متكاملة في ظهور مايسمى بـ«النهضة الأوربية» أو عن استعارتها لهذا الأثر أو ذاك المظهر الحضاري وانما سأقتصر في حديثي على أثر فكري واحد وهو تأثير ابن رشد العقلي على الفكر الأوربي الديني، ومدى هذا التأثير في نشوء الاستشراق الفعلي في أوربا. ولست معنياً أيضا بالحديث على سبل انتقال أو تسرب الفكر الاسلامي عبر النقاط التي كانت مراكز احتكاك وتأثير وتأثُّر، فقد كفاني الكلام في كل هذا، من عُني به من العلماء المسلمين وغيرهم من المستشرقين والمستعربين وكل ماأود أن أبينه في هذا المجال هو أن هؤلاء كلهم اتفقوا على أن فلسطين وصقلية والاندلس كانت أهم النقاط التى تسرب منها تأثير الحضارة الاسلامية الى أوربا وغير أوربا، ومن خلال هذه المراكز كان التقاء حضارتين متباينتين في العقلية والدين:

أولاهما: حضارة بنيت على التوحيد الكامل في عقيدتها فاخضعت كل مظاهرها واستمدت كل أحكامها من مبدأ التوحيد الذي حرر العقل الاسلامي من سيطرة رجال اللاهوت والربانيين كما هو الأمر فى النصرانية واليهودية، وأتاح له حرية انسانية لايخضع معها لغير الخالق وبدون وساطة.

وثانيتها: حضارة بنيت على التثليث الذي فرض على النصرانية فرضا لتلافي الانشقاق الذي حدث في العقيدة النصرانية حين اعتنق الامبراطور قسطنطين الكبير النصرانية وجعلها دينا للدولة في بداية القرن الرابع المسيحي[٣٦] . وما فتيء الباباوات بعده يحكمون سيطرتهم المطلقة على الفكر الديني والسياسي خلال ممثليهم أو بواسطة الرهبان الى حد أن الملك فليب أوكست حسد صلاح الدين الايوبي فأرسل آهته الحرى: «طوبي لصلاح الدين فانه ليس عنده بابا ابدا». وليس هذا بعجيب لأن كل ملك أو أمير كان يعيش وسيف التحريم البابوي الرهيب معلق فوق عنقه اذا خالف ارادة البابا. وقد بلغ الأمر بالملك جون أنه فكَّر جديا باعتناق الاسلام فى القرن السابع للهجرة تخلصاً من تدخل البابا فى شئون مملكته[٣٧] . فأحكموا

سيطرتهم على الفكر الأوربي ونصبوا من أنفسهم ومن أساقفتهم وقسسهم أوصياء من دون الله على عباده وابتدعوا طقوس الغفران والاعتراف والمناولة لجسد المسيح ودمه، وأباحوا للانسان ماارادوه وحرّموا عليه ماأرادوا التحريم، واحتفظوا لأنفسهم بحق حرمان من شاؤا من مغفرة الله، ومنحها لمن شاؤا وكأن مفاتيح الملكوت بأيديهم يدخلون فيها من يشتري ذلك منهم، وحتى أن الكنيسة حرّمت على الكاثوليك قراءة الانجيل بله تفسيره لأن ذلك من حق البابا وأساقفته، وماعلى النصراني الا الطاعة لما تفرضه عليه الكنيسة والا .. لم يسمح له بدخول ملكوت الله أو يصبح طعمة لنيران محاكم التفتيش إن طالب بأدنى اصلاح. وفرضت الكنيسة رقابة صارمة على الفكر الديني فحرمت ماشاءت من الكتب على الناس وأباحت لهم ماشاءت وأصدرت لهم: [index librorum prohibitorum] قائمة الكتب التي حرّمتها الكنيسة فكانت خير وسيلة لذيوع هذه الكتب لأن البشر مطبوع على تَطلُّب الممنوع.

ان كل هذا يصح على القرن الحادى عشر (الخامس الهجري) وحتى نهاية القرن السادس عشر النصراني (العاشر الهجري) حيث بدأ التحدي لسطلة البابا يتخذ شكل الحروب الدموية بين الكاثوليك والبرتستانت وحتى بعد توقيع صلح أوكسبرك في سنة ١٥٥٥ (٩٦٣هـ) بين الكنيستين تحت شعار: [cujus regio religio] «لكل أمير دينه». فبالرغم من اتفاقهم على أن يترك الأمر في أيدي امراء المقاطعات في اختيار البروتستانتية أو الكاثوليكية لسكان مقاطعته، أما الفرد الانساني وحريته في الاختيار فقد أوكلت للأمراء[٣٨] ، فان هذا الصلح لم يوقف الحروب الطائفية التى تسمّى بحرب الثلاثين سنة إلا في سنة ١٦٤٨ (١٠٥٨هـ) وبعد عقد صلح وستفاليا.

السلطة البابوية

ان الدارس لتاريخ النصرانية في أوربا خاصة لايستطيع أن يتجاهل الأطوار التاريخية التى مرت من خلالها وتطورت عبرها سلطة البابا فى روما لأن البابوية من الوجهة التاريخية هي من صنع القرون الوسطى النصرانية، ولصلة هذه السلطة وأثرها على الفكر النصراني في أوربا في القرون التى تلت القرن الثالث عشر (السابع الهجري) بنشوء الاستشراق الفعلي فإننا يجب أن نستعرض الأدوار التاريخية باختصار غير مخل حتى نتبين من هذا الاستعراض الدوافع الأساسية للاستشراق.

تاريخ البابوية لايمكن تحديده بزمن معين أو تاريخ معين وقد تضافرت عوامل سياسية أكثر منها دينية على إعطاء البابا هذه الأهمية التي كانت له في أوربا حينذاك. وقد لعب البابوات أنفسهم دوراً وبأساليب مختلفة ومنها التزوير كما رأينا، في ربط سلطتهم الدينية ببطرس وبولس وسلطتهم الدنيوية بهبة قسطنطين لجزء من امبراطوريته وتنازله عن قصر لاتيران لسكنى أسقف روما في سنة ٣١٢ ميلادية الذي أصبح فيما بعد يحمل لقب «بابا». ومع أن الأباطرة الذين تبعوا قسطنطين لم يلغوا الوثنية الرومانية الا فى حدود سنة ٣٩١ ميلادية حيث حرّم ثيودوسيوس ممارستها رسميا، فان سلطة أسقف روما لم تكن أعلى من سلطة بطريرك القسطنطينية. ولما تولّى فالينتينان الثالث العرش خص أسقف روما بسلطة واسعة على أساقفة الجزء الغربي من الامبراطورية وذلك في سنة ٤٤٥ ميلادية الا أن أسقف ميلان سرعان ماانتزع هذه السلطة من أسقف روما بعد أن أصبحت ميلان وبعدها رافنّا عاصمة القسم الغربي من الامبراطورية، ومالنتهى القرن السادس للميلاد الا وقد بدأ أساقفة روما بتثبيت دعواهم بأن أسقف روما ــ لأنه خليفة بطرس الرسول ــ هو السلطة الوحيدة التي لها الحق في التشريع النصراني ومركزه بالنسبة لبقية الأساقفة كمثل الرأس لباقي الأعضاء وذلك لأن سلطته التشريعية مستندة الى سلطة بطرس الرسول وبالتالي الى

المسيح. ولكي يسبغ أسقف روما السلطة المطلقة على نفسه بدأ أولاً بنسبة هذه السلطة الى بطرس الذي استمدها بالطبع من المسيح فكتب ليو الأول: «ان بطرس لم يكن أمير الرسل فحسب بل إنه أعظم أمراء الكنيسة على الاطلاق وهو الذى يحكم على الحكام وان حكمه هو حكم المسيح» (٣٩) . وازاء هذه الدعوى التى رفضها بطريرك القسطنطينية وادعى هو أيضا بأنه «الأمير الوحيد للكنيسة» بالرغم من أن مجمع (كالكيدون) الذي انعقد فى سنة ٤٥١ ميلادية عدّ الاثنين متساويين في السلطة. ولما استولى اللومبارديون على روما ووضعوها تحت حكمهم المباشر أسرع ستيفان الثاني (٧٥٢ ــ ٧٥٧ ميلادية) أسقف روما بنفسه الى بلاط ملك فرنسا بين « Pippin » طالبا العون والحماية وقد أمده الملك الفرنسي فعلاً بالعون والحماية وهنا بدأ عصر التعاون الوثيق بين الفرنجة كما تسميهم المصادر الأسلامية والبابوات في روما والذى وصل الى أوجه مع البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ ــ ١٠٩٩/٤٨١ ــ ٤٩٣) الذى كان فارسا فترهب في دير كلوني ومن ثم اختير لمنصب «البابا». والمعروف عن رهبان دير كلوني أنهم لم يكونوا مهتمّين بالعلم قدر اهتمامهم بالاثارة الدينية والسياسية على قول المؤرخ كارل ستيفنسون:

(the Clunic monks paid little or no attention to scholarship ... and exerted great influence throughout Europe - principally by means of preaching and political agitation ..)(40)

والمعروف أيضا أن أوربان الثاني هذا كان المسئول الأول عن الحروب الصليبية فلنستمع له وهو يلقى خطابه على الجموع الغفيرة من النبلاء ورجال الدين وغيرهم الذين اجتمعوا في مدينة كليرمون في شهر شباط من سنة ١٠٩٥/٤٨٩هـ:

«إن الأتراك الذين كادوا يحطمون الامبراطورية البيزنطية قد استولوا على الأراضي المقدسة في فلسطين. أي عمل نبيل يكون في انقاذ ضريح الرب من الأيدي القذرة؟ ومن يتحمل هذا الواجب المقدس اذا لم يفعل

الفرنجة ــ الشعب الذي تميز منذ زمن طويل بنقاء الايمان والمشهور فوق كل الشعوب بشدة البأس في الحرب ... توحدوا في مسعى مقدس واحد لتنتزعوا من الكفار تلك الأراضي التي دنسوها بوجودهم فيها، وإنكم تعرفون أن الله سوف يمنحكم الغنى الدنيوي إضافة الى المجد الخالد فى ملكوت السماء»[٤١]

ولما انتهى البابا من خطبته هتف الحاضرون بصوت واحد هدّار: « Dieu le veut »«الله يريد ذلك». فكانت الحملة الأولى التي تم فيها فتح بيت المقدس وذبح أكثر من سبعين ألف مسلم وغير مسلم، مما ذكرته مصادر ذلك العصر. ومع أن هذه المذبحة المروعة قد هزّت ضمائر بعض المؤرخين المعاصرين الذين استنكروها ومازالوا،فان راهباً من الجزويت (يسمون الآن في البلاد العربية باليسوعيين) كتب في زمن لويس الرابع عشر متشفيا وآسفا : «إن الصليبيين قد قتلوا كل طفل على ذراع أمه لأجل افنائهم ــ هذا الجنس الملعون يجب افناؤه اذا كان ذلك مستطاعاً كما اراد الله أن يكون للعماليق»[٤٢] :ــ متشفيا الا أنه آسف لأن الفناء لم يعم هذا الجنس الوثني!

آثار الحروب الصليبية

لم يختلف اثنان من مؤرخي الغرب في تأثير الحروب الصليبية على مايسمى بالنهضة الأوربية وبالرغم من اختلافهم في شدة هذا الأثر أو ذاك! وبالرغم من اختلافهم أيضا في الدوافع التي دفعت أوربا لشن هذه الحروب وفى الأهداف التي حققتها فإنهم لم يختلفوا في تأثير احتكاك الصليبيين بالاسلام وجها لوجه على التيارات الفكرية التي بدأت تظهر فى أوربا حين عاد الصليبيون تباعا الى بلدانهم سواء كانت هذه التيارات الفكرية عداءاً جارفاً للاسلام أو اعجاباً خافتاً بالحرية الفكرية التي يتمتع بها الفرد المسلم نتيجة لعلاقته بالخالق تعالى دون واسطة على حين أن هذا

الواسطة مفروضة ومقررة فى النصرانية حين جعلوا من المسيح حجابا بين الخالق والمخلوق ولا يصل المخلوق لخالقه إلا من خلال المسيح ولايجوز ذلك الا من خلال البابا ـ وكيل المسيح ديناً ودنيا، وقد كانت هذه إحدى النقاط التى رفضها البروتستانت فيا رفضوا من الكاثوليكية.

ولم يختلف اثنان من مؤرخي الغرب المنصفين أن أوربا كانت (ولم تزل) تنظر إلى ثروات الشرق بعين الشراهة والحسد وأنَّ هذه الشراهة وهذا الحسد هما اللذان تحكما قروناً طويلةً فى علاقة الغرب بالشرق، وان هذا الحسد وهذه الشراهة كانا من الدوافع التي أملت الحروب الصليبية وهما أيضا كانا الدافع الأول وراء انغماس أوربا الى الأذقان في تجارة الرقيق والأفيون حين بدأت البرتغال في القرن الخامس عشر/التاسع للهجرة بتجارة الرقيق الأسود للعمل في مستعمراتها في القارة الأمريكية وتبعتها اسبانيا. ومابدأ القرن السادس عشر/ العاشر الهجري الا وأصبحت تجارة الرقيق مربحة لملوك أوربا وخاصة اليزابث الأولى ملكة انكلترا التي كانت لها اليد المحركة في إنشاء شركة الهند الشرقية (في سنة ١٦٠٠/١٠٠٩ للهجرة) فصارت هذه الشركة الانكليزية الرسمية تصدر الأفيون الى الصين من مزارعها الهائلة فى البنغال. ولما تدخلت الحكومة الصينية ومنعت دخول الأفيون تدخلت بريطانيا «العظمى» وأشعلت الحرب المعروفة في التاريخ بحرب الأفيون. ولعل أصدق وصف لشراهة أوربا هو وصف المؤرخ الأمريكي داكوبرت رونس[٤٣] حين قال: «المستعمرون في القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر أيضا الذين يحلو لهم أن يسموا أنفسهم بالمبشرين والمكتشفين لم يكونوا في الواقع الا قراصنة جشعين وشرهين همهم السلب ـ يرفعون الصليب على حيزوم السفينة وجمجمة الانسان الملون على الصاري. أما مستعمرو القرن الثامن عشر والتاسع عشر فقد كانوا صيادي العبيد والبلدان التى لم تعتد عليهم، ومن جاء بعدهم كان همه الاستغلال والتسابق لأجل الأسواق الجديدة والمناجم الجديدة والمزارع الجديدة[٤٤] . بطرق غير انسانية.

ولهذا المؤرخ رأي فى الحروب الصليبية أورده دون تعليق، قال: «لم تنتج الحروب الصليبية فى المأتي سنة التى استغرقتها غير آثار الدمار للشرق وللغرب وقد سببها اولئك الذين ركبتهم شراهة التوسع على حساب غيرهم ـــ اولئك الذين حملوا الصليب على أكتافهم والشيطان في قلوبهم ومع هذا فان تأثير الحضارة الاسلامية والبيزنطية عليهم لم يكن في استطاعتهم تجنبه أو تحاشيه وهنا بدأ شعاع الشرق يشع من خلال الكوى على أوربا القرون الوسطى المظلمة. وأن مايسمى بالنهضة في أوربا لم تكن في الواقع أكثر من اقتباس الثروة الحضارية لقرطبة وغرناطة وطليطلة ونقلها إلى أوربا نصف البربرية» (٤٥) .

الإسلام ومؤرخو أوربا.

انقسم المؤرخون في الغرب إلى فئتين: نسبت أولاهما تدهور أوربا البيزنطية اقتصادياً وحضارياً إلى ظهور الاسلام وأشهر مؤرخي هذه الفئة البلجيكي هنري بيرين(Henri Pirenne)صاحب كتاب «محمد وشارلمان» الذي رأى: أن أوربا كانت تعيش فى بحبوحة وثراء لأن طرق التجارة الموصلة الى شواطىء بلجيكا وفرنسا واسبانيا من شواطىء سوريا البيزنطية كانت مفتوحة لتوصيل الذهب والحرير والقراطيس وأنواع التوابل الشرقية، فكان الذهب يضرب نقوداً بيزنطية ليدفع ثمنا لمواد الترف الآسيوية كالتوابل من أندونيسيا والقراطيس من مصر، والحرير من الصين، وقد انقطع هذا الترف في بداية القرن السابع (الأول للهجرة) ـــ فانقطع سيل الذهب واختفت النقود الذهبية من العملات الأوربية ومعها اختفت البضائع الآسيوية، وسبب هذا كله يمكن تلخيصه بكلمة واحدة: محمد، الذى أخضع الجزيرة العربية لدينه ومن بعده تولى خلفاؤه اخضاع سوريا ومصر، وشمال أفريقيا وأسبانيا، حيث تم على أيديهم قطع شريان الحياة نهائيا عن أوربا(٤٦) . وعنده أن هذا الشريان لم يتدفق بالحياة الا في بداية القرن الثاني عشر ـــ (زمن الحروب الصليبية). الا أن هذا الشريان انقطع مرة

أخرى بعد أن أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عثمانية بسقوط القسطنطينية. وعند المبشر كاش ظهر الوجه دون قناع فقال: «بدأت نهضة أوربا لتطويق الاسلام وذلك باكتشافاتها لطرق جديدة ولذلك فقد حوصر الاسلام وقطع عن مصادر معارفه الصافية فبدأ بالاضمحلال وعاد بعد ذلك إلى أنظمته التقليدية القديمة فركد»[٤٧] . ولاندرى أين تقع هذه المصادر الصافية؟

والفئة الأخرى من المؤرخين فى الغرب، ومن تبعهم من المؤرخين الأسبان، أصرت على أن الاسلام كان عاملاً جوهرياً فى الحد من تقدم المدنية الغربية، لأنه باستيلائه على سوريا ومصر وشمال أفريقيا البيزنطية وعلى أسبانيا الغوطية حطم المدنية البيزنطية والغوطية وشغل الامبراطورية البيزنطية بالحروب التي انهكت قواها. ولم ينس هؤلاء أن ينسبوا كل حركات الاصلاح في النصرانية قبل لوثر الى الاسلام فوصموها بالزندقة والالحاد وشبه الشيء ــ عندهم ــ منجذب اليه.

وهناك فئة ثالثة وقفت بين هؤلاء واولئك فانصفت ماوسعها الانصاف، وجمجمت حين أرادت التشويه، وهؤلاء مع كل ذلك أقرب الى الحق وأبعد عن الموضوعية العلمية الصرفة حين يقف الشعور العرقي حاجزاً بين الاعتراف بالحق أو التبرير. وقد رأى بعض المؤرخين في طرد المسلمين واليهود من أسبانيا ضربة هائلة وجهتها الكنيسة ومحاكم التفتيش إلى تقدم اسبانيا الحضاري لأنها فقدت الأيدي الصانعة الماهرة في كل علم وفن.

محاكم التفتيش وتشديداتها

لم يخل كتاب في تاريخ العصور الوسطى إطلاقا من الحديث عن محاكم التفتيش وأعمالها المرعبة الفظيعة وأثرها في الخنق الفكري والاجهاض الحضاري بل فى الافناء الشامل الجماعي لمدن بكامل سكانها رجالاً ونساءاً واطفالاً، دون رحمة من دين أو شفقة من انسانية، لمجرد أن هذه المدينة أو

تلك تمردت على سلطة البابا في روما أو أنها رأت في الأنجيل مالم يره لها البابا فحكم على أهلها بالفناء وعلى ممتلكاتهم كلها بالمصادرة وخاصة في جنوب فرنسا كتور وطولوز. ولم تسلم مدينة قط فى أوربا من فضائح محاكم التفتيش التي احرقت الألوف من الناس علنا بتهمة الزندقة فسلطت سيفاً رهيباً من الأرهاب على كل رأي غير رأي البحر المقدس (البابا) فكانت تهمة الزندقة تلصق بكل من ينكر سلطة روما على أنها العليا أو من يستهين بأوامرها[٤٨] :

(to deny the supremacy of Rome and to disregard its commands was heresy)

«ان انكار وجود الله تعالى كان يعد جرما بيد أنه أقل جرما من أنكار سلطة البابوات العليا». [٤٩]

(the denial of God was an offence less than the denial of papal supremacy)

من هذا يبدو جلياً ان ماذهب اليه بعض المؤرخين المسرفين من أن الاسلام كان عاملاً جوهرياً فى الحد من تقدم المدنية الغربية وخاصة فى أسبانيا تدحضه أعمال محاكم التفتيش التي استمرت في خنق أية بادرة جديدة حتى القرن التاسع عشر وصرخة الملكة مارى لويز فى وجه رئيس محكمة التفتيش الأسباني: «إنه أنت ايها المنافق وأمثالك الذين يسببون الثورات في أوربا» [٥٠] دليل على من كان وراء خنق التقدم وبأي مظهر كان ــ فكرياً أو حضارياً، بل إن الطريف في الامر هو أن بعض هؤلاء المؤرخين رأى أن ظهور طائفة الكثاريين (Cathari) (من اللفظة اليونانية: كثاروس: الاطهار) وطائفة الوالدويين(Waldensians)(نسبة الى مؤسسها والدو) سببه وجود عناصر إسلامية بينهم وذلك لأنهم انكروا فائدة وجود الواسطة بين الخالق والمخلوق وأصروا على أنه: «لو اجتمع البابوات من أولهم الى آخرهم، وكل الكرادلة والرهبان جميعاً على أن يحطوا ذنباً واحداً عن أي انسان فانهم لن يستطيعوا الا إذا شاء الله الذي هو وحده يغفر الذنوب»[٥١] .

وعند المؤرخ الانكليزي هيو ترفور روبر أن تقدم أوربا لم يكن مستطاعاً

إلا بعد أن حطمت أوربا نير استعباد الكنيسة واستلبت منها ماسلبته من حرية وأوقاف[٥٢] ، استولت عليها من أصحابها الذين أدانتهم محاكم التفتيش، وجعلت أجسادهم طعمة للنيران أو خلدتهم في السجون. وعلى رأي المؤرخ داكوبرت رونس: لقد اتفق البابوات والملوك في أوربا واسبانيا على مساندة محاكم التفتيش بقوة، ومباركة أعمالها البربرية لسلب كل ممتلكات المسلمين واليهود الذين كانوا تحت سيطرتهم باسم السيد المسيح فعرضوهم للقتل والاحراق. وقد كانت جلسات المحاكم هذه سرية، وكان كل الحكام من القسس الذين خولهم البابا سلطة مطلقة في أحكامهم. وبالرغم من آلاف القضايا التي نظرت فيها هذه المحاكم فإنَّ وثائقها لم تسجِّل قضية تبرئة واحدة قط[٥٣] ومع أنَّ الغرض الأول من إقامة هذه المحاكم كان لمحاكمة المشتبه في دينهم من النصارى الا أنها لم تقتصر على المنكودين من النصارى في شتى أقطار أوربا وأسبانيا بل شملت فيما شملت حتى اتباع الكنيسة الشرقية ممن وقع لسوء طالعه في قبضتها. بل إن الثابت عند أكثر المؤرخين المعاصرين، أن جشع ملوك أسبانيا وشرههم الدافق للذهب وتعصب بابوات روما قد قتلا الحضارة الاسلامية في الأندلس أولا ووقفا حائلا بينها وبين استفادة أوربا منها غير أن هذا الشره وهذا التعصب أو الهلع لم يمنع تسرب الحضارة الاسلامية بصورها المختلفة الى أوربا.

ولو استعرضنا تاريخ العرب المسلمين في أسبانيا منذ سقوط غرناطة في سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩١م وحتى سنة ١٠١٩هـ /١٦١٠م حين طرد الموريسكو(المسلمون المتنصرون بالاكراه) من كل الجزيرة الأسبانية وتشردهم في فرنسا وايطاليا حيث رفض البابا في سنة ١٦١٠ ــ ١٦١١ بقاءهم بالرغم من مضي ١٢٠ سنة على تنصرهم الاكراهي، ومن ثم الويلات والفظائع المرعبة التي لقوها على أيدي أخوانهم في المسيح! في أسبانيا والبرتغال وفرنسا وايطاليا؛ لخرجنا بدرس في الانسانية عميق، حول رسالة روما للبشرية ودور خليفة المسيح وانسانية النصرانية الكاثوليكية ورجال لاهوتها أمثال خمينز الذي فرض النصرانية على أهل غرناطة بالعنف، ولما

طلب هؤلاء المتنصرون أن تكتب لهم تعاليم هذا الدين بلغتهم العربية رد عليهم: «أننا لانرمي حبات الدر النفيس للخنازير» (٥٤). وهذا الأرعن هو الذي أحرق آلافاً من المخطوطات العربية الرائعة ــ على قول مؤرخي الغرب ــ بلغت على أقل تقدير ثمانين ألف مخطوطة في غرناطة وحدها(٥٥). وهاجم بنفسه وهران والجزائر وطرابلس.

الكنيسة وسلطتها

لقد أحست الكنيسة وعلى رأسها البابا ورجاله أن حياتها بله سلطتها المطلقة على ملوك النصرانية في أوربا أو أسبانيا مهددة بالضعف اذا لم تحكم قبضتها، ولأنها رأت أن التسامح الديني والعرقي في الاسلام قد أغرى الكثير من النصارى على اعتناق الاسلام، أو الانضواء تحت رايات الحكام المسلمين لمحاربة أعدائهم ومن ثم كثرة التعاون بين ملوك الطوائف فى الأندلس مع ملوك ونبلاء النصرانية فيها، أحست الكنيسة أن هذا الاحتكاك سوف يساعد على انتشار التسامح في كل أسبانيا وبالتالي يضعف أو يحطم سيطرتهم المطلقة لذلك لجأت إلى إنشاء محاكم التفتيش بحجة تصفية النصرانية من حركات الالحاد والزندقة، ولذلك بذلت الكنيسة جهداً جباراً لتحطيم التسامح لأن موتها فيه، فنجحت في بث الحقد الأسود فكان فيه حياتها واستمرار سلطتها ولهذا فقد كان خوفها من الاسلام جعلها تُصِرُّ على بث التفرقة كما يقول المؤرخ لي:

(The Church, exerted every effort to keep them apart, on the humiliating pretext that she would lose more souls than she would gain ...)(56)

فأمرت كل قسيس في خدمتها أن يبين للنصارى في كل يوم أحد أن البابا يحرم كل تعامل مع المسلمين بل ان «كل من يبيع الحديد أو الاسلحة أو الخشب أو أي شيء يساعد على بناء السفن أو الخبز أو النبيذ أو أي

حيوان للأكل أو أي حيوان يصلح للركوب أو الحراثة أو أي شخص يعمل في سفن المسلمين كدليل أو غيره أو أي فرد ينخرط في جيش المسلمين لمحاربة النصارى، معرض للحرمان البابوي، ومعرض مع ذلك للعبودية والاسترقاق»(٥٧) . وقد جاءت الفرصة السانحة في بداية القرن الثاني عشر / السادس للهجرة لتثبيت قبضتها حين استخدمت رهبان دير كلوني لاثارة الحرب الصليبية الدموية ضد طائفة البجانسس(Albigenses)(نسبة الى مدينة البي في جنوب فرنسا)، فاسفرت هذه الحروب عن سيول من الدماء البشرية، ولم ينج نافخ ريح من المذابح، ولم ينج كذلك أي أثر مكتوب اطلاقاً لهم. فضاع تاريخهم وعقيدتهم ومع هذا فإن كلّ الذي نعرفه عنهم ما جاء في تواريخ جلاديهم وسجلات محاكم التفتيش؛ من أنهم رفضوا سلطة البابا وأنكروا قداس المناولة في تحول الخبز إلى جسد المسيح والنبيذ إلى دمه، وهذا القداس هو واحد من أركان الطقوس البابوية الكنسية(٥٨) .

الحديث في كل ماسبق طويل، وذو شُعب، احتوته مجلدات لاحصر لها وتواريخ متعددة الأهواء، ووثائق وصلت الينا بلغاتها المتباينة والمتعددة، وميولها المعتدلة والمسرفة، وكلها موجودة متوفرة لطالبها ومتطلبها. ويكفينا في هذا المجال أن نؤكد أن الدافع الأول وراء مذابح جنوب فرنسا **اولاً:** وانشاء محاكم التفتيش في كل أوربا وأسبانيا والحملات الصليبية التى اثارها اوربان الثاني **ثانياً:** لم يكن لنصرة الدين المسيحي أو تصفيته من الزندقة، كما رأى بعض المؤرخين، ومن ثم لم يكن اقتصاديا كما رأى الكثير من المؤرخين، ولم يكن أيضا لإنقاذ امبراطور بيزنطية الذي كان زنديقا في نظر بابا روما؛ بل إن الدافع الحقيقي وراء كل ذلك كان احساس البابوات الرومان بأن سلطتهم المطلقة قد أصابها الوهن، فلجأوا الى إثارة الاحقاد، وبث التفرقة وجاءت استغاثة امبراطور القسطنطينية في أبرك ساعة إذ لم يكد البابا أوربان الثاني يسمعها حتى أسرع إلى كليرمون — في مقاطعة البروفانس بجنوب فرنسا — مؤلبا الفرنجة على المسلمين لمعرفته الجيدة أن زملاءه رهبان

ديـر كلوني قد هيأوا له الجو فبدأ خطبته المشهورة مفترضا في السامعين الكره العـميـق والحقد الأسود للاسلام، وبعدها بدأت الحروب الصليبية العدوانية والتـي كـان الـبـابـا الـرابـع الـوحيـد منها. وقد تجلى هذا الحقد حين فتح الـصـلـيـبـيـون انـطاكية والمعرة والرها وبيت المقدس(٥٩) أو الاسكندرية أو دمـيـاط. غير أن هـذه الـسـلـطـة المـطـلـقـة لم تـدم طويلا بالرغم من محاكم الـتـفـتيش، لأن الانسان بطبيعته الانسانية مجبول على الحرية الفكرية فكان هـبـوب الـريـح مـرة أخرى من أسبانيا المسلمة على أوربا النصرانية. حاملة مـعـهـا هـذه المرة فـلـسـفـة ابـن رشد لتهز سلطة الكنيسة المطلقة. فقد كانت حـضـارة أسـبـانـيـا الـقـرون الوسطى عربية اسلامية فى طابعها. ومن جنوب البرانس جاءت ثقافة مقاطعة لانكودوك المتميزة حيث نبتت حركات الزندقة بـوفـرة. فـمـن قـوم غير نـصـارى جـاءت الـفـلسفة وعلم النبات وعلوم الآداب والـظـرف والـبـراعـة الـصـنـاعـيـة والـتـجـارية فأوجست روما من كل ذلك خيفة(٦٠) .

تأثير فلسفة ابن رشد

وقـبـل أن نـعـالـج تـاثير فـلـسـفة ابن رشد نرى لزاماً علينا أن نوضح أن النشاط الجدلي بين المسلمين واليهود ومن ثم النصارى وهو مايسمى عندهم (polemics) لـيـس جـديداً وهو ظاهرة جدّ طبيعية يفرضها الاحتكاك الديني أو الـسـيـاسي، ومايتفرع منها من مجادلات كلامية أساسها الدفاع والمفاضلة، بـيـد أن هـذا الـنـشـاط الجدلي الذي بدأ في اللحظة التي بشر فيها النبي — عـلـيـه الـصـلاة والـسـلام — بـرسالته قريشا لم ينته بعد. ولن يتوقع أحد أن ينتهي مـادام الاسـلام مختلفا عن دين موسى وعيسى. ففي القرآن والحديث والـسـيـرة الـكـثير من هذه المناقشات الجدلية. ومع أنَّ بعض المستشرقين رأى فـي هذا النشاط الجدلي بداية للاستشراق، فإنه كان موجها لليهود والنصارى فـي دار الإسـلام مـن عـلـمـائـهم. وقد وصلنا بعض هذه الكتب التي كتبها الـنـصـارى انـفـسـهـم مثل كتاب **«ارشاد النصارى في جدل المسلمين»**

وكتاب «**محاورة مع مسلم**» وكلاهما ليوحنا الدمشقي المتوفى في سنة ١٣٢هـ ، أو الكتب التى صنفها نصارى أو يهود دخلوا الاسلام أو التي كتبها المسلمون أنفسهم وقد وصلنا من هذا النوع ومن ذلك النوع عدد كبير، ومالم يصلنا اكبر. ولعل محاورة يوحنا خير مثال للكتب الجدلية في أوائل عصرها فان الاسلام الذي رأى فيه يوحنا الدمشقي نوعا من حركات الانشقاق والهرطقة المسيحية لم يتبدل عند المستشرقين والمستعربين ومن لف لفهما حتى اليوم[٦١] .

ان كان المتنبي قد ملأ الدنيا وشغل الناس بشعره في الشرق الاسلامي وغربه فان ابن رشد قد أقام الدنيا ولم يقعدها بعد في الغرب النصراني بفلسفته وبشروحه على كتب أرسطو فحاز بحق لقب «الشارح الأكبر» ولذلك قيل فيه: «الطبيعة تفسر بأرسطو وأرسطو يفسر بابن رشد»[٦٢] . والطبيعة هنا تعني علم مابعد الطبيعة أو «الميتافيزيقا».

معنى الفلسفة

الفلسفة أداة إنسانية عقلية لتقرير أو لتبرير أو لفهم أو لتفسير أو لتقريب أو لتعليل بعض المسائل التي لم يستطيع الانسان إدراكها فاتخذ العقل مطية والمنطق دليلاً لسبر مالم يدرك وتفسير مالم يفهم ودافع الانسان في كل ذلك حب دافق، واستطلاع عجيب وتسآل لايكل ولايمل. والفلسفة بعد ذلك وليدة الترف الفكري والاستقرار الحضاري، وشأن المعنى بالفلسفة لايختلف عن شأن المعنى بأي جانب من العلوم بيد أن المعنى بالعلوم يبدأ بمقدمات نظرية حدسية مبنية على نتائج تجريبية واقعية تقوده بالتالي إلى تتبع مستمر وملاحظة منظمة تنتهي به الى نتائج علمية ثابتة فى مقياسها ونظامها. والمعنى بالفلسفة يبدأ أيضا بفرضيات حدسية مبنية على مقدمات عقلية منطقية تفضي به الى نتائج حدسية عقلية منطقية مقبولة له ولذلك قيل إن الفلسفة تبدأ حيث ينتهي العلم ــ والعلم هنا هو العلم التجريبي بشتى فروعه واختلاف ضروبه أو يعني المعرفة والفهم الانساني المحدود الذي لايستطيع أن يتعدى حدوده بحكم الطبيعة الانسانية فيه، والتي حددها النظام الإلهي للخلق. ولو تعدى الانسان حدوده الانسانية ــ وهذا محال ــ

لأصبح شيئاً آخر ولسقطت عنه اسمية الانسان. من هذا نخلص الى أن العقل الانساني مجبول على المحدودية في الفهم والادراك والتخيل والتفكير، وهو مع كل هذه المحدودية حاول أن يجد تبريراً معقولاً للظواهر الكونية، وللوجود ذاته فشط الكثير من الفلاسفة وتعمَّلوا ورأوا في انفسهم سموّاً عقلياً ورفعةً تخولهم المعرفة والحكمة، وأشفق العلماء على الدهماء والعوام من هذا الترف الفكرى الوافد ومن هذا التعمل المنطقي في تفسير الواجد والموجود والخلق والروح والجوهر والعقل الأول والعقل الفعال والسبب والمسبب والواجب لنفسه والواجب لذاته، والممكن والواجب، وقدم العالم وحدوثه بالرغم من أن الفلاسفة أصروا على أنهم أرادوا التوفيق بين الدين والعقل كما فعل ابن رشد. ومع أنه لم يكن الوحيد من الفلاسفة المسلمين ممَّنْ حاول التوفيق الا أن توفيق ابن رشد لم يكن على حساب الدين بل على فلسفة ارسطو، وذلك لأنه اعتمد على مبدأ اسلامي أصيل: وهو التفرقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ذلك المبدأ الذي يقرر التنزيه الكامل لله سبحانه وتعالى، قد استخدمه في حل مشكلة الخلق ومشكلة الخير والشر والعدل والجور والتفرقة بين العلم الالهي والعلم الانساني والروح وخلودها وما الى ذلك من المسائل التي فرقت مفكرى الاسلام مما هو مبسوط في كتب الفرق والملل والنحل والعقائد.

قلت إن الفلسفة وليدة الترف الفكري والاستقرار الحضاري سواء كان ذلك عند اليونان أو الهند أو في بغداد عندما انتقل الحكم من أيدي الأمويين الى العباسيين، ولم يعن الأمويون بالفلسفة لأسباب منها: انشغالهم المستمر بالفتوحات، وقمع الثورات، وتثبيت سلطانهم، واعتمادهم على العنصر العربي الخالص الذي لم يكن له بالفلسفة عهد ولم يتعود على هذا الترف الفكري الذي تأباه طبيعته، ومن ثم لم تكن هناك حاجة جدلية اليها كما كانت الحاجة اليها في العصر العباسي الأول حين بدأت الفرق الكلامية مناقشاتها في القدر والجبر والاختيار وفي مرتكب الكبيرة وما الى ذلك. «وقد طالع شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون فخلطت

مناهجها بمناهج الكلام، وافردتها فناً من فنون العلم وسمتها باسم الكلام: إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها، وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام، فسمي النوع باسمها، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان» ـ كما يقول الشهرستاني(٦٣).

لقد أراد المعتزلة أن ينزهوا الله سبحانه وتعالى عن التشبيه والتجسيم، وهم أرادوا بذلك أن يؤكدوا وحدانيته وعدله وحرية الانسان في فعله الذي يتحمل مسئوليته، وجرهم ذلك الى مسألة خلق القرآن، أو أزليته الخطيرة والمشهورة، ووقف الأئمة كالامام أحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر الخزاعي، وغيرهم أمام هذا الترف الفكري الوافد الذي نصره المأمون والمعتصم والواثق فصبر الإمام أحمد بن حنبل على المحنة والجلد فانتصر، ولقي أحمد بن نصر الخزاعي ربه مقتولاً بيد الواثق العباسي في هذه المحنة حتى قيل: «لولا محنة أحمد بن حنبل لصار الناس جهمية» (٦٤). ومدار هذه المحنة، وكل المعارك الكلامية على التأويل الذي أنكره أئمة السلف وقالوا: « نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولانتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعا أن الله عز وجل لايشبه شيئاً من المخلوقات وأن كل ماتمثل فى الوهم فإنه خالقه ومقدره وإن التأويل أمر مظنون بالاتفاق والقول فى صفات البارى بالظن غير جائز»(٦٥). ثم جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري فسلك سبيلا وسطا بين رفض التأويل أصلاً وبين الاستفادة من درايته وعلمه بضروب علم الكلام مما درسه على الجبائي المعتزلي وتبعه في الاعتزال والاعتزال بطبيعته مذهب عقلي صرف لذلك اخضع العقيدة لمعيار عقلي في الارادة والقدر والعلم والحدوث والرؤية والوعد والوعيد والأسماء والأحكام والسمع وما الى ذلك من مسائل الصفات والعقل فخالفهم الأشعري بيد أنه لم يهجر منهجه المعتزلي العقلي في كل الآراء التي خالف بها المعتزلة، وكل ذلك مبسوط في كتب القوم وكتب الملل والنحل وفي الدراسات المعاصرة الكثيرة. والذي يتصل بنا من كل ذلك هو موقف ابن رشد من أصحاب الكلام والأشعرية والمعتزلة الذين هاجمهم بعنف.

ترجمة العلوم الأجنبية ونشأة الجدل الكلامي

لقد بدأت الترجمة لعلوم اليونان والهند وفارس عند المسلمين في زمن مبكر اذا صدقنا الرواية التي تقول أن خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان كان مشتغلا بها ومعنياً بعلوم الأوائل (٦٦) بيد ان الترجمة الحقيقيَّة بدأت بقيام الدولة العباسية وقد قرنت باسم عبد الله بن المقفع الذي كان مقرباً لوالد ابي العباس السفاح وعلى يده أسلم، ولما تولى المأمون الخلافة أولاها عناية الدولة فأنشأ بيت الحكمة وعهد الى مترجمين «حكوميين»[إذا جاز لنا أن ننعتهم بذلك] من النساطرة وغيرهم من النصارى واليهود والصابئة بمهمة الترجمة، وعلى رأسهم يوحنا بن ماسويه، وحنين بن أسحق، وابنه اسحق، وابن اخته حبيش الاعسم الدمشقي، وكانت الترجمة إما من السريانية، أو من اليونانية، مباشرة وحرفية مما أبهم معانيها وأغمض مبانيها فبدأ دور اصلاح هذه المترجمات، مما نراه كثيراً عند ابن النديم، وابن ابي أصيبعة، عند كلامهما عن بعض المترجمات التي ترجمها فلان وأصلحها فلان. فزادت الكتب المترجمة في كل علم وفن الا ما له صلة بالوثنية، فكثرت الكتب الفلسفية. ولما كان الناس على دين ملوكهم، فقد راج سوقها ورواج العلوم يعتمد على تطلبها ورغبة ذوي السلطان فيها، فزاد تطلبها وتدارسها، لأن الجو الحضاري كان متهيئاً لها والمأمون قد استجاب لرغبة حاضرة واستعداد متوفر فرضته الظروف العقلية، ولهذا كان تأثيرها واضحاً فى نشوء الجدل الكلامي فالتمس كل فريق سنداً لدعواه في المنطق الكلامي لافحام خصومه وغلبة مناهضيه. وقول الشيخ أبي حامد الأسفرائيني الذي رواه أبو حيان التوحيدي يوضح لنا الغاية من الجدل الكلامي:

قال التوحيدي: «سمعت الشيخ أبا حامد يقول: لا تعلَّق تكثيراً مما تسمع مني في مجالس الجدل فإن الكلام يجري فيها على ختل الخصم ومغالطته ودفعه ومغالبته فلسنا نتكلم لوجه الله خالصا ولو اردنا ذلك لكان خطونا الى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام» (٦٧) . ومثله قول ابن

قتيبة حين وصف الجو الجدلي النفعي في زمانه فقال: «كان طالب العلم فيما مضى يسمع ليتعلم، و يعلم ليعمل، و يتفقه في دين الله لينتفع و ينفع، وقد صار الآن يسمع ليجمع، ويجمع ليذكر، ويحفظ ليغالب و يفخر» (٦٨) . وكان من نتيجة الترجمة أن ظهرت الفلسفة في الإسلام لظهور الترف الحضاري فظهر لذلك الترف الفكري وهو مظهر حضاري متوقع، فكان ابن سينا والكندي والفارابي والسجستاني ومسكويه وغيرهم في القسم الشرقي من العالم الاسلامي اذ ذاك، وكان ابن طفيل وابن رشد وابن سبعين وابن مسرة وابن باجة وغيرهم في القسم الغربي وماكان عند المشرقيين من اختلاف وأتلاف وخصومة وإدانة كان صداه في المغرب والأندلس. وكما كان الفقهاء في المشرق أشداء على الفلسفة والمتفلسفين، كان الفقهاء فى المغرب والأندلس ينكبونهم ويحرقون كتبهم و ينفّرون الناس عنهم حفاظاً على أصالة الدين وحماية للناس من الضلال في وقت كان كل انسان في الأندلس يحسن القراءة والكتابة، يوم أن خلت أوربا ممن يلمّ بهما، ماخلا الطبقة العليا من القسيسين والرهبان (٦٩) . والى هؤلاء الرهبان يعود الفضل الأول في انشاء الجسور الفكرية بين أوربا نصف البربرية وأسبانيا الاسلامية المتحضرة، وهنا بدأ دور الترجمة المضادة ـــ من العربية الى اللاتينية، فترجمت كتب فى الطب والرياضيات والفلك أول ماترجم. أما في الفلسفة فان ابن سينا كان أول من بدىء به، ثم بعد ذلك ظهرت ترجمات لكتب الكندي والفارابي وهكذا فإن اللاتين عرفوا منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر (النصف الأول من القرن السادس للهجرة) كتباً في الفلسفة الاسلامية مهمة للغاية (٧٠) .

ولعل من أغرب الظواهر في تاريخ الأدب فى القرون الوسطى؛ هو نشاط الاختلاط الثقافي والسرعة التى كانت تنتشر بها الكتب بين الأقطار المختلفة، وكان هذا الكتاب أو ذاك الكتاب الذي يؤلف فى مراكش أو القاهرة يعرف بباريس أو كولونيا فى وقت قصير. وكان الرجال الراغبون فى التعلم لايشعرون فى القرون الوسطى بأي حرج فى كونهم تلاميذ

لأساتذة من أديان أخرى، فالعلم كان مباحاً مشتركاً بين الجميع(٧١) . وكان الأساتذة المسلمون لايتحرجون من وجود تلاميذ من أديان أخرى لأن الدين الاسلامي يفرض على العالم نشر علمه وتذليله لطالبه. و يتبادر سؤال ملح الى الذهن: ماالذى دفع الرهبان الى الاختلاف الى الأندلس ليتعلموا علوم دين أقل ماقيل فيه أنه نوع من الهرطقة أو الزندقة المسيحية؟ والجواب مختلف عند جمهرة الباحثين، فمن الكتاب من رأى أنهم فعلوا ذلك لكي «يتتبعوا العورات و يتلمسوا الزلات»(٧٢) ، و بعضهم رأى أنهم أرادوا تعلم علوم المسلمين «للنفوذ منها للاسلام» (٧٣) . وآخرون رأوا ذلك «استعادة مأأخذه المسلمون من الثقافة اليونانية عن طريق نصارى الشرق»(٧٤) أو لتخريج أهل جدل يقارعون المسلمين و يردون عليهم ببراهين من كتبهم أنفسهم فى البلاد التى أجلاهم الاسلام عنها. وكل هذه الآراء مجتمعة ومتفرقة لاتقوم للنقد الدقيق لانها مرتبطة كلها بالعصر الذي سبق عصر الترجمة المضادة ـــ من العربية الى اللاتينية ـــ وهذا العصر هو عصر حركات الهرطقة في أوربا النصرانية والذي ربط بتأثير اسبانيا المسلمة لجوارها لجنوب فرنسا. وفي هذا العصر أيضا كان استيلاء الفونسو السادس على طليطلة في سنة ١٠٨٥ للميلاد جزاءاً على ضيافة أميرها المسلم له حين كان فاراً من سيف أخيه سانجو(٧٥) . ومع أن مؤرخي هذا العصر اختلفوا فى عقائد هذه الفرق المرتدة عن النصرانية بيد أنهم لم يختلفوا في عامل الجوار والتعامل وذهبوا بعيداً فى تأثير المانوية الايرانية على بعض هذه الحركات، بيد أن رينان الفرنسي ذهب إلى أنه: «ولابد أنه كان لابن رشد دور فى ظهور الفرق الملحدة فى النصرانية والتى هزت مدرسة باريس فى السنين الأخيرة من القرن الثاني عشر والسنين الأولى من القرن الثالث عشر»(٧٦) . ورينان يشير هنا الى الدور الذى لعبته فلسفة ابن رشد فى بلبلة الفكر الديني المسيحي ولو لم يكن تأثير الإسلام الفعلي على هذه الحركات لكسر طوق الكنيسة هو الهمّ الشاغل للبابوات لم يكن ثمة سبب في اعلان البابا انوسنت الثالث أمام مجمع لاتيران: «ان فساد الناس يرجع

في أصوله الأساسية الى رجال الدين ومن هؤلاء نبع كل شر في الديانة النصرانية؛ لقد انعدم الايمان [بسلطة البابا]، وزال الدين ... وازداد عدد المارقين من الدين، وتضاعف الهراطقة وتشجع الخوارج وأصبح المارقون أقوياء، وقد صار المسلمون منتصرين (the Saracens are victorious) وأعاد البابا هونوريوس الثالث كل هذه التوكيدات (٧٧) . والذي نعلمه أن البابوات أرسلوا كثيراً من القسس والرهبان الى هذه الحركات في محاولة منهم لاعادة هذه الخراف الضالة!! الى أحضان الكنيسة بالمناقشة والوعظ والوعد والوعيد، بيد أن رجال هذه الحركات كانوا الغالبين في كل محاورة ومناقشة. ولما فشل الاقناع بدأ دور السيف والنار. وفي هذا العصر بدأ الرهبان بالاختلاف الى الأندلس لتعلم علوم الجدل الديني الذي أمدّ الخوارج باسلحتهم العقلية فتجرأوا على التمرد والعصيان.

وهنا يمكن أن نفترض أن الرهبان الذين اختلفوا الى الأندلس كانوا يهدفون الى تعلم أسلحة الخوارج العقلية حتى لايؤخذوا على حين غرة، اذا ما ذرّت حركة جديدة قرنها، فكان هذا الدافع سبباً في مدّ الجسر الفكري بين الأندلس وعلومه وأوربا. ويجب أن لايغرب عن البال أن هؤلاء الرهبان كانوا هم جنود البابا وعيونه وخاصة الدومينيكان، الذين لعبوا دوراً لايشرف البشرية في محاكم التفتيش، وتبعهم اليسوعيون (الجزويت) في تثبيت سلطة البابا بحماسة دونها حماسة البابا نفسه ومايزالون حتى يومنا هذا. وقد المعنا فيما سبق الى دور رهبان دير كلوني وبطرسه المحترم. والذى لم يدر في خلد هؤلاء الرهبان أن ترجماتهم لآثار الفكر الاسلامي ستكون هي أيضا عاملاً فعالاً في نشوء الفرق والحركات الملحدة في النصرانية حين أعارت الفكر الديني النصراني في أوربا سلاح العقل، مما حدا بأحد هؤلاء المترجمين الرهبان ــ ادلر اوف باث (١٠٧٠ ــ ١١٣٥م) ــ الى التصريح في محاورة بينه وبين ابن أخيه: « إننى وقائدي العقل قد تعلمت من أساتذتي العرب (*) غير الذى تعلمته أنت فبهرتك مظاهر السلطة بحيث

(*) العرب بمفهوم أوربا القرون الوسطى معناه: المسلمون والمصطلح باللاتينية/هو: Saracenus وفي اليونانية Sarakénos

وضعت فى عنقك لجاماً تقاد به قيادة الانسان للحيوانات الضارية، ولا تدرى لماذا، ولا الى اين؟.. فقد منح الانسان العقل لكي يفصل به بين الحق وبين الباطل .. فعلينا بالعقل أولاً فإذا اهتدينا به، لا قبل ذلك، بحثنا فى السلطة فإن سايرت العقل قبلناها وإلا ...[٧٨] .

تأثير الفكر الإسلامي في أوربا

لقد كانت صلات أوربا بالفكر الاسلامي تقع عبر إسبانيا ولاسيما طليطلة بعد سقوطها وعبر صقلية حيث حكم الملوك النورمانديون أجزاء كبيرة من أوربا من قاعدتهم صقلية وزينوا بلاطهم بكثير من العلماء المسلمين فاستحقوا ماوصفهم هيو تريفور روبر فقال: « لقد أصبح الملوك النورمانديون أمراء شرقيين فأسبغوا رعايتهم على الشعراء والفلاسفة كالحكام والسلاطين المسلمين. وكانت دواوين الدولة تستعمل في سجلاتها اللاتينية واليونانية والعربية على حد سواء.. وكان الامبراطور فردريك الثاني — سلطان صقلية غير المعمّد — كما كان يسمى ، قد ملأ بلاطه بحاشية من العرب .. ولحبه العميق لرياضة البيزرة العربية فانه كتب بخطه كتاباً صنفه في هذا الفن وهو يعد من أنفس ماكتب في فن الصيد بالجوارح .. فاستحق لكل ذلك الحرمان البابوي وتأليب النصارى عليه»[٧٩] وقد أنشأ مركزاً للترجمة وعهد به الى مايكل سكوت وغيره فتمت ترجمة الكثير من الكتب العربية الى اللاتينية. وأمر بانشاء جامعة نابولي بمرسوم امبراطوري في سنة ١٢٢٤م/٦٢١هـ، وجعل شروح ابن رشد على مقولات ارسطو، وشروحه على الايساغوجي لفورفوريوس والفرغاني وغيرها كتباً مدرسية لهذه الجامعة. ولم يكتف بذلك بل أرسل نسخا من كل هذه الترجمات مع مايكل سكوت الى مراكز الثقافة في ايطاليا وباريس واكسفورد فتفشت فلسفة ابن رشد في كل هذه المراكز.

ولم يكد القرن الثاني عشر/السادس للهجرة ينتهي الا وقد تبنّت المراكز

الثقافية في كل من فرنسا وايطاليا وما جاورهما من البلدان تدريس المنطق وعلم الحساب والعلوم العامة ــ [الفلسفة والكلام والفلك والكيمياء وغيرها] ــ لتخريج اختصاصيين في اللاهوت [ثيولوجي] والقانون والطب... واهملت دراسة الآثار الأدبية اليونانية إهمالا يكاد يكون تاما، وكانت النتيجة لهذا المنهاج التدريسي أن أصبحت الدراسة في أوربا ملونة بالاتجاه الكلامي [الذي اتخذ الفلسفة والمنطق سبيلا في الاحكام] خلال القرن الثالث عشر(٨٠) (السابع للهجرة) وانتشر المذهب الجدلي وأهملت دراسة الانجيل وقل المهتمون به فى كل مراكز الثقافة وأقبل الطلاب على من يدرّس الجدل والمنطق الفلسفي، حتى وصل الأمر أن من كان يريد أن يلقي دروسا في الأنجيل يستجدي وقتا من سامعيه ومع هذا لايلقى عونا ولااصغاءا بل كان يجبر على السكوت اذا لم يوصم بالنشاز (٨١) .

ومع أن الكثير من مؤرخي الفكر الفلسفي في أوربا ذهب الى أن الغرب اللاتيني عرف ابن رشد من خلال ترجمات مايكل سكوت فان هناك بعض الدلائل الاكيدة تشير الى أن ابن رشد كان معروفاً قبل ذلك وان الفلسفة الرشدية قد حرمها مجمع باريس الديني الذي عقد في سنة ١٢٠٩/٦٠٥هـ : أي بعد عشر سنوات من موت ابن رشد(٥٩٥هـ/١١٩٨) (واعيد تحريمها في سنة ١٢١٥ وأكد البابا كريكوري التاسع في سنة ١٢٣١ كل ذلك)، كل ذلك يثبت أن فلسفة ابن رشد كانت متداولة متدارسة قبل أن يتمّ: «مايكل سكوت ترجماته في سنة ١٢٣٠م كما يقول روجر بيكون». (٨٢) ومع اختلاف المنافذ التى دخلت منها فلسفة ابن رشد الى الغرب فان الثابت تاريخيا في الأقل أنها انتشرت انتشاراً عجيبا فأثرت على عقول علماء النصرانية وتلاميذهم إلى حد لم يصل اليه مؤلف غيره، وقد ظلت فلسفته المذهب السائد على الرغم من ردود الفعل العنيفة أربعة قرون، ولقد بقيت فلسفته بكل حسناتها وبكل ماأضيف اليها من أخطاء عاملاً حيا في الفكر الأوربي حتى ولادة العلم التجريبي الحديث(٨٣) بل ان فلسفة ابن رشد العقلية أصبحت جزءاً لاينفصل من الفكر الأوربي اليوم.

لقد اخضع ابن رشد كل شيء سوى الشريعة المنزلة لسلطان العقل فان الانسان يتوصل بملكاته الطبيعية والتجريبية الى معرفة الموجودات الخفية وذلك لأن الانسان اذا لم يستطع إدراك هذه الجواهر، ذهب عمل الطبيعة الكامنة فيه سدى، مادامت لم تميّز معقولاً بلا عاقل يدركه. فابن رشد هنا أبرز ملكة العقل البشري فى التميز والادراك ومن ثم الايمان، فإنَّ انكار وجود هذه القوة في الانسان يعنى بالضرورة خفض منزلة العقل الى منزلة تقع تحت الاحساس بالفعل، ومن ثم فان ملكة العقل، هي قوة واحدة مشتركة بين البشرية فكما ان الانسانية مجموعة من الصفات في واحد، فهي موجودة في الجنس (*) ولذلك دعا هذا العقل العام بالعقل الفعال المشترك بين جميع النوع البشري ومن هنا ظن كثيرون من علماء اللاهوت في القرون الوسطى؛ إن ابن رشد قال: بوحدة النفوس البشرية فردوا عليه وطعنوا فيه لأنهم رأوا فى ذلك تساويا بين نفوس القديسين الشفعاء والبابوات «المعصومين» مع العامة والكفار. وقد كان مدار الفكر الرشدي على العقل في الوصول الى الحقائق الكونية من قدم العالم وحدوثه والروح وخلودها، وما الى ذلك ووجوب التوصل الى اليقين، ولأن العقل الصحيح خليق بان يرشد صاحبه الى الحقائق التي ينقلها الوحي الى الأنبياء بضرورة الاعجاز فان الاعجاز يفرض العجز الادراكي فيقود بالتالي الى التسليم العقلي. ولما كان العقل سجية أو استعداداً بغير صور هيولية وهو قوة منفصلة محلاة بهذا الاستعداد الفطري القائم بالانسان فإنه يدرك بالقوة الكامنة فيه مالايدركه الاحساس للمحسوسات، فإن ابن رشد قد هزّ علماء اللاهوت وقادهم بمنطقه دون أن يشعروا الى أخضاع العقيدة النصرانية، كما فعل المعتزلة من قبل، الى الجدل المنطقي فظهرت المساجلات الجدلية في العالم والروح، والبعث والحساب والعقاب والثواب، ومسألة أرواح القديسين الشفعاء، وهل أنها تبقى معلقة الى يوم الحساب أم ترتقي الى السماء لتقوم بدور الشفاعة لأتباعها ومحبيها؟ وأثيرت مسألة «الحبل بلا دنس» (immaculate conception)

(*) انظر قول النظام المعتزلي في كتاب الفرق بين الفرق: ص ١٣٦ «ان الروح جنس واحد وأفعاله جنس واحد».

ومسألة قداسة مريم العذراء قبل الحمل والتي استعرت بين الدومنيكان والفرنسيسكان، واشترك في كل هذه الحمى الجدلية كل الجامعات وطلابها والبابوات والرهبان، ورجال الدين واللاهوت، الى حد أن الدومنيكان ابتدعوا مخرقة ظهور العذراء في كنيسة بمدينة برن في سنة ١٥٠٧م والتي ظهر زيفها؛ لم ينقطع الجدل والاتهام بالزندقة لناكر قدسيتها الا في سنة ١٨٥٤م حين اعتبرها البابا بيوس التاسع احدى عقائد الكنيسة(٨٤) . مع ان الاسلام قررها قبل اثني عشر قرناً و يزيد من قرارهم.

ضروب النصرانية

ولما وصلنا معا الى هذه المرحلة، فإنني أرى لزاما عليَّ أن اتتبع التطور التاريخي لمفهوم الاسلام فى الفكر الأوربي، ومن ثم علاقة هذا التطور بنشوء الاستشراق الفعلي وصلته بتثبيت مفاهيم القرون الوسطى للاسلام في الفكر الأوربي الحاضر، وتأثير هذه المفاهيم على تلوين العلاقات ــ بكل ضروبها بين أوربا والعالم الاسلامي. وهنا آمل أن يكون الأمر واضحاً حول ماهية النصرانية الغربية التى تزعمها روما فإنها غير النصرانية الغريغورية الاريوسية التى رأت أن المسيح ليس بإلٰه، بل هو مخلوق من لاشيء الا أنه أول المخلوقات، والخلائق جميعاً اخوته. وأنها غير النسطورية التى رأت أن مريم البتول ليست بوالدة لله لأن الله لايمكن أن يولد من انسان، ولذلك قال نسطور: حاشا لى أن أعبد الها ابن شهرين الا أنه اعترف بأن المسيح فيه طبيعتان، احداهما اله من الله الأب والأخرى انسان من أمه؛ ومن ثم فان النصرانية الغربية هي غير النصرانية القبطية واليعقوبية، ومدار اختلاف هذه الفرق كان حول طبيعة المسيح أهو انسان أم اله، أمفترقان أم متحدان؟ والنصرانية الغربية بكل انشقاقاتها تقول بالاتحاد والحلول وان اختلفت في معنى هذا الاتحاد والحلول، فلذلك نظرت باشمئزاز وغطرسة الى كل هذه الفرق واعتبرتها خروجاً على التعاليم البابوية وسلطته فاستحقت الحكم المكرر عليها بالكفر والمروق والعصيان والاحتقار العميق. وهذا الاحتقار

العميق لكل ماهو غير بابوي النحلة والهوى، تسرب رويداً بتأثير وعاظ الكنائس والقسس والرهبان فخلق فيهم حالة نفسية استعلائية، صبغت العقلية الغربية والفكر الغربي في القرون الوسطى . وان هذه المشاعر التى لم تأل الكنيسة في تثبيتها، انعكست عمليا على علاقة أوربا بالاسلام والمسلمين، سواء أثناء الحروب الصليبية أو أثناء الحروب التي تسمّى بـ: إعادة فتح اسبانيا، أو مع سكان المستعمرات التي وقعت تحت سيطرتهم اثناء المد الاستعماري الذى نشهد أواخره اليوم. وهذا الشعور بالتفوق الديني الذى يمكن أن نسميه بـ«الشعور القومي الابيض» كان ايضاً عاملاً نفسياً عجيباً وراء نشوء نظريات العرق، ووراء نشوء الحماسات القومية التي شهدتها أوربا في حروب الوحدة. ولادري كيف يمكننا تفسير ظاهرة النازية الالمانية والفاشيات بأنواعها، دون أن نربط بين سلسلة التنازل العرقية النازية، ونظرية الأجناس العرقية؟ بل كيف تفسر الحركات العرقية التي بدأت الآن في انكلترا وهولندا ضد الاجانب؟ وهذا الشعور العميق بالتفوق الديني الابيض كان وراء الارساليات التبشيرية المقصودة للمسلمين في الجزيرة العربية، كعدن وحضرموت ومسقط والبحرين والفجيرة، وقطر، والتي تولاها المبشر الهولندي الاصل(صموئيل زويمر) وزميله(جيمس كانتين) خلال خمسين سنة في هذه الاصقاع. وقبل سبعة قرون من موت زويمر كان ريموند لول «يحس بالحزن والشفقة على الأبرياء المسلمين من عذاب النار»؛ بيد أن زويمر يقول «أن من جملة المطالب في الجزيرة العربية بل وأولها: الحق التاريخي، لأننا نعرف أن أصقاعا واسعة في الشرق الأدنى كانت نصرانية، والآن اسلامية وان المطالبة بشمال أفريقيا وسوريا وايران وفلسطين والجزيرة العربية، وآسيا الوسطى حق للنصرانية فى استعادتها ... يجب أن نعيد كسب الجزيرة العربية لدين المسيح، من أجل كرامة الكنيسة، ومن أجل كرامة اسم المسيح، ومن أجل شهداء نجران الذين ذكرهم القرآن .. إن الجزيرة العربية هي مهد الاسلام .. وان المحمديين في حاجة الى بشارة الانجيل بنفس الحاجة التي يحتاجها الآخرون (من غير النصارى)، ان الاسلام ليس هرطقة نصرانية بل انه كذلك ليس دينا غير

نصراني ـ ان الاسلام عدو للنصرانية فى أصولها وأخلاقها وتاريخها وحياتها»[٨٥] . ولو اتبع العالم مطالب هذا الشيخ «الجليل!!» لتبدلت خوارط العالم ولكن المنطق التبشيري والاستعماري لا يعرف الحياء. وهذا المبشر ليس فريداً في بابه ولاعجيباً في مطالبه، لأنه آمن ايمانا عميقا باختياره الآلهي لهذه المهمة فى تنصير المسلمين فى الجزيرة العربية لانها مهد الاسلام وبالتالي يسهل على غيره من المبشرين تنصير بقية المسلمين فى البلدان التى طالب بارجاعها الى حظيرة النصرانية ومثله هنا مثل كثير من المنصّرين والمستشرقين الذين ورثوا مفاهيمهم عن الاسلام ونبيه وتعاليمه من مفاهيم القرون الوسطى فآمنوا بها وصدقوها ولم يكلفوا أنفسهم تبديلها مع عيشهم الطويل بين المسلمين أومن زياراتهم المتكررة واطلاعهم على القرآن الكريم، والحديث الشريف وأصول كتب التشريع، وهم بعد هذا لم يتخلوا عن التعصب الأعمى الذي كانوا يلصقونه بالاسلام والمسلمين، ومازالوا حتى اليوم الا ما ندر في كتاباتهم. وكل هذا العناد الطفولي يرجع مباشرة الى شعورهم العميق بتفوق مالديهم، إن حقا وإن باطلاً وما لدى غيرهم باطل لأنه لايتفق مع مالديهم، وقد وضّح الاستاذ فوكه سيركسما الهولندي ذلك في كتابه «**الانعكاس الديني**»[٨٦] فاحسن الاحسان كلّه.

التنصير والاستشراق

إن تاريخ التنصير مرتبط إرتباطاً وثيقاً بتاريخ الاستشراق، وهما لاينفصلان عن تاريخ الاستعمار السياسي والفكري والاخلاقي، وان كل ذلك نتيجة طبيعية لتعاليم الكنيسة الغربية بأن ما لديها هو أسمى وأصدق، وأوثق مما لدى الكنيسة الشرقية الأرثوكسية، وما لف لفها من قبطية، وأريوسية ومارونية، ويعقوبية وملكية واسلامية!!، (اريوسية كما يرى مكدونالد)[٨٧] فانعكس هذا «الاعتقاد» على رسالة أوربا للشرق الجاهل المتخلف دينياً، وحضارياً، ولذلك لما ظهر كتاب «**تاريخ المسلمين**» لسيمون أوكلي في سنة ١٧٠٨ وذكر فيه، أن نصارى أوربا مدينون بمعرفتهم

الفلسفة للمسلمين، فانه أصاب جمهوره الأوربي بصدمة مؤلمة (shocked painfully) [٨٨] . وقد ظهر هذا الارتباط بين الاستشراق والتنصير والاستعمار في كتابات المستشرق ريموند لول، [وليس من دواعي المصادفة أن اختار زويمر اسم: ريموند لول لابنه [٨٩] الذي سنتكلم عليه قريبا]، والكونت دي فولني في كتابه **«رحلات الى مصر وسوريه»** والذى ظهر في سنة ١٧٨٧. وقد أظهر دي فولني عداءاً جارفا للاسلام ديناً أو نظاماً سياسياً، ومن ثم فقد مهد السبيل لنابليون لاحتلال مصر. وفي هذا الكتاب ذكر دى فولنى ــ والكلام لنابليون في كتابه **حملات مصر وسوريه** ــ ان أهم العقبات أمام الاحتلال الفرنسي لمصر هي: أن أية قوة عسكرية فرنسية يجب أن تواجه حروباً ثلاثة، أولها: ضد انكلترا والثانية: ضد السلطان العثماني، والثالثة: وهي أصعبها، الحروب ضد الاسلام.

فدور الاستشراق كما يراه ادورد سعيد فى كتابه **«الاستشراق»** يقع فى أن «خبرة المستشرق الخاصة وضعت فى خدمة الاستعمار، لأنه فى اللحظة الحرجة حين يجب على المستشرق أن يقرر بين ولائه وميوله للشرق، وبين ولائه للمستعمر الغربي فانه دائما يختار الأخير على الأول. ومنذ عصر نابليون الى الان لم يتغير الأمر» [٩٠] . ولعل المستشرق الهولندي كريستيان سنوك هورخرونيه الذى سنذكره قريباً أنصع مثال على هذا الارتباط الوثيق فى الزمن المعاصر، فقد اشترك عمليا فى الجاسوسية والتبشير والاستعمار، حين سخر كل علمه في سبيل ذلك. ومازالت اراء سنوك هورخرونيه وأسلوبه فى الاستشراق واضحة المعالم في الاستشراق الهولندي، كما سنبينه عند الكلام عليه.

إنَّ هذا الشعور الاستعلائي الذي تسرب من خلال تعاليم وعاظ وخطباء الكنائس نراه واضح المعالم في كتابات القرون الوسطى، وكتابات الحروب الصليبية، وتواريخ الحملة الفرنسية على مصر، بل وحتى في كتابات مستشرقي العصر الحاضر التي نشرت [مثل تقارير سنوك هورخرونية الى

وزارة المستعمرات الهولندية] أو التى لم تنشر. وانهم عدّو غيرهم متخلفا وخلواً من أية سمة حضارية، [غربية] فانهم رأوا أنه من الواجب الانساني!! أن يحضَّروا هذه المجموعة من البشر التي لاتختلف الا قليلاً عن الحيوانات [٩١] ، وذلك بتصدير المثل الحضارية الأوربية لهم. ولم تزل الدعوة الى تصدير الحضارة الغربية شعاراً للمبشرين الذين أعياهم عناد المسلمين «المتعصبين» لقبول الحضارة النصرانية، لأنها ـــ على رايهم ـــ الوسيلة الوحيدة لانتشال هؤلاء المتخلفين حضارياً، وأنها الكفيلة الوحيدة لابعاد المسلمين عن عنادهم ومن ثم عن دينهم. واليك ماقاله مؤرخ نابليون عن هدف غزوته لمصر، وعن مقاصد فرنسا فى الشرق:

«لقد أراد نابليون أن يقدم أنموذجاً أوربياً للشرق وهو فوق هذا أراد أن تكون حياة الناس أكثر سعادة. وهو أرادهم أيضا أن يجنوا كل الفوائد التي تهيئها لهم الحضارة [الأوربية] المتكاملة» [٩٢] . فاذا تحضرت مصر ـــ وهي مفتاح الشرق ـــ تحضر الشرق كله فيسهل استعباده.

مفاهيم الغرب عن الإسلام

إن مفاهيم الغرب عن الإسلام كونتها عوامل شتى، وتيارات مختلفة متباينة في الهدف والغاية، ومتفقة كلها على الحطّ منه والتقليل من شأن دعوته، وتكذيب رسالة نبيه، ووصمه بالدجل والكذب والاحتيال والنصب والادعاء والسفه والتعصب، وكل الصفات التى لم يضق عنها المعجم الاخلاقي لهؤلاء الكتاب. ولعل أهم الروافد التي أغنت الخيال الأوربي عن حياة المسلمين بصورة خاصة، والشرق عموما هي كتابات الرحالين والمغامرين الموغلة في الخيال والاصطناع والتلفيق، لأن همّ الكاتب كان منصباً على انتزاع الاعجاب من قارئيه وسامعيه فكان يضفي على كتابه أثوابا من البطولات والخوارق، ليفوز بالفخر على أقرانه. وقد انتقل هذا التلهف وراء البطولات والفتوحات للتفرد بها الى المكتشفين، والرواد الذين استعانوا في كل الأحوال بأصحاب الخبرة من أهل البلاد ليكتشفوا لهم،

فان الاكتشاف كان ينسب دائما للرجل الأوربي و يطمس اسم المكتشف الحقيقي عمداً(*). ولم تقتصر حمى الاكتشاف والريادة على هؤلاء بل صارت جزءاً مكملا للتنصير فى كل العالم غير النصراني، فاذا غالى المكتشف في بطولاته فلِمَ لايغالى المبشر كثيرا و يكذب قليلا «والمبشر يرى نفسه قافياً إثر المكتشف، والجندي (الاستعمار) يتبع إثر المبشر، و بعد ذلك يقفو التاجر إثر الجندي». ان هذه العبارة تحتل السطر الاول والثاني من المقدمة التي كتبها لويل توماس للكتاب الذي كتبه صموئيل زويمر وجيمس كانتين عن مغامراتها التنصيرية في الجزيرة العربية الذي ذكرناه.

والرافد الآخر هو كتابات النصارى اليونان أو النصارى العرب الذين عاشوا في ظل الحكم العربي الاسلامي في سوريا ومصر والعراق حيث تسنم بعضهم مناصب عالية كيوحنا الدمشقي ويحيى بن عدي، أو من كتابات النصارى الأسبان (المضربين) الذين تمتعوا بسماحة الحكم الاسلامي . وقد كان يوحنا الدمشقي وعبد المسيح بن اسحاق الكندي المجهول النسبة من أهم الذين ساعدوا على خلق مفاهيم الغرب عن الاسلام. فقد كتب يوحنا الدمشقي كتابه (Dialexis) وأراد به أن يكون نوعاً من وسائل الجدال بين النصارى والمسلمين وقد توقع أن يرد عليه المسلمون فينفتح بذلك مجال الصراع ولانعرف أن تطوع أحد (٠) اذ ذاك ولعله كان أول من استخدم علم الكلام في أجوبته على الأسئلة التي أثارها فأحدث ما يسمى عند المنصرين بـ«المحاورة» (Dialogue) وقد صب هجوماً عنيفاً على الرسول الكريم واتهمه باختلاق الوحي لاشباع رغباته الدنيوية فأصبح هذا الاتهام المحور التقليدي لجميع كتابات القرون الوسطى. ومن كتاب هذا

(*) وقد استطاع اتكنسون أن يحصي ٥٥٠ كتاباً عن آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقية نشرت كلها في فرنسا فقط قبل سنة ١٦١٠ من كتب الرحالين: (حوار الحضارات لغارودي ص ١٣٠)

(٠) روجية غارودي: حوار الحضارات، ترجمة عادل العوا، بيروت ١٩٧٨. لقد كتب خير الدين أبو البركات نعمان الالوسي المتوفى سنة ١٣١٧: الجواب الصحيح لما لَفَّقه عبد المسيح بن اسحق الكندي (GAL. S. II, 787)ومنه نسخة في الظاهرية واخرى في لاهور وقد طبع سنة ١٣٠٦ في لاهور.

«القديس» الدمشقي جاءت قصة زينب وزيد فأفاض الخيال والحقد عليها ماشاءا من تفسيرات واستنباطات فتضافر البغض والشنآن على نسج قصة دونها مغامرات كازنوفا. ومن هذا «القديس» جاءت فكرة الغرب عن الاسلام من أنه تلفيق وتزوير للتوراة والانجيل وذلك بمساعدة راهب اريوسي كان يعلّم محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ سراً. وقد ربط كتاب القرون الوسطى بين هذا الراهب الضال وبين بحيرا بعد أن ترجمت أجزاء من سيرة ابن اسحاق الى اللاتينية فنسجوا حوله الأساطير وحول علاقته السرية بالرسول الكريم، فقال بيدرو باسكال:

«لقد جاء في كتب المسلمين أن راهباً مسيحياً اسمه كما يقولون هم أنفسهم بحيرا وهذا هو الذي حذر عم محمد من اليهود. وأن هذا الراهب المرتد هو الذي كان يتعلم منه محمد تعاليمه. وقد ذكروا في كتبهم أيضا أن محمداً كان يعتزل الناس في تلال مكة وهذه تدل على أنه كان يعد عدته مع هذا النصراني المرتد فى السر لتهيئة تفاصيل التزوير»[٩٣] .

وقد اختلط بحيرا هذا عند الكثير من الكتاب بجريج الراهب أو جرجيس ومع هذا الاختلاط فانه أخذ حظه من الاهانة المقذعة والتجريح الشائن عند بعضهم والمديح الشامل عند الآخرين وكلا الفريقين برر موقفه. فان شاءوا جعلوا منه قديساً وحبراً كاثوليكياً مخلصاً علم محمداً الدين الصحيح الا أن محمداً حرف تعاليم الراهب، وان شاءوا جعلوا منه مرتداً خبيثاً يبطن اليهودية أوالزندقة ولذلك استغل محمداً للحط من دين روما، حقداً وكرهاً للبابا، وان شاءوا جعلوا منه نسطورياً جاهلاً وزنديقاً معاً.

وقد شغلت سيرة الرسول الكريم حيزاً هائلاً من كتاباتهم، فلم يتركوا صغيرة ولم يغادروا كبيرة الا وأوجدت لهم ميولهم المقصودة تفسيراً وتعليلاً يحط منه، فبذلوا جهداً جباراً لاقناع قارئيهم من النصارى بالطبع بأن أي رجل يتصف بمثل هذه الصفات والادعاءات لايمكن أن يكون نبياً مرسلاً ومرادهم أن الاسلام ليس ديناً الهياً وأن القرآن من صنع محمد: لفقه وزوّره حتى يبرر أعماله الدنيوية أمام العرب الأجلاف الجهال أما نحن ــ

أصحاب الدين الصحيح ـ فلا ينطلي علينا دجل هذا الدجال!!. وقد ذهب بهم الخيال المشوب بالكذب الى حد أنهم قالوا: ان محمداً كان كاردنالا كاثوليكياً وكان يطمح أن يفوز بمقعد البابا فلما لم ينتخبه الكرادلة لكرسي البابا غضب وذهب الى مكة وأعلن ديناً جديداً مضادة لروما ولما كان العرب كلهم نصارى فلذلك نجح في اغوائهم. وهنا اختلط الامر أيضا عليهم ـ عمداً أو غفلة ـ فقد ربطوا بين قصة النصراني النسطوري (أو أحيانا نسطور نفسه الذي ادين بالزندقة في مجمع افسوس سنة ٤٣٥م وحكم عليه الامبراطور بالنفي) الذي أدانه مجمع القسطنطينية لانكاره ثنائية طبيعة المسيح واخترعوا له اسم سرجيس أو جورجيس فذهب الى الجزيرة العربية فأعجب به محمد وجعله معلماً له وكان يسميه جبريل رئيس الملائكة. غير أن اليهودي المتنصر بيدور أو بطرس الفونسي زودهم برأي آخر فقال: «ان معلم محمد كان يهوديا مرتدا». وهذان الرأيان هما أساس الاستشراق اليوم وأساس التبشير والسبب أنَّ كثيراً من المستشرقين اليوم مايزالون يردِّدون أن الاسلام بقرآنه وحديثه بل وحضارته مستمد من اليهودية والنصرانية فان اختلفوا في مدى هذا الدين وانواعه ومصادره فانهم لايختلفون في أن القرآن من صنع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكانت النتيجة لهم: أن الاسلام ليس ديناً الهياً. ولما أيقنوا بأنه ليس ديناً الهياً فانهم قد اتفقوا مع المبشرين سرا وعلانية (الا قليل منهم) وامدوهم بمعرفتهم «العلمية» وخبراتهم ولم لا؟ والكثرة الغالبة من المستشرقين هم من رجال الكنيسة والتنصير معا أو من اليهود الذين اتفقت غاياتهم وغايات المنصّرين واختلفت أهدافهم. والحق أن هذا أمر لايلامون عليه لأنَّهم لو أيقنوا أن الاسلام دين الهي لتخلوا بحكم الضرورة عن أديانهم واتخذوا الاسلام دينا غير أن الذي يلامون عليه هو ادعاؤهم العلمية الموضوعية وكتاباتهم تصرخ بتكذيبهم. أما المنصّرون فقد دفعهم الاعتقاد ببشرية الاسلام والوهية دين النصرانية على بذل الجهود الهائلة والأموال الطائلة لايصال رسالة النصرانية الغربية للمسلمين بمدافع من «حب الانسانية وحمل مشعل النور الى بلد الظلام .. والانجيل (الغربي) هو طريق الخلاص الوحيد»، على رأي المبشر ضيف الله (زويمر)(٩٤) . وقد

تضافر الجهل بالاسلام وسلامة طوية الحكام أو تساهلهم أو حرصهم وخوفهم من المستعمر ومن ثم حماية الاستعمار البريطاني في جنوب الجزيرة العربية وسواحل الخليج والعراق والهند والسودان والاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية وسورية ولبنان، والهولندي فى اندونيسيا، لحملات التبشير المنظمة، وسماحة المسلمين واكرامهم للضيف الغربي، كل ذلك خلق هالة من الغرور فى دوائر التنصير وأقنعهم بأن تنصير المسلمين أقرب اليهم من حبل الوريد. والحق أقول: أنه لو تعرض أي دين في الوجود بما في ذلك النصرانية الى تضافر الاستعمار والتنصير بكل أساليبه المغرية«الانسانية» [بفتح المدارس وبناء المستشفيات والجامعات] والى مثل الجهود والأموال وكد السنين والى مثل التنظيم والتخطيط والمغامرة التى اتبعها المنصّرون بالرغم من جهل الغالبية الغالبة من المسلمين لما بقي نصراني يقول بالتثليث. ومع كل هذا الجهود فقد أخفقت جهود التنصير بين المسلمين بيد أنها نجحت في استقطاب الوثنيين والبوذيين والهندوس واليهود أيضا.

والرافد الآخر الذي أمد الغرب بافكاره عن الإسلام ونبيه كان الرسالة المنسوبة الى عبد المسيح بن اسحاق الكندي المجهول والتي ترجمها بطرس الطليطلي الى اللاتينية بأمر من بطرس المحترم كجزء من مجموعة ترجمات دير كلوني حتى يتعلم منها الرهبان أساليب مقارعة المسلمين. وقد أمدت هذه الرسالة كثيراً من كتاب القرون الوسطى بالمعلومات المستقاة من المصادر الإسلامية وبتأويل وتعليل وتفسير نصراني مقصود. وتحتوي هذه الرسالة على: رسالة الهاشمي الى عبد المسيح بن اسحاق الكندي يدعوه فيها الى الاسلام ورسالة عبد المسيح الى الهاشمي يرد بها عليه ويدعوه الى النصرانية وقد نشرت هذه الرسالة مرتين في لندن (١٨٨٠، ١٨٨٥) لاستعمال المنصّرين ونشر المستشرق الانكليزي وليم ميور تلخيصاً للرسالة بالانكليزية وطبع مرتين أيضا في لندن (١٨٨١، ١٨٨٧). وأهمية هذه الرسالة تقع في الاتهامات التي كالتها جزافاً للرسول الكريم في سيرته ومعاملاته وفي ضراوة الانتقاد على الإسلام وتعاليمه والقرآن وماجاء به وخاصة الجهاد وفي

جهـد مؤلفها في اثبات أن الانجيل لم يدخله التحريف كما يدعي المسلمون، لأن كل ضروب الدعاوى التي أوردها مصنف الرسالة وقعت موقعها الحسن فأصبحت هذه الرسالة «انجيلا لايدخله التحريف ولايمسّه الشك» ولأن قابلية الانسان في تصديق مايشتهي تصديقه عن أعدائه بلا حدود، حتى ولو كان اختلافاً، فقد تلقف كتاب القرون الوسطى هذه الرسالة بلهفة عارمة وأدرجوها في كتبهم واستعملوها في وعظهم وأوّلوا باسراف ولذاذة ما لم يتهيأ لمصنفها تأويلاً فصار هذا الركام من الاساطير مفاهيم ثابتة في الفكر الأوربي الاستشراقي وفي التنصيري بشكل أخص ومن هذين سرت العدوى البغيضة الى الفكر الأوربي العام فأصبحت جزءاً لاينفصل من ثقافة الفرد العامة(*).

محاولة اقناع النصارى بدينهم

لقد اتصف النشاط الجدلي الذي رأيناه عند يوحنا الدمشقي ومن بعده عند عبد المسيح بن اسحاق الكندي في رسالته التى قيل فيها أنه كتبها في حدود سنة ٢١٥ للهجرة، بظاهرة واضحة أغفلها الكثير ممن كتب عن هذا التيار المدافع عن النصرانية والحاط من الإسلام، وهي أن كل هذه الكتابات سواءا كانت مكتوبة بالعربية أو بالسريانية أو باللاتينية كانت تخاطب بالدرجة الأولى النصارى أنفسهم وذلك لإقناعهم بأن النصرانيّة هي الدين الحق وأن الإسلام ليس دينا إلهياً، ولبعث الثقة في نفوس هؤلاء حتى لايتركوا دينهم.

والدليل أن أكثر مخطوطات النشاط الجدلي مكتوبة بالكرشوني (النص العربي بحروف سريانية) وهو الخط الذي يقرأه النساطرة والسريان ولايستطيع أن يقرأه غيرهم ومثله كتابات القرون الوسطى باللاتينية الا القليل مما كتبه ريموند لول وريموند مارتيني.

لقد أجهد هؤلاء أنفسهم في الاستقراء والاستنباط والتعليل والتفسير

(*) انظر مذكرات محمد كرد علي (دمشق) ٣٧٩/٢.

والكذب والاختلاق والتشنيع والتشويه مبلغاً عجيباً لايتمالك المنصف معه الا الضحك والاشفاق على كتّاب هذه الكتب أو الرسائل. واليك بعض الأمثلة الطريفة من رسالة عبد المسيح الكندي التي وزعت في مؤتمر المستشرقين السادس:

١) في إثبات عقيدة التثليث من قصة موسى عليه السلام في سفر الخروج: «وقال له في مناجاته ومخاطبته له: إنك ترسلني الى قوم غلف القلوب إن هم سألوني وقالوا: ماسم الذي وجهك الينا وبماذا وجهك حتى نصدقك فماذا أقول لهم. فقال الله مجيبا: هكذا تقول لبني اسرائيل الذين أنا مرسلك اليهم وبهذا القول تخاطب فرعون اذا دخلت إليه: أهيه أشراهيه أرسلني اليكم. وتفسيره ذلك الأزلي الذي لم يزل إله آبائكم إله ابراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني اليكم، فجدد في هذا الموضع في الظاهر ذكر التوحيد وألغز عن سر الثالوث حيث قال إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب فكرر بذلك القول ذكر الثلاثة الأقانيم بعد ذكر التوحيد كما كان قديماً فهو واحد ذو ثلاثة أقانيم لامحالة لأنه أجمل في قوله إله آبائكم ثم قال مكرراً اسم الجلالة ثلاث مرات». (صفحة ٢٧ من طبعة لندن ١٨٨٠)

٢) في إثبات أن لانبي بعد المسيح من الانجيل قال: «وسيدي المسيح قد قال فى محكم انجيله المقدس: إن جميع الأنبياء إنما تنبأت الى وقت مجيئي وعند ظهوري زالت النبوات بأجمعها فلا نبي بعدي فمن جاء بعدي مدعياً نبوة فهو لص خاطف لا تقبلوه». (صفحة ٧٠)

٣) في إثبات بنوة المسيح من المزامير قال: «وقال [داود] أيضا: ياأيها الملوك افهموا و ياحكام الأرض اعملوا أعبدوا الرب بخشية وسبحوه برعدة واقبلوا الابن لئلا يغضب فتهلكوا بسخطه لأنه عما قليل يستشيط غضبا فطوبى للمتوكلين عليه». (صفحة ١٣٥)

في هذه الأمثلة الثلاثة زيادات لا توجد فى الانجيل المتداول بين الكنائس اليوم. فالمثال الأول ظاهر السخف والتعمل حتى أن وليم ميور

الذى ترجم تلخيصاً للرسالة لغرض التبشير بين المسلمين قد رفض هذا السخف وقال « انها حجة لا تكاد تقنع» [٩٥] . أما المثال الثاني: فإن الانجيل المعروف بين أيدي النصارى لايحتوى على مثل هذا النص اطلاقاً وكل الذي فعله وليم ميور حين أعيته الحيلة أن قال: «من المحتمل أنه يشير الى يوحنا ١٠ أو إلى أعمال الرسل ٢٠:٢٩» وفي هذين الموضعين، بل في الانجيل كله لم يرد هذا النص الواضح في دفع نبوة نبي الاسلام.

وفي أصحاح يوحنا ورد: « الحق الحق أقول لكم أن الذي لايدخل من باب حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر، فذاك سارق ولص».

وفي أعمال الرسل ورد: «لأني أعلم هذا أنه بعد ذهابي سيدخل بينكم، ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية، ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمور ملتوية ليجذبوا التلاميذ وراءهم» [٩٦] .

أما المثال الثالث فهو كارثة عقائدية وتاريخية فان [واقبلوا الابن] لم ترد اطلاقاً في مزمور ٢:١٠ ــ ١٢ وإليك ترجمة ماورد:
«لذلك الآن أيها الملوك كونوا عقلاء وكونوا حذرين (افهموا واحذروا)، ياحكام الأرض اعبدوا الرب خشية، وبرعدة قبّلوا قدمه لئلا يكون غاضباً، فتهلكوا بسخطه، لأن غضبه يستشاط سريعاً، فطوبى للمتوكلين عليه».

الظاهر أن صاحب الرسالة أو غيره حاول أن يوفق بين «فداود نفسه يدعوه ربا فكيف هو ابنه «[مرقس ١٢: ٣٦ ــ ٣٧] وبين مزمور داود، فحرّف واضاف [واقبلوا الابن] الا اذا كان ذلك تصحيفاً تقع مسئوليته على ناشر الرسالة القسيس تيان.

وفي هذه الرسالة أمثلة كثيرة مما لايوجد في العهدين القديم والجديد، وتعليل ذلك أنه يقتبس من نص مغاير لما هو معروف أو أنه أو غيره ترك لنفسه الحرية، فأقحم في كتابة المقدس نصوصا لغرض الغلبة أو أن انجيل النصارى، وتوراة اليهود، قد أسقِطتْ نصوص منها. وكل هذا معروف

متداول عند الدارسين لنصوص العهد القديم والجديد، ومحققيها، ومترجميها، ومصححيها، ولاينكر كل ذلك الا متعنّتٌ مكابر كمصنف الرسالة حين أصرّ وأكّد أن الانجيل: «منزل من عند الله لاتحريف فيه ولا تبديل ولم تلحقه زيادة ولانقصان ... وهو في أيدينا وأيدي اليهود بلا زيادة ولانقصان»، وقد كذب؛ لأن هذا القول مردود نصاً ومعنىً بالدراسات الكثيرة والمقالات العديدة التي ظهرت وماتزال تظهر وحسبك من كل ذلك دراسة الأستاذ ويلز:[٩٧] The Jesus of the early Christians والدراسات الكثيرة التي اعتمد عليها، أو كتاب روبرتسون The Bible and its Background الذي أثبت أن الكتاب بعهديه مدين لأصول مفقودة وكل الذي عمله كتاب العهدين أنهم لفقوا بين معلومات قديمة واضافات جديدة منهم [٩٨] .

والحق أن الايمان بالعهدين شيء،ونقد النص شيء آخر،لأن الايمان لم يمنع الكثير من علماء نقد النصوص حين قرروا أن هذين النصين بما في أصولها من زيادات ونقص وتحريف وتصحيف،لايقومان قط للنقد التاريخي.وهما بعد ذلك يحتويان على تناقضات،لايمكن التوفيق بينها ؛ كما راى روبرتسون (irreconcilable discrepancy)[٩٩] .

والرافد الآخر هو كتاب [(contrarietas elfolica) ومعناه: نقض الفقهاء] لمصنف قال عن نفسه أنه كان مسلماً فتنصر، كتبه باللغة العربية وترجمه مارك الطليطلي إلى اللاتينية إلا أن نصَّه العربي لم يصل الينا بعد. وقد فَنَّد المؤرخ نورمان دانيال إدعاء مؤلفه وأثبت أن الدلائل تظهر بلا شك أن كاتبه كان من المضربين (النصارى الأسبان) وانه أراد أن يضفي على كتابه أهمية بالغة بادعائه[١٠٠] . وأهمية هذا الكتاب تقع في تأثيره البالغ على ريكولدو دي مونت كروس الذي كان يمقت الاسلام بشدة وضراوة وكان لكتاباته تأثير بالغ العمق على كتّاب القرون الوسطى إلى حد أن «لوثر شعر بالغبطة الدافقة حين وقع كتابه [Confutatio Alcorani] في سنة ١٥٣٠م بيده، وسارع لاعجابه به الى ترجمته في سنة ١٥٤٢م الى الالمانية[١٠١] ، والكتاب بعد ذلك هو لتفنيد القرآن.

وهناك روافد أخرى لم تقل أهمية في اغناء الفكر الأوربي بمفاهيمه عن الاسلام مثل مجموعة رسائل دير كلوني [Summula quaedam brevis] وترجمات القرآن المشوهة عمداً أو جهلا وخاصة ترجمة «روبرت اوف كيتون» والتعليقات الواسعة على حواشيه ومن ثم كتابات «بيدرو الفونسي» اضافة إلى كتابات من رافق الحروب الصليبية ومن بعدها الكتابات التي تناولت الأتراك العثمانيين وخاصة بعد فتح القسطنطينية أمثال ماكتب «لوثر» في: [Libellus de vita et moribus Turcarum]وهو كتاب عن حياة وعادات الأتراك (المسلمين). واليك قائمة مختارة من بعض هذه المفاهيم المقتبسة من كتاب نورمان دانيال النفيس عن السيرة النبوية:

- «نوبات الوحي وتصبب العرق وصلصلة الجرس» فسروه بالصرع أو أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصيبه مس من الشيطان. وأن نبي العرب كان قد درب حمامة (أو أن معلما خبيثا له دربها) على التقاط الحب من اذنه فكان يدعي أن هذه الحمامة هي الروح القدس توحي اليه بقرآنه.
- «بعد وفاة نبي العرب اجتمع الصحابة وقرروا أن يقوم عثمان بجمع القرآن ولكن ظهر أنه لم يكن كفؤا ولذلك أعانه اليهود والنصارى ولما لم يجد هؤلاء في حياة النبي ولافي عقيدته شيئاً مهماً فان هؤلاء اليهود والنصارى قد زوروا هذا الكتاب». وقد أصرّ أحد الكتاب على: «أن أعداء المسيحية قد استغلوا جهل واهمال أتباع محمد فزادوا في القرآن ماأرادوا بعد وفاة محمد والا فان الذي فقد عقله واحساسه هو الذي يقبل هذه التعاليم المضحكة والمخجلة»
- وقال ريكولدو مخاطباً الرسول الكريم: « يامحمد أنا لاأصدق أنك قد تسلمت هذه الآراء من الله لأنك عجيب غريب في رسالتك، لأنك لاتتفق مع أي كتاب مقدس آخر .. يجب أن ننبذ ماادّعى محمد أنه تسلمه من الله لأنه مناقض تماماً للاحكام التي كتبها موسى والانبياء والرسل بعده، بوحي وأمر من الله». وقد صدق دون علمه، لأن

الاسلام هو غير ماجاء به الانجيل والتوراة الموجودة بيده وهو مناقض تماماً لهما.

وقد تعاطفوا مع قريش في عنادهم، وفي اضطهادهم لا تباع محمد، ووصفوا القريشيين بالعقل والشجاعة، وصبوا اللعنات على يهود المدينة، لأنهم لم يقضوا على الاسلام في مهده، ووجه «بيدرو باسكال» نداءه لأهل مكة: «ياأهل مكة إنه لكان من الأحسن لو دمتم في مقاومتكم لدين محمد». بيد أنه اعترف أن دعوة محمد لتحطيم الأصنام كان عملاً فاضلاً. ومع أنهم قد أقروا بأن الرسول الكريم دعا العرب الى نبذ الأوثان، والى عبادة الاله الواحد، فان بطرس المحترم عقب بقوله: «ولكنه قادهم الى ضلالات زندقته».

تشويه ترجمة القرآن

لقد كان سوء الترجمة المقصودة، والتحريف المشوه عمدا للقرآن، ومن ثم قصور فهم علماء النصارى لمترجمات سيئة قد خلق حاجزاً نفسياً ان لم يكن قد زاد في عمق هذا الحاجز الموجود اذا علمنا أن هذه الترجمات تحاشت ترجمة كل اسم أو فعل فيه معنى التسليم والاسلام، أمثال: مسلمون، مسلما، ان الدين عند الله الاسلام، أو أنها أسقطت الكثير وحرفت الأكثر وتحولت كلمة «المسلمين» الى «اسماعيليين»: [Yasmahelitas] أو الى «السَرسَان» وأمثال هذا كثير. فإنهم حذفوا منه ماشاءوا، وحرفوا ماشاءوا، وأدخلوا في الترجمة ماشاءوا عمدا فجانبوا الأمانة، ولحقتهم الخيانة لأن من ترجم القرآن أمثال«روبرت اوف كيتون» لم يكن أمينا، لأنه اتبع مانسميه الأن بالرقابة على النشر فأصدره قراناً جديداً مصنوعا في الغرب: [Made in the west] فاعتمد المدافعون عن النصرانية على هذا القرآن وعلى أمثاله من المترجمات الممسوخة وفسروها كما شاء لهم هواهم فكان بطرس المحترم وبيدرو باسكال وريكولدو بخاصة واللاتين بعامة قد سمحوا لأنفسهم أن يفهموا القرآن بطريقة ترضيهم هم فكانوا يفضلون تفسيرهم

للقرآن على تفسير المسلمين له و يرفضون تفسير المسلمين له ــ كما يقول دانيال.

ولعل مقارنة قصيرة بين هؤلاء المترجين، و بين المترجين المسلمين، أو حتى النصارى الذين ساكنوا المسلمين تكفي للغرض، أجتزيء قولاً واحداً فقط: «قال أحمد بن عبد الله بن سلام: ترجمت صدر هذا الكتاب والصحف والتوراة والانجيل وكتب الأنبياء والتلامذة من اللغة العبرانية واليونانية والصابئية .. الى اللغة العربية حرفا حرفا ولم ابتغ في ذلك تحسين لفظ ولا تزيينه مخافة التحريف ولم أزد على ما وجدته في الكتاب»(١٠٢).

لقد أقلق رفض المسلمين للتوراة والانجيل باعتبارهما محرفين، أرواح علماء النصرانية وحاروا إذ رأوا أن القرآن ذكر من شريعة موسى وعيسى ما لم يألفوه، ودعا العالمين إلى الايمان بما أنزل الى الرسل والنبيين بلا تفريق وتفضيل، بيد أنه أنكر فيما أنكر الاقانيم الثلاثة التي تقوم عليها ربوبية المسيح عندهم وأنكر أن يدعي عيسى بن مريم ذلك. وأنكر فيما أنكر الصلب الذي تدور عليه مسألة الذنب الموروث فأكد «ولا تزر وازرة وزر أخرى» فحطم دور الكنيسة فى الشفاعة، ودور المسيح فى تحمل ذنوب العصاة منهم. وقد جرّ هذه القلق بطرس المحترم الى التحدي المشوب بفقدان الثقة فقال مخاطبا المسلمين:

«إما أن ترفضوا القرآن لأنه ذكر حكايات وشرائع مأخوذة من كتب تعتبرونها أنتم مزورة، فالقرآن إذاً ليس موثوقاً، وإما أن تعتبروا الكتب التي اقتبس منها القرآن موثوقة».

وقبل عشر سنين فقط (١٣٩٠ ــ ١٩٧٠) كتب «الأنبا شنودة» في مجلة الهلال: «وكون القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب (واسقط: ومهيمنا عليه) فهذا يعني صحة الانجيل والتوراة من التحريف والا فانه يستحيل على المسلم أن يؤمن بأن القرآن نزل مصدقا لكتاب

محرف»[١٠٣] . وهذا ليس جديداً فقد استطار «روجر بيكون» فرحا عندما رأى قول ريموند مارتيني: « ان فلاسفة المسلمين قد أنكروا وجهة نظر الدين في مسألة النعيم البدني » فقال: «الحمد لله الذي فتح النور والحكمة للفلاسفة المسلمين». وهذا القلق قد دفع «بمارك الطرابلسي» أن يكتب: «ان العلماء المسلمين يزدرون القرآن». وقال ريكولدو: «ان علماء المسلمين لايؤمنون بأقوال القرآن، ولكنهم يسخرون منه في السر، أما في العلن فانهم يظهرون له الاجلال خوفاً ورهبةً». وادعى «ريكولدو أيضا أنه عندما كان في بغداد ظهر له «الانطباع بأن المسلمين لايؤمنون بالقرآن، وذلك لأنهم يرفضون النقاش فيه بحرية، أو يسمحون بترجمته إلى لغات أخر ». وقال ريموند لول: «ان دراسة الفلسفة والمنطق ممنوعة في الاسلام، لأن دراستها تقود الى الزندقة وإنكار نبوة محمد، وان تنصير المسلمين سهل لأنهم مقتنعون بضلالات القرآن».

الأمر الواضح في هذه الأقوال، أن القلق لم يكن من نشاط المسلمين التبشيري، وانما من تأثير هذا القرآن (رغم ترجمته المشوهة) على القارىء منهم، والا فما السر في هذا الخط منه واشراك العلماء المسلمين في هذا الخط؟ إن لم يكن لاقناع القارىء منهم ببطلانه؟ وماحاجة الحجج للمقتنع منهم؟ وهم على رأى «نورمان دانيال»: «لم يستطيعوا أن يتصوروا أن القصص التى أوردها الإنجيل والتوراة يمكن أن ترد بصورة لا تتفق مع مايعهدونه في كتبهم». ولقد أصبح القرآن عندهم هدفا للسخرية، والاهانة لأنه لم يكن مألوفا عندهم، ومع هذا فلم يكونوا قادرين على أن يدركوا أن أمثال هذه السخرية والاهانة يمكن أن يستعملها أي عدو للمسيحية مع كتبهم المقدسة .. إن مشاريع الجدل عندهم كانت تصلح لاقناع النصراني المقتنع، الا أنها لاتصلح لمناقشة جادة مع المسلمين[١٠٤] . والمناقشة الجادة انتفت، وذلك لأن هؤلاء اعتبروا القرآن ملفقاً ومزوراً بمعناه ومحتواه. وهذا الاعتبار يمكن أن يستقرأ حتى عند المثقفين اليوم في الغرب. وكل الذي أراده كتاب القرون الوسطى هو ابراز حقيقة واحدة لقارئهم وهي أن

الاسلام دين باطل وأن النبي محمداً كاذب. فكان اختلاق الحجج الكاذبة للهجوم على الاسلام والحط منه عاماً وشاملاً عند كتاب القرون الوسطى. (انظر: الصفحات ٥٧، ٢٤٠ ــ ٢٤١ من كتاب نورمان دانيال).

لقد غالى بعض المستشرقين، وتبعهم بعض المسلمين كالأستاذ محمد حسين هيكل في التأكيد على أن سبب العداء والخصومة التي حملها كتاب القرون الوسطى، يعود الى « جهل الغرب بحقيقة الاسلام وبسيرة النبي .. والجهل ولاريب من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدها استعصاءاً». والحق أن الكثرة الغالبة من كتاب القرون الوسطى كانوا على علم يكاد يكون تاماً بتعاليم الاسلام وبسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام. فكانوا يعرفون أن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين وأن الله تعالى أرسله لابلاغ الرسالة الالهية التي حملها من قبل موسى وعيسى وأن الاسلام هو تصحيح لما دخل اليهودية والنصرانية مما ليس منها، الا أن «همبرت أوف رومانس» رأى في الاسلام: « أن محمداً جاء بدينه لتحطيم النصرانية خاصة» ودرسوا القرآن بترجماته المتعددة والمشوهة عمداً أو جهلا ــ لا لأجل أن يفهموه على أنه كتاب الهي بل إنهم نقبوا فيه، وقلبوه ظهرا لبطن، حتى يجدوا فيه سندا وذرعة على صحة الانجيل. ولما أمر القرآن أتباعه بالايمان بعيسى وبما أنزل إليه فإذن: إن الانجيل الذي بين يديهم هو كتاب إلهي ففرحوا بالثقة التي قدمها القرآن لهم وضنوا عليه بالثقة،

(the Qur'an recognised the earlier revelations as true induced in many Christians a curious sense of reassurance ...)(105)

لأن روح الاستقصاء السائدة إذ ذاك كانت ضيقة بفعل التعصب الذي زرعته الكنيسة، ورهبانها أمثال بطرس المحترم الذي كتب كتابه «مختصر في كل زندقة مذهب المسلمين الشيطاني الخبيث» بعد أن تهيأت له ترجمات عديدة لآثار إسلامية أصيلة في اللاتينية. فاتسمت التعليقات والشروح على هذه الترجمات بروح العداء الشديد فكانت آراء القرون الوسطى «في الأسوأ قذرة ومشوبة بالكذب والغش والجنون» كما يقول ساوثرن[١٠٦] .

وقد كان من نتائج ترجمات القرآن وبعض السيرة وشيوع كتب الرحالين وروايات الصليبيين أن بدأت تظهر الكتب الكثيرة في الطعن والتجريح والسب والسباب والشتم والشتائم واتخذوا قصة زيد وزينب سبباً للطعن في الرسول لأنه من غير المقبول في العقل الاقطاعي، والديني الطبقي في النصرانية اللاتينية أن يتزوج السيد مطلقة عبده، وكيف يكون ذلك والطلاق ممنوع والانجيل يعلمهم: «أن من يتزوج امرأة مطلقة فقد اقترف الزنا» (متى ٥ : ٣٢، ١٩: ٩) وهما بعد كل هذا من طبقتين متباينتين. والأعجب أن البابا يوحنا الثاني أصدر فتواه في هذه السنة (١٩٨٠) بجواز زواج المطلقة على شرط «العفاف» أي لايحق لزوجها الاتصال بها جنسياً مع جواز العيش معها في مسكن واحد.

فقد نظر هؤلاء ومايزال المستشرقون اليوم ينظرون الى الاسلام، والعرب من خلال منظار غربي تتحكم في شفافيته عتمة القرون المشوبة بالخوف والقلق اللذين سيطرا على العقل الاوربي حتى اليوم.

وأكبر ظني أن حرص الكنيسة الرومانية وإصرارها على استعلاء تفسيرها الغربي للمسيحية، ورفضها منذ البداية الاعتراف بالكنيسة الشرقية كمماثلة، أو مساوية لها في السلطة والتشريع، ومن ثم رفضها أية مهادنة أو مساومة على سلطتها المطلقة ساعد على نمو نزعة الاستعلاء الديني، والعرقي في الكنيسة اللاتينية واتباعها ومن هنا يمكننا أن نتتبع بذور التميز العرقي، وعداء السامية. وهذا واضح فى فرض اللون الغربي من النصرانية على كل جماعة مسيحية تقع تحت سيطرتها في أوربا أو أسبانيا أو فلسطين أو القسطنطينية حين نهبها الصليبيون في ١٢٠٤م. ولهذا أيضاً فانها كانت تنظر باشمئزاز إلى أية مسيحية لا تتخذ بابا روما إماماً. اذ لم يكد القرن الثامن يشرف على نهايته الا وكان الانفصال بين الكنيستين الشرقية والغربية قد أصبح تاماً، وكانت العداوة بين اليونان واللاتين قد أصبحت شديدة إلى درجة أن اللاتين لما أرادوا فيما بعد أن يستقوا من ينابيع الحكمة القديمة فضلوا

أن يتعلموا اللغة العربية لا اللغة اليونانية (١٠٧) . ويظهر هذا الاستعلاء في تناول كتاب اللاتين لنسب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ والعرب مع اسماعيل. فقد أكدوا أن العرب من سلالة هاجر المملوكة وأنهم ليسوا من سلالة سارة الحرة، فكان عليهم أن يقبلوا كتب اليهود المقدسة. واستغرب «بيدور باسكال» أن يدعي محمد النسب إلى ابن ملعون ومحروم (كما صُوِّر اسماعيل في التوراة). وحاول هذا أن يربط بين يهوذا الذي خان المسيح وبين النبي عليه الصلاة والسلام فتوصل الى أن: «العرب هم أعداء الكنيسة». ولفظة «عرب»، «اتراك» و«مسلمون» بمعنى واحد. أما وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فقد حاكوا حولها الاساطير، ومع أنهم استمدوا بعض الحقائق التاريخية من ترجمة سيرة ابن اسحاق في مسألة اليهودية التي أرادت أن تسم النبي، فنسبوا وفاته الى هذا السم متغافلين عمداً أن هذه الحادثة كانت قبل وفاته بسنين عديدة وتعمدوا أن يكذبوا حين قالوا: أنه افرغ على جسده ماءاً لأنه أراد أن يُعَمِّد نفسه قبل وفاته إلا أن الشيطان منعه من ذلك (١٠٨) . ولم يقف بهم الخيال والتلفيق عند حد بل أخذهم بعيداً فقالوا: إن جسد النبي أكلته الخنازير ولهذا السبب منع القرآن أكل لحم الخنزير. وبمنطق القرون الوسطى الطبقي الاقطاعي فانهم فسروا يتم النبي صلى الله عليه وسلم وفقره على كونهما دليلين على ضعة نسبه. وهناك الكثير من الافتراءات نزهت قلمي من ايراد الفحش الكثير الذي لا ترضاه إنسانية أي إنسان في قلبه شيء من الخلق ومضغة من السماحة والحرية لما في كل ذلك من القرف والقذف والسماجة.

إن الانتقادات والمآخذ التى كانت توجه للاسلام ولنبي الاسلام وللقرآن، في القرون الوسطى لم تتغير الآن بالرغم من أن بعض من عنى ومايزال يعنى بدراسة الفكر العربي والاسلامي من المستشرقين حاولوا أن يتحرروا من ترديد لعنات أجدادهم وانتقاداتهم إلا أنهم رددوها بأثواب عصرية، ظانين أنهم ارتفعوا بكتاباتهم عن لعنات أجدادهم. وقد أصاب نورمان دانيال في قوله: (١٠٩)

(in relatively modern times, some authors have self - consciously tried to emancipate themselves from Christian attitudes, they have not generally been as successful as they thought themselves.)

ومعنى قوله: وفي الوقت الحديث نسبيا فان بعض الكتاب قد حاولوا وبادراك أن يحرروا أنفسهم من المواقف المسيحية بيد أنهم لم يكونوا ناجحين عموماً كما ظنوا هم أنفسهم.

ان الدارس المتصف بشيء من العلمية الحيادية، ودون أن يكون مسلماً، ليدهش اذا مادفع بأنفه في خصم الدراسات الاستشراقية المعاصرة في الإسلام ومايتصل به عندهم، إذ أن الكثيرمن المعنيين به والدارسين لجوانبه المتعددة لايتعاطفون معه أو في الأقل لايعاملونه برفق أو تجرد والباحثون من هذه الكثرة موضوعيون اذا لم يكن بحثهم في الاسلام ومتجردون من كل هوى وتحيّز وعصبية إذا كتبوا في غير تراث الاسلام. وكلما زادت معرفة أحدهم اتسعت الهوة النفسية وازداد سمك الحاجز، وهكذا يبدو أن ازدياد المعرفة لم يقطع سوى خطوات محدودة لتبديد ماتراكم عبر القرون من موروثات متراكمة في نفسية المستشرق. ولعل العجيب في كل الأمر أنهم لم يحاولوا بالرغم من معرفتهم هذه أن يتخطوا الحواجز النفسية المتراكمة حتى يطلعوا بجديد لم يقله أجدادهم، ولكي نصدقهم في الأقل. فإن الباحث منهم يردد الآراء المعروفة والصور المألوفة بمشاعر المغير على مالا يملك والفخور بالاكتشاف الجديد. وهو بعد ذلك يلبس القديم ثوباً جديداً يشف عن طويته.

تلك هي نماذج من الصور والمفاهيم التي كانت شائعة عن الاسلام في القرون الوسطى وما لم أذكره أكثر من كل هذه. والغريب جداً أن الصور لم تتبدل الا في أساليب عرضها لتتلائم مع طرز العصر. بيد أن هذا الاصرار على التبعية والنسخ حفّز بعض الكتاب في السنين الأخيرة على القاء تبعة اللوم في استمرار التشوية، وسوء الفهم على إصرار الكثير من المستشرقين والمبشرين في تثبيت صور القرون الوسطى المشوهة بالرغم من توفر السبل

والمعلومات لتصحيحها. ومن هؤلاء الكتاب «نورمان دانيال» في كتابيه النفيسين: «**العرب وأوربا القرون الوسطى**»، و«**الاسلام والغرب**»،و«أدورد» سعيد في كتابه الرائع: «**الاستشراق**»، والمؤرخ «ساوثرن» في كتابه: «**مفاهيم الغرب عن الاسلام في القرون الوسطى**». ومن بين المسلمين يبرز كتاب «عبد اللطيف الطيباوي» — رحمه الله —: **المستشرقون الناطقون بالانكليزية** بمستوى رفيع متزن و يلحق الانتاج الجيد في معالجته وأصالته وموضوعيته على صغر حجمه، وقد ترجم الى العربية (١١٠) .

لقد أشرنا في ماسبق إلى أن ترجمة أصول الفلسفة اليونانية الى العربية كانت من اليونانية وهي قليلة أو من السريانية وهي أكثر، لذلك لم تصل خالصة من اليونان بل إن التأثير السرياني الشرقي في الترجمة الأولى من اليونانية للسريانية ومنها للعربية لايمكن دفعه بسهولة(١١١) لأن كل هذه النصوص لم تكن نتاج فترة واحدة أو عصر واحد من عصور تاريخ الفلسفة فكان طابعها لذلك طابعا مزدوجاً أو مزيجاً من طابعين مختلفين في العقلية والعصر والعقيدة إضافة إلى كل هذا فإن تأثير فلسفة مدرسة الاسكندرية لم يكن قليلاً. وان اهتمام المسلمين بتراث اليونان وفارس والهند لم يكن سلباً لهذا التراث من أممه لأن هذه الأمم كانت قد هجرت هذا التراث فكان الفرق بين اليونان والمسلمين أن اليونان تفلسفوا في وثنيتهم فلما دانوا بالمسيحية زالت فلسفتهم وانقرض حكماؤهم لشدة المعارضة بين النصرانية والفلسفة ولم تتوقف هذه المعارضة عبر العصور الا حين اتخذت الكنيسة سلاح الفلسفة الرشدية في كتابات توماس الاكويني للحفاظ على سلطتها التي لم تدم طويلاً لظهور «لوثر» بالبروتستانتية نتيجة غير مباشرة لتأثير فلسفة ابن رشد في العقلية الغربية. وهذه موضوع طريف يحتاج الى دراسة مستقلة.

الفصل الثاني

تأثر علماء الغرب بالعلوم العربية والاستفادة منها

تسرب التحرر الفكري

لقد تعلمت أوربا نهجاً جديداً من المسلمين وهو: «وضع العقل فوق الحكم» فرفض العلماء كل «المسلّمات التي لم يجز النقاش فيها، وهم بذلك قد اتخذواالاستقلالية في الاحكام المبنية على الشك طريقاً الى التسليم أو الرفض. وقد سبق أن ذكرنا جزءاً من محاورة «ادلارد اوف باث» مع ابن اخيه ولابأس أن نعيدها كاملة هنا. قال في كتاب **«الأسئلة الطبيعية»**:

«انني وقائدي العقل قد تعلمت شيئاً واحداً من أساتذتي العرب غير الذي تعلمته أنت فبهرتك مظاهر الحجّة (رجل يُسلّم برايه ولايُناقش) بحيث وضعت في عنقك لجاماً. وكيف نصف هذه الحجة الا باللجام، والكثير منكم يقاد مثل الحيوانات الضارية التي يقودها الانسان حيث يشاء، وبدون أن تدرك لماذا هي تقاد، والى اين تقاد فإنها تتبع اللجام الذي تُقادُ به. إن الكثير منكم مشدود بالغفلة، ومقيد بالسذاجة، ولذلك تقودكم حجج الكتاب إلى الهاوية ان الأفراد قد منحوا العقل، وهو مثل حاكم أعلى، فإن التفريق بين الحق والباطل يكون بهذا الحاكم. فعلينا أن نبحث عن العقل، فاذا وجدناه، لاقبل أن نجده، فان الحجة اذا اتفقت مع العقل تقبل عند ذلك» (١١٢) . وهنا يصح أيضا ماسبق أن رأيناه في عصر المأمون فقد كان الجو العقلي مستعداً لقبول الفلسفة والمنطق فبدأ تطلبها عند مالكيها المسلمين في الأندلس الذين كانوا ـــ كما قال دانيال مورلي: «أحكم فلاسفة العالم» ـــ لأن معاهد الفرنجة لم تشبع رغبته(١١٣) . ومثل مورلي كان جرارد اوف كريمونه (ت ١١٨٧م/٥٨٣هـ) الايطالي الذي درس كل ماوجده عند اللاتين من ضروب المعرفة بيد أن شغفه بكتاب المجسطي الذي لم يجده عند اللاتين، دفعه الى الذهاب الى طليطلةحيث رأى الكثرة الهائلة من الكتب العربية في كل موضوع وفن، فأحس بالاسف العميق لفقر اللاتين العلمي فقرر أن يتعلم العربية حتى يستطيع أن ينقل هذه الكنوز إلى اللاتينية وقد روى أحد تلاميذه مايأتي:

«فتعلم العربية حتى يستطيع أن يترجم فجمع بين اللغة والعلم فتوغل خلال التراث العربي بطريقة الرجل الحكيم المتجول عبر الحقول الخضر فصار ينظم تاجا من الزهور فكان يختار أجمل زهرة مما في الحقل .. وقد استمر على نقل ومناولة هذا الانتاج الى العالم اللاتيني الى آخر حياته. فكان يترجم الكتب التي يراها أرقى وألطف وأنفع في أي موضوع كان بدقة و بساطة»[١١٤]

ان ظاهرة ازدياد الرحلة الى الأندلس تشبه الى حد كبير ظاهرة ترجمة النصوص التي حدثت في عصر المأمون فقد بدأ عصر المدن وتوسعها في أوربا في النصف الثاني من القرن العاشر (القرن الرابع للهجرة) لانتعاش التجارة وهذا الانتعاش فرض بدوره انتعاش الصناعات اليدوية فبدأ نوع من الاستقرار الحضاري في هذه المدن التي كانت في الغالب امتداداً وتوسعاً لقلاع الاقطاع، وقد استمر توسع حركة المدن لهجرة الكثير من أرقاء الأرض التي كانت الكنيسة أكبر مالك لها إلى المدن حيث ساعد هؤلاء على نمو الحركة الصناعية في القرن الحادي عشر[١١٥] (الخامس للهجرة) فازداد الثراء ومع الثراء يزداد تطلب المعرفة والثقافة، ومن ثم فإن مراكز الثقافة، وازدهار الحضارة فى الأندلس لم يكن سرا لوجود العلاقات التجارية معها ومع شمال أفريقية فكانت المدن الأوربية مراكز تجارية أولاً وليست صناعية[١١٦] لما يستجلب لها من المراكز الإسلامية والشرق الأقصى والصين من بضائع استهلاكية ومواد خام وهذا ما نراه واضحا في الاسماء العربية المستعملة الآن في اللغات الأوربية. وقد نتج من توسع المدن وانتعاشها اقتصادياً أن ظهرت طبقة متوسطة الثراء سميت بـ«البرجواز» نسبة الى سكنى هؤلاء في مدن بنيت كامتداد للبرج الاقطاعي أو القلعة[١١٧] .

وفي الوقت الذي كانت الجامعات الاسلامية في الأندلس و بغداد وشمال أفريقية قد وصلت الى أوجها في القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر للميلاد) كانت مراكز الثقافة الأوربية تتمركز في مدارس الكنائس والاديرة الا أن الأديرة كمراكز ثقافية قد فقدت أهميتها تماماً في بداية القرن الحادي عشر فلم تنتج أوربا بين سنة ٨٥٠ و ١٠٥٠ الا «كلبرت

دي اورلياك» الذي أصبح بابا في روما واتخذ اسم سلفستر الثاني الذي اشتهر بالرياضيات والفلك وقد درسهما مباشرة أو من ترجمة الاصول العربية لأنه ارتاد الاندلس. الا أن المؤرخ «كارل ستيفنسون» أكد أن «كلبرت» لم يكن يعرف العربية ولا اليونانية وأن معلوماته كانت بصورة غير مباشرة وذلك لأنه لم يستخدم الصفر العربي في حساب الجبر الذي كان المسلمون على علم به بمئات السنين قبل «كلبرت» [١١٨] . وقد كان«لكلبرت» تأثير كبير في نشوء جامعة باريس لأن تأثيره في طلبته حفزهم على البحث عن ترجمات للعلوم في النصوص اليونانية والعربية وخاصة الكلام والمنطق والفلك والرياضيات. ومع أن الفكر الأوربي كان تحت سيطرة الافلاطونية الحديثة المتمثلة في آراء اوغسطين الفيضية فاننا نسمع أن روسيلينوس من مدينة شامبين الفرنسية (ت ١١٢٥م) قد خرج برأي في التثليث جديد، وهو أنه رفض وجود الوحدة بين الاب والابن والروح القدس، ورأى فيهم انفصالاً في الكينونة فوصم بالزندقة، لأن رأيه هذا ــ على رأى رئيس أساقفة كانتربري ــ مناوأة مباشرة لحقائق التنزيل الديني المسيحي [١١٩] . وبنبوغ تلميذه أبيلارد الذي صرّح: « الشك يقود الى التسآل والنظر وهما يقودان إلى إدراك الحقيقة» [١٢٠] . بدأ دور جديد ونوع من التعليم اتخذ المنطق سبيلا الى الشك الذي يقود الى اليقين وهذا رأي غزالي رشدي واضح. وقد تجلى هذا التيار في جملة الأسئلة (١٥٨ سؤالا) التي عرضها «ابيلارد» في كتابه «نعم ولا» وبعض هذه الأسئلة كما ذكرها المؤرخ «كارل ستيفنسون» تدور حول الايمان والعقل، وحقيقة الاقانيم الثلاثة، والملائكة، وآدم وحواء، والطبيعة الانسانية ومسألة الذنب، ومسألة المناولة، ومن هذه الأسئلة:

هل ان العقل يساند الايمان أم لا، هل ان الله مادة أم لا، هل ان الملائكة والقديسين الذين يتمتعون بالرؤية يعرفون كل شيء أم لا، هل ان آدم مغفور له أم لا [١٢١] . وغرضه من هذه التساؤلات كان لاثارة روح التسآل والنظر لأنهما مفتاح الحكمة ولأنه رأى في هذه المسائل تناقضا لايمكن

الاجابة عنه الا باستخدام التوفيق والتوضيح. وقد ترك ابيلارد كثيرا من المسائل دون محاولة منه للتوفيق بينها وبين العقائد النصرانية فوصم هو أيضا بالزندقة وطورد. ومع أن بعض من أعجب بابيلارد في القرن التاسع عشر وصفه بـ«حر الفكر او الملحد» إلا أن تأثير ابن رشد يظهر واضحاً في حنايا أفكاره لأنه رأى أن: « العقل متمم للوحي وأن الانسان يستطيع بحق أن يستخدم العقل الذي وهبه الخالق له» [١٢٢] . وهذا رأي فيه جرأة وتحدٍ لسلطان الكنيسة المطلق. وقد كان تأثير «ابيلارد» كبيرا في نظام التعليم الجامعي الأوربي الذي اتخذ علم الكلام والجدل المنطقي (scholasticism) عنصراً أساساً، فصار سمة اتصف بها. وبالرغم من أن «ابيلارد» حاول جهده إرضاء رجال الكنيسة بتأكيده على أنه «الابن البار للكنيسة» الا أن «برنارد أوف كليرفو» (ت ١١٥٣م) أعظم لاهوتي في الغرب حينئذ رأى أن «ابيلارد» هذا[١٢٣] : «الذي احتقر دين آبائه من أجل زهو باطل وغرور (اكاديمي) قد سبب تهديداً خطيراً للمجتمع النصراني» وقد أصاب: لأن «ابيلارد» قد اتهم فيما اتهم به من أنه لم يترك للعقيدة مجالاً في نظامه وذلك لأنه حين ناقش مسألة التثليث أوضح أن آباء الكنيسة الأول لم يكن لديهم الا أثر باهت منها أو من مسألة الحلول وأنه صرّح أيضا بأن العقل الحر (غير المعان) يستطيع أن يفسر أسرار المسيحية وأن العقيدة التي لايسندها العقل هي مجرد رأي[١٢٤] . ولنا أن نقول إن ابن طفيل في قصة حي بن يقظان لم يقصد الا هذه الفكرة، والغزالي يقول: «لأن العقل لايكذب، ولو ذهبنا الى تكذيبه فلعله كذب في اثبات الشرع الذي ماعرفناه وماثبت الا به» [١٢٥] . وهل يخرج هذا عن تصريح «ادلارد أوف باث» السابق؟.

لم تكد الكنيسة تحكم قبضتها الشاملة على الملوك والنبلاء والعامة من الناس، الا وظهر الخطر الكاسح من مكمنه في الوقت الذي لم تكن مستعدة له، وكان له الأثر الهائل في بعث أوربا من عصورها المظلمة، وفي يقظتها الفكرية التي قادتها الى عصر النهضة. ومع أن الكثير من مؤرخي النهضة الأوربية يبخسون دور الفكر الاسلامي عليها فانهم لم ينكروا دور ابن رشد

وفلسفته في التمرد العقلي الذي كلف علماء اللاهوت كتوماس الاكويني جهدا هائلا لتثبيت سلطان الكنيسة المتزعزع. والكثير من هؤلاء المؤرخين يرى أن المسلمين كانوا «حمالة اسفار» الفكر اليوناني إلى أوربا اللاتينية وأنهم نقلة العلم اليوناني الى الغرب. ولو تجرد هؤلاء لحظات من غشاوة العناد لرأوا بوضوح أن الفكر اليوناني لم يكن يونانياً صرفا قد نبع فجأة على العالم، ولرأوا ايضا أنه كان حصيلة جهود انسانية مختلفة المشارب والمؤثرات الشرقية كالايرانية والبابلية والمصرية والأشورية حيث أظهر التنقيب الحديث عن وجود نظرية فيثاغورس المشهورة مرقومة على لوح طيني آشوري قرب بغداد والمسلمون بعد كلّ هذا « لم يكونوا نقلة فقط، ولكنهم على عكس ذلك زادوا في ذلك التراث اليوناني ثم أورثوه الشعوب اللاتينية أغنى مما كان» (١٢٦).

إن العلم ليس وقفاً على شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، فان لكل أمة دوراً تقوم به في إغناء التراث الفكري الانساني في حقبة من حقب التاريخ، ولو كان العلم حكراً على أمة دون أمة لاصبحت الارض يباباً قفراً الاّ من التي احتكرت العلم، وهذا مناقض للتاريخ الانساني.

لقد كان الفكر الأوربي في القرن الثاني عشر مهيئا لقبول تيارات الحضارة الاسلامية سواء رضيت الكنيسة أم لم ترض، وسواء تم هذا النقل أو الانتقال بملامحه الاسلامية أو بملامح نصرانية مموهة، فأن المفكر الأوربي بدأ يتعقل ويناقش ويسأل وينتقد مواضيع كان ممنوعاً عليه مناقشتها، فكان من العسير عليه أن يغض طرفه عن التناقض المرعب بين تعاليم الكنيسة وتطبيقها، وشدة التنافر بين الدين والطقوس وبين سلوك الرهبان والقسس فبدأ الاجلال الأعمى الذي استمر قروناً طوالا لاحكام الكنيسة وسلطتها يتزعزع نتيجة لظهور الكتب المنتقدة مثل كتاب «ابيلارد» الذي اظهر فيه كثرة التناقضات الموجودة في التقاليد الكنسية والأحكام البابوية وهذا كله «لم يكن اشعاراً بثورة عقلية تنبيء بالتمرد ولكنها كانت مصدراً مثمراً لمصاعب في المستقبل اذ أنها بذرت بذور البحث والاستهانة بالكنيسة. ولم يستطيع علماء

اللاهوت ورجال الكنيسة بكل ماأوتوا من قوة في الجدل والكلام أن يعيدوا مرة أخرى إلى الاذهان الثقة العمياء والتسليم الكامل بالهام الكنيسة الإلهي» كما يقول المؤرخ لي(١٢٧) .

"the placid and unbroken trust in the divine inspiration of the Church"

وأن هذه الروح التي أمدتها مدرسة طليطلة بزخم عقلي هائل برزت عند أولئك العلماء المغامرين الذين تقاطروا على المنابع العربية واليونانية يعبون أو ينهلون من معين فنونها وحكمتها، وهنا يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون الشيوعي الهوى «وبالطبع أن ماكانوا يبحثون عنه في المخطوطات العربية لم يكن اطلاقاً تصور الاسلام أو (ماهي حقيقة الاسلام) ولاالعالم الاسلامي بل إن هدفهم كان البحث عن معرفة الطبيعة(*) والعلوم التي ينتفعون بها كالطب والصيدنة والفلسفة والجبر والحساب وفنون الحرب وما الى ذلك ومن ثمّ ماينفعهم في الرد على الاسلام. وفي هذه الغمرة طلب بطرس المحترم من «روبرت أوف ريتنس» الانكليزي الأصل أن يترك دراسة علم الهندسة والفلك الى ترجمة القرآن، حتى يستطيع أن يدحض اغاليط الاسلام» (١٢٨) . لأن بطرس المحترم ــ كما يقول «اديسون المبشر» ــ سافر الى اسبانيا لزيارة بعض فروع دير كلوني (سنة ١١٤١م) فاكتشف وجود حاجة ملحة للكتابات الجدلية فبدأ حالاً يخطط لانتاجها وهو يعد أول رجل جدلي ضد الاسلام في الكنيسة الغربية(١٢٩) . وفي هذه الفترة ايضا بدأت الترجمة لكتب «أرسطو» و«بطليموس» و«ابي بكر بن طفيل» و«ابن سينا» و«الفارابي» و« ابن رشد» الى اللاتينية وبدأ نسخها بحماسة في كل البلدان المسيحية .. وأن الاهتمام العميق الذي أولي للموضيع والمسائل التي احتوتها هذه المترجمات والاخطار الكامنة فيها تشهد لها أوامر المنع المتكررة لكتب أرسطو وتحريم دراستها أو تدريسها في جامعة باريس(١٣٠) . وقد بلغت الجرأة الجدلية مدى بعيدا في مناقشة أركان العقائد النصرانية الى

(*) The Lagacy of Islam, 2 nd ed. ed. J. Schacht and C. E. Bosworth, oxford 1974, P. 15.

حد أن «سيمون دي تورني» وهو عالم لاهوتي وقف أمام جمع من المستمعين في سنة ١٢٠١م وناقش مسألة التثليث واستطاع أن ينتزع التصفيق من مستمعيه لأنه أقنعهم بمنطقه البارع وحججه بصحة هذه المسألة غير أن الحماس أخذه فأعلن بأنه يستطيع وبحجج أقوى أن يدحض هذه المسألة[١٣١] . ويضيف المؤرخ «لي»: «وقد ازدادت جرأة أمثال هؤلاء المتوغلين خلال «الحُرُم المقدسة» بلا حدود في بداية القرن الثالث عشر حين اصبحت كتب ابن رشد معروفة فشكلت خطرا حقيقا في إفساد الفكر المسيحي»[١٣٢] ومن هذا نفهم جيدا حملة «جيل دو روم» الشعواء حين صرح: « جدد ابن رشد جميع أضاليل الفلسفة ولكنه أقل أهلية (استحقاقا) للمعذرة لحملته على ديننا حملة أكثر مباشرة»[١٣٣] . فاذا وصلنا الى بترارك الذي كان مصابا بعقدة «الاسلام» أو السراسان، تجلى المقت للرشدية عنيفا كاسحا حين كتب الى صديقه الراهب الأوغسطيني لويجي مرسكلي أن يقدم له معروفا: « أطلب منك أن تقوم بآخر معروف وهو أن تتفضل في أوقات الفراغ بان تنقلب على هذا الكلب الرشدي الصيّاح الذي بلغ من الهياج الأعمى مايعوي معه على يسوع والدين الكاثوليكي بلا انقطاع»[١٣٤] . ولم ينحصر هذا المقت للرشدية عند بترارك بل تعداه الى كل علم ينسب «لأولاد اسماعيل» حتى أنه لم يرد أن يشفى بنصائح الطب العربي ولا بالادوية التي تحمل أسماء عربية. وقال لأحد أصدقائه: « ارجو منك فيا هو خاص بي الا تعتمد على عربك وأن تعدهم كانهم لم يكونوا فأنا أمقت هؤلاء القوم .. فلا يمكنني أن اتصور من هو أكثر منهم تخنثاً وارتخاءاً وهُجراً .. ولا أكاد أُحمَلُ على الاعتقاد بإمكان صدور ما هو صالح عن العرب ..[١٣٥] . واعتقاد بترارك هذا لم يعدم من تقبّله بحماسة من المستشرقين، بل انه أصبح الطابع العام للاستشراق الأوربي بكل ضروبه[١٣٦] . وسرت عدواه الى العقل الأوربي عموماً.

ابن رشد وأثر فلسفته في الفكر الأوربي

سبق أن قلت أن ابن رشد قد أقام الدنيا ولم يقعدها في الغرب النصراني فمنذ أن عرفته أوربا الى الآن لم يزل يلقى خصوما واتباعا من مؤرخي الفكر الأوربي للعصور الوسطى أو للعصر الحديث وأكثر هؤلاء يعولون في تواريخهم ومناقشاتهم على آراء الرشديين اللاتينيين أو اعداء الرشدية من رجال الكنيسة. وقد لعب سوء الترجمة أو سوء الفهم في نسبة العديد من الآراء لابن رشد لانجد لها ذكراً في كتبه أو في شروحه. والعجيب أن مؤيدي ابن رشد وأعداءه قد اتفقوا على نسبة جميع البدع اليه فزعموا أن ابن رشد ينكر علم الله تعالى للأشياء الجزيئة فطعنوا عليه ووجد الرشديون في هذا الرأي سنداً لهم ضد رجال الدين. ونسبوا له انه كان يدعو الى التحرر من كل دين وانه كان يرى أن الديانات الثلاثة هي مجموعة خرافات تصلح للعوام فقط. ونسبوا له أنه قال: المسيحية دين مستحيل واليهودية دين الأطفال والاسلام دين الخنازير. ويحلو لآخرين أن يطوفوا بابن رشد في جميع درجات الالحاد، وذلك أنه كان نصرانياً في البداءة ثم صار يهودياً ثم صار مسلماً ثم كفر بكل دين. فنسبوا له أسطورة «الدجالون الثلاثة». وجعل كل ذي رأي من ابن رشد ترجمان ارتيابه وإلحاده وتمرده فقال بعضهم. أنه لايؤمن بسر القربان المقدس، وقال آخرون أنه لايؤمن بالشيطان، وقال فريق ثالث أنه لايؤمن بالنار. وهكذا صار ابن رشد كبش الفداء الذى يحمّله كل واحد رأيه الالحادي. وكتاب **«الدجالون الثلاثة»** كتاب أسطوري لم يره أحد ولم يوجد قط(١٣٧) . ويظهر أن رجال الكنيسة قد لفقوا عليه هذا الكتاب لأن ملكة السويد«كرستينا» حاولت عبثاً أن تعثر عليه في كل المكتبات الأوربية فلم يظهر له أثر. والدليل: أن الكنيسة اذا أرادت أن تشين وتفضح أحد أعدائها نسبت الكتاب اليه فيقع تحت طائلتها (١٣٨)

"became a cinvenient formula with which the Church horrified the faithful by attributing it successively to those whom it desired to discredit".

ولهذا ظل ابن رشد في عيون النصارى ـ كما يقول ارنست رينان ـ «حامل لواء الالحاد وذلك لأن اسمه قد محا على الخصوص اسم فلاسفة الاسلام الآخرين فصار ابن رشد ممثلاً للعرباوية "Saracenisme" [الاسلام] التى كانت تقترن بالالحاد على رأي القرون الوسطى (١٣٩). وهذا العداء للعرباوية نراه واضح المعالم عند «ريموند لول» و«مارتيني».

وهنا أود أن أشير الى أنني لست معنياً بتبيان آراء ابن رشد الفلسفية، وأصالتها بالنسبة لآراء أرسطو أو مدى اعتماد ابن رشد على هذه الآراء أو مفارقته لها، أو مدى نجاح ابن رشد في التوفيق بين آرائه والعقيدة الإسلامية، لأن كل هذا موضح مبسوط في كتبه وفي الدراسات الكثيرة عنه. وجل اهتمامي يدور حول تأثير آرائه الأصيلة أو المحرفة عمداً في بلبلة الفكر الديني الأوربي ومدى ماساعدت هذه البلبلة على نشوء الاستشراق الفعلي.

لقد أدرك الفلاسفة المسلمون أن الناس عموماً طبقتان: عامة وخاصة، ولكل طبقة حظها من العقل، والاستعداد، والادراك، وطريقها في الفهم والتصديق (*). ولما كانت الشريعة مأخوذة من الله عز وجل بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، فان التسليم للداعي إليه والمنبه عليه يمنع الخوض فى الدين على عادة المتكلمين الذين يزعمون أنهم ينصرون الدين، وهم أبعد الناس عن الطمأنينة واليقين (١٤٠). وهذا التقسيم للناس لم ينفرد به ابن رشد فقد سبقه به الفارابي وابن سينا والسجستاني وابن طفيل ونراه عند ابن ميمون ومن جاء بعده الى سبينوزا. ولعل هذه الفكرة هي التي ساقت مفكري مدرسة باريس الى فهم «الحقيقة ذات الوجهين» : "dubbele waarheid" والتي أخذها هؤلاء من ابن رشد لأنه رأى ان: «السبب في انقسام الشريعة الى ظاهر له أهله، وهم العامة وأشباههم وباطن له أهله وهم ذوو البرهان؛ لأن الناس مختلفون في الفطر والعقول

(*) انظر كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالي، تحقيق سليمان دنيا، ص ١٨٨.

ولهذا تختلف استعداداتهم وقدراتهم، ووسائلهم الى فهم وادراك ماجاءت به الشريعة من المعتقدات»[١٤١] ، ففهموا أنه يناقش ضد الدين و يفصل بين الشريعة والفلسفة، والى هذا ذهب سبينوزا اليهودي في رسالته «اللاهوت والسياسة» حيث بحث العلاقة بين العقيدة والعقل وتوصل الى أنه ليس من علاقة أو صلة قرابة بين الدين والفلسفة. ولذلك رفض بقوة صنيع ابن ميمون في تأويل التوراة ليستنبط منها مازعمه من الأفكار الفلسفية، ورفض أن يكون في التوراة فلسفة بل ليس فيها الا حقائق بسيطة جداً[١٤٢] . والظاهر ان هذه الآراء كانت السبب وراء رفض يهود هولندا أن يدفن سبينوزا في مقبرة يهودية، الا أنه ينام الآن فى كنيسة مسيحية بمدينة «لاهاى» الهولندية. والحق أن الفيلسوف المسلم عنى شيئاً آخر من تقسيمه فهو قد رأى أن لبعض نصوص الشريعة معنى ظاهراً يفهمه العوام دون حاجة إلى شرح وأن لبعضها معنى خفياً يفهمه أهل العقل بالتأويل وكلاهما يقود الى اليقين و يقين العوام المبني على الايمان و يقين ذوي البرهان المبني على الاقتناع دون التقليد نتيجة لدراسة عقلية وأدلة منطقية قوية وفهم يليق بأسمى المخلوقات في معرفة الخلق والخالق. وان كل الذى كان يهدف اليه ابن رشد هو بيان أن حقيقة الشرع هي نفسها حقيقة العقل.

لقد تغلغل ابن رشد بسرعة مدهشة في العالم المسيحي ـــ كما يقول أحد المؤرخين المعاصرين ـــ وقد كانت «ارغون» «وقشتاله» قد عرفته أولا. ففي مقاطعة «لانكودوك» ـــ في مدارس مونبليه ونربونه و بربينان ـــ كان الطب والفلفسة العربيان مزدهرين ولابد أن طلاب العلم من أوربا الغربية الذين كانوا يختلفون الى مدارس الطب العربية قد عادوا بلا شك بأراء الفلاسفة المسلمين وأطبائهم. ومن طليطلة العربية نفسها و بواسطة ترجمات بعض المسيحيين واليهود في أسبانيا و بروفانس وصلت كتب ابن رشد الى العالم المسيحي[١٤٣] . و بنفس السرعة التى ترجمت بها كتب ابن رشد أصبحت آراؤه معروفة ومتداولة في الاوساط العلمية النصرانية وخاصة عند

المدرسين. ولم يكد يشرف النصف الأول من القرن الثالث عشر (١٢٥٠/٦٤٨هـ) على الانتهاء حتى وصلت ترجماتها اللاتينية كاملة الى علماء جامعة باريس فأصبحت الفلسفة الرشدية قوة فكرية، يحسب لها حسابها[١٤٤] . وقد حسبت الكنيسة بالفعل لفلسفة أرسطو وشارحه ابن رشد حساباً، فبدأت التحريمات والمنع. ففي سنة ١٢١٠ / ٦٠٧هـ حرم المجمع الكنسي المجتمع بباريس قراءة أرسطو وشروحه، وهدد من يفعل ذلك بعقاب التحريم البابوي. وفي سنة ١٢١٥/٦١٢هـ جدد نائب البابا الذي كانت جامعة باريس تحت اشرافه، تحريم قراءة أرسطو وشروح ابن رشد. ولم تمنع هذه التحريمات طلاب الفلسفة الرشدية من دراستها حتى أن البابا (كريكوري) التاسع حين خاطب طلبة وأساتذة جامعة باريس فى ١٢٣١/٦٢٩هـ منع دراستها لحين فحصها وتنقيتها وعهد بهذه التنقية الى جماعة اختارهم. ومع أن البابا أوربان الرابع جدد التحريم الا أن كل هذه التحريمات لم يكن لها أثر يحدّ من انتشار دراستها فقد كان الحماس لارسطو وللرشدية شديداً وعنيفاً بحيث لم تنفع كل التحريمات في التخلص منها. ولما اعياها الأمر بدأت الكنيسة في دراسة الرشدية وتبنيها ومن ثم اتخاذها سلاحا في خدمة المسيحية حين فشلت في القضاء عليها فبدأ الصراع الجدلي شديدا حين عهد البابا الكسندر الرابع في سنة ١٢٥٦ الى «البرت الكبير» بالرد على الرشدية الا أن «البرت» لم يرد على الرشدية بل على ابن رشد نفسه اذ تولاه بالنقد والتجريح، ولم يكتف البابا بذلك بل عهد ايضا الى «البرت اوف كولون» بالرد على ابن رشد أيضاً، مما يثبت أن الكنيسة كانت قلقة جدا من تأثير ابن رشد على سلطتها، وهنا بدأ الرهبان «الدومينيكان» دورهم في الذب عن الكنيسة باستخدام ابن رشد وفلسفته في شخص «توماس الأكويني».

الصراع بين الفلسفة الرشدية والكنيسة

لقد شطرت فلسفة ابن رشد مفكري العصور الوسطى الى شطرين، **الأول:** رجال الكهنوت الذين لم يروا خطر الرشدية الجارف على سلطة

الـكـنـيـسـة، وتـعـاليـمـهـا فحسب بل على العقيدة النصرانية بصفتها نظاماًدينياً ودنـيو ياً معاً يحكمه البابا عبر نظامه الهرمي **والشطر الثاني:** المفكرون الأحرار أو الخـارجون على سلطة الكنيسة الذين أرادوا الاعتماد على شروح ابن رشد لـكـتـب أرسطـو لـكـي يبرروا خروجهم على الكنيسة في محاولة للتحرر من كـبتهـا للتـفـكير الحر. وقد تعاون خصوم ابن رشد وأنصاره على تشو يه آرائه الحقـيـقـية، فدسوا عليه ماشاءوا ونسبوا اليه ماأرادوه، واستخدموا هذه الآراء المدسوسة في صراعهم الفكري. ولما كان ابن رشد قد هاجم المتكلمين من الفقهاء حيث أنكر عليهم عقم طر يقتهم الجدلية في تقر ير العقائد الإسلامية أو البـرهنة عليها لأنها تثير العناد والتعصب عند العوام من الناس. وأن ضرر هـذه الـطـر يـقـة الجـدلـية يكمن في انها تجعل كل فر يق يظن أنه على الحق فتسود الفوضى و يعم الانشقاق، لذلك خيل الى الرشديين اللا تينيين أن ابن رشـد قـد هـاجـم الـدين حين كان يهاجم المتكلمين فاتخذوه سلاحا في وجه الـكنيسة. ولم يمض وقت طو يل حتى كان كل فر يق يصم الآخر «بالزندقة و بـأنصار الدجال» "antichrist". وفي دفاعه عن الكنيسة كتب المؤرخ «لـيـكـي»: «أن تـعاليم الإلحاد (الكفر) الصارمة العنيدة التى تدفقت من أشـبـيـلـيـة ومـن قـرطـبـة في شخص ابن رشد، قد بدأت تتخذ تقديرا هائلاً واستطاعت أن تلقي ظلالها على الفكر الأور بي بأجمعه حتى ظن أقدر العلماء أن عـهـد الـدجـال قـد بـدأ وشـاع الـشـك فـي صـحـة سـلطة الكنيسة وعمّ، واعـتبرت كل نأمة شك أو تمرد فكري على أنه من عمل الشيطان فسارعت الـكـنـيـسـة لإدانته. وحين أدانت الكنيسة مبدأ الشك فانها قد أدانت العقل الانساني، لأن الشك والتمرد عند الكنيسة هما أكبر الجرائم[١٤٥] وهذا الشك وهذا التمرد، كانا وراء الرغبة العارمة عند مفكري أورو با للوصول إلى الحقيقة الـعـقـائـديـة، وهـمـا ايـضا خير وسيلة لاتهام الخصم والتنديد بعقيدته كما فعل الأسـقـف بـيـكـام مع الـدومـنـيـكـان حين أراد أن يـثـيـرالـشك فى توماس الأكـو يـنـي، وفـى اتـهـامه بالرشدية الالحادية[١٤٦] ، بالرغم من أن توماس الاكـو يـني جنّد كل عبقر يته الفلسفية واللاهوتية في الرد على الرشدية. ولم

يقتصر الصراع على رجال اللاهوت والرشديين اللاتينيين فحسب بل إن التنافس الشديد والعداء المستحكم بين «الدومنيكان» و«الفرنسيسكان» وجدا في الرشدية وتعاليمها الفلسفية متنفسا في تفسير مسائل العقيدة النصرانية فبرز مايسمى بالمثالية والعقلية: Nominalism and Realism أو مايسمى أحيانا كثارا بالفلسفة الاسمية، والفلسفة الواقعية، وكلتاهما تمتّان لفلسفة أرسطو وشارحه ابن رشد بألف صلة وسبب. وقد استعر الصراع بين حماة الكنيسة الدومينيكان وبين الرشديين وبين هؤلاء والفرنسيسكان. ولما أصدر «توماس الاكويني الدومينكاني» في سنة ١٢٧١م كتابه "contra Averroistas" «معارضة أتباع ابن رشد» كان غارقا إلى الأذقان مابين سنة ١٢٦١ وسنة ١٢٦٩م مع «وليم اوف موربيك» في البلاط البابوي (وبرعاية البابا وأمره) في مشروع ترجمة وشرح كتب أرسطو. ولما احتل الدومينيكان كرسيهم الأول في جامعة باريس في سنة ١٢١٧م والفرنسيسكان كرسيهم في سنة ١٢١٩م دبت الغيرة في نفوس العلماء غير الرهبان خشية أن تقع جامعة باريس تحت سيطرتهم فبدأوا بقيادة «وليم دي سنت أمور» اللاذع اللسان و«جيرارد أوف ابيفيل» هجوماً عنيفاً عليهما وصار كل فريق يصم الفريق الآخر بالكفر والزندقة[١٤٧] . ولعل أغرب مظهر في هذا الصراع الفكري هو أن كل فريق كان يستخدم فلسفة ابن رشد في شروحه على أرسطو لاتهام الفريق الآخر بالرشدية التي أخذت عندهم كلهم معني « الاسلام الالحادى» بالنسبة للنصرانية. ولما ظهر كتاب سيكر دي براباند: " De anima intellectiv" في سنة ١٢٧٠م ظهر مقابله كتاب لتوماس الاكويني بعنوان: "De unitate intellectus contra Averroistas" حيث دافع فيه «توماس الاكويني» عن نفسه ضد الاتهام بالرشدية وهاجم في الوقت نفسه الرشديين هجوماً ضارياً. وقد جدد هذا الهجوم العنيف في خطبة طويلة ألقاها في جامعة باريس منددا بالفلسفة الرشدية وتناقضها والتباسها بالنسبة الى العقيدة النصرانية ويسرها ووضوحها. وفي نفس السنة: ١٢٧٠ أدان أسقف باريس ثلاث عشرة ضلالة رشدية كان « سيكر دي براباند» وجماعته يدرّسونها في جامعة

باريس[١٤٨] . وبعد سبع سنوات (١٢٧٧م) أعاد أسقف باريس «ايتين تيمبير» ادانته «لسيكر دي برابانـد» ووصفه باستاذ الحقيقة ذات الوجهين[١٤٩] . وهذه تهمة رشدية لم تعدم لها نصيراً عند أصحاب الفلسفة الاسمية أمثال «وليم اوف اوكوم»، وتفسر تفسيراً سياسياً في نزاع أمير «بافاريا لويس اوف بافاريا» مع البابا وتنتج بالتالي مبدأ الفصل بين الدين والدولة[١٥٠] ، فكان ماللبابا للبابا وما لقيصر لقيصر. وعلى أثر إدانة أسقف باريس «لسيكر دي برابانـد»، فقد حوكم وسجن في روما، وقيل أنه اغتيل[١٥١] ولاعجب. واستمر الصراع عنيفاً وسجالا بين الاسميين والواقعيين، أو الدومينيكان والفرنسيسكان في جامعات باريس ولوفان واكسفورد ومنها انتقل الى جامعة بادو في ايطاليا. ولم يقتصر هذا الصراع على الجدل الكلامي، بل تعداه الى الجراح بل والى القتل أحياناً أو السجن المؤبد كالذي حكم به على «جون اوف فسل» **"John of Wesel"** في ماينز بألمانيا، أو حكم الاحراق الذي عاناه «هرمان اوف رايسفايك» في سنة ١٥١٢م بلاهاي[١٥٢] . وقد استعر العداء الى حد أن «التوماويين» (الدومينيكان نسبة الى توماس الاكويني) عدّوا كل من يقول بالفلسفة الاسمية كافراً بالروح المقدس وجاحداً لله وللدين المسيحي وللعدل وخائناً للدولة[١٥٣] . وأصبحت الرشدية سبّة وزندقة تلصق بالخصم وماعلى الخصم الا أن يثبت إخلاصه لارسطو الوثني وتنصله من الشارح وذلك بالرد العنيف عليه والحط منه. ولم يسلم من تهمة التزندق هذه حتى العلماء الذين كان همهم الشاغل نقض فلسفة ابن رشد «كتوماس الاكويني» و«دونس سكوتس» و«توماس برادواردن» و«وليم أوف اوكوم» و«بوردان». وكل هؤلاء ادانتهم جامعة باريس[١٥٤].وأن جريمة «توماس الاكويني» الذي تصوره الرسوم واضعاً قدمه على راس ابن رشد دليلا على انتصاره على الرشدية، أنه اتبع في فلسفته ارسطو وشارحه ابن رشد ــ الوثني وشارحه البائس "wretched commentator" بدلا من الاعتماد على القديس «اوغسطين» ممثل التقليد المسيحي[١٥٥] . ولم يشفع له شرحه على أرسطو الذى أراده أن يحل

محل شرح ابن رشد وهوبشرحه قد توسم خطى استاذه البرت الكبير في شرحه لارسطو وهجومه على ابن رشد[١٥٦] ، ولكل هذا كانت الرشدية سلاحاً يحمله كل خصم للايقاع بخصمه، ولهذا انتحلها الكثير ونحلوها الكثير من الأراء المزيفة والموضوعة على ابن رشد فأمكنها «أن تستوعب الكثير من الألفاظ المرنة والبالغة الهول بين يدي الافتراء، وأن تحولّ الى مشتبه فيهم أولئك الذين كان يراد القضاء عليهم» كما يقول رينان[١٥٧] . وكان كل واحد يجري على لسان ابن رشد رأيا لايجرؤ على الجهر به باسمه فنسبوا اليه أنه دخل الى كنيسة نصرانية ذات يوم فرأى المؤمنين من النصارى يتناولون القربان المقدس فصرخ قائلا: «ياللقباحة! أفي العالم ملّة أكثر جنونا من النصارى الذين يأكلون الرب الذي يعبدون؟»[١٥٨] . ومع أن هذه الحكاية مدسوسة على ابن رشد فإنها أصبحت سلاحاً بيد البروتستانت، ولم يشأ مزور هذه الحكاية إلا أن يبرر هذا الاحتجاج على طقوس المناولة الكنسية: «فمنذ هذه الساعة عدل هذا الشقي عن الايمان بأي دين كان وقال ساخراً بكلمة بلعام: «لتمت نفسي موتة الحكماء».

وفي الوقت الذي تبنى «الدومينيكان» تفسير «توماس الأكويني» لفلسفة أرسطو ومحاولته التوفيق بين هذه الفلسفة والمسيحية التقليدية فإن «الفرنسيسكان» رفضوا «الفلسفة التوماوية» في مراكزهم الجامعية كاكسفورد وتبعتها جامعة باريس. وكان «دونس سكوتس» (توفي ١٣٠٨م) مثير هذا الرفض لأنه كان يرى أن وجود الله تعالى، وخلود الروح يمكن أن يبرهن عليهما بالعقل، وأن اللاهوت يجب أن لايخضع لمعايير فلسفية، ولكن يجب أن يكون خاضعاً للوحي، ومن هذا المعيار فان وجود الله تعالى يمكن أن يعرف من خلال الوحي. وبعد وفاة «دونس سكوتس» برزت شهرة «وليم أوف اوكوم الفرنسيكاني» الذي اشتهر بمعارضته للبابا وقد تركزت آراؤه على انعاش الفلسفة الاسمية فعارض التوماوية الأرسطوية وعنده: ان أركان الدين يجب أن تقبل دون اعتراض لأنه يمكن للعقل أن يبرهنها ومن ناحية أخرى لايمكن أن تكون الأساس لكل المعارف؛ وبمعنى آخر: العلم

علم واللاهوت لاهوت لأن الاثنين بالضرورة مختلفان ولايجب أن يخلط بينهما. وهنا يبرز ابن رشد اللاتيني الذي فصل بين دور الكنيسة الديني والدنيوي مع أن ابن رشد الاسلامي لم يفكر قط بالفصل بين الدين والدولة. وقد سادت تعاليم «وليم أوف اوكوم» في جامعة باريس أولاً وبالتالي في كل أوربا. ويرى المؤرخ «كارل ستيفنسون» أن تأثير فلسفة «أوكوم» على «جان بوريدان» و«نيكول اوريسم» و«البرت اوف ساكسوني» كان كبيرا في منتصف القرن الرابع عشر والذين كانت كتاباتهم مهيئة لعصر النهضة العلمية وخاصة أثرها على «نيوتن» و«غاليلو». ويستطرد «كارل ستيفنسون» قائلا: «ونحن واثقون أن «تأكيد اوكوم» وتلاميذه على الملاحظة العلمية قد أرسى جانبا من القواعد العلمية الضرورية والتي بنيت عليها نهضة العصر التالي»[١٥٩] . ومالم يقله ستيفنسون: أن ابن رشد قد حرر العقل الأوربي من نير الكنيسة.

لقد انجب الفكر الفلسفي اللاهوتي الأوربي في العصور الوسطى شخصيتين متباينتين في العقلية والأسلوب ومتفقتين في معارضة تأثير الفلسفة الرشدية على الفكر النصراني، وفي دفاعهما عن سلطة الكنيسة اللاهوتي والدنيوي، وهما «توماس الاكويني» و«ريموند لول». ويعد توماس الاكويني اخطر خصم لقيته فلسفة ابن رشد مع كونه التلميذ الاول لابن رشد الشارح الاكبر لارسطو ومنه تعلم ــ كما يقول رينان ــ فن شرح فلسفة ارسطو بعد أن كان مجهولا قبله[١٦٠] . وقد نال توماس الاكويني شهرة منقطعة النظير في تاريخ الفلسفة الأوربية لأنه دحر ابن رشد ممثل الكفر والالحاد، وانتصر للكنيسة اذ استخدم أسلحة الخصم العنيد في قراعه حين نجح في التوفيق بين الفلسفة والعقيدة المسيحية التقليدية بيد أن محاولته هذه «لم تزد الناس الا جدالا» ــ كما يقول كارل ستيفنسون[١٦١] . وليس غريباً أن يجد الدارس أن «توماس الاكويني» متفق تمام الاتفاق مع ابن رشد في الغاية وفي اصطناع الوسائل التي تنتهي بالتالي الى هذه الغاية بل إنه متفق مع ابن رشد في المنهج الذى اتبعه في التوفيق بين الدين والفلسفة اضافة الى الحلول التي ينسبها الى نفسه هي حلول رشدية اصيلة.

ولعل شهرة توماس الاكويني «القديس» لم تشع لأنه قارع الحجة بالحجة أو جاء بفلسفة نصرانية جديدة كسفت شمس الرشدية الالحادية بل لأن الكنيسة التي بدأت تعاليمها تترنح تحت ضربات الرشديين اللاتين وجدت في توماس الاكويني مخلصاً جديداً أو مسيحاً ثانيا. وأن مناهضة توماس الاكويني للرشدية تتضح بجلاء في رسالته «وحدة العقل ضد الرشديين» وهي من أهم رسائله حيث تكشف لنا أشكال جدله وحقده على الرشديين اللاتينيين لأنهم عدّوا ابن رشد أعلى حجة وأرفع من حجة الدين، وهنا يشتاط القديس «توماس الاكويني» غيظا لأن أناسا من النصارى يجعلون أنفسهم تلاميذ كافر «ابن رشد» ويفضلونه على نفوذ جميع الفلاسفة(١٦٢) .

ومن توماس هذا سرى الحقد الدافق على ابن رشد في جميع المدرسة الدومينيكية وخاصة عند «ريموند مارتيني» و«ريموند لول» اللذين رأيا في فلسفة ابن رشد دين الاسلام الخالص(١٦٣) الذي يجب دحضه. وقال المبشر «اديسون» أن ريموند «اوف بينافورت» "Raymond of Penaforte" الذي دفع توماس الاكويني لتصنيف كتابه: "Summa contra gentiles" **(ضد الوثنيين)** أن المسلمين في اسبانيا كانوا في مخيلته. وقد أنشأ هذا الراهب مدرسة في مرسيه وأخرى في تونس لتعليم الرهبان العربية حتى يستطيعوا تنصير المسلمين. ولهذا السبب ايضا تعلم الراهب «ريموند مارتيني» العربية فانتج كتبا في الدفاع عن الدين ضد اليهود وضد المسلمين. وقد اجهد نفسه في العمل التبشيري في اسبانيا وشمال أفريقية(١٦٤) . وقد قيل أن مارتيني هذا قد «تبحرّ في القرآن وحفظ صحيحي مسلم والبخاري» (١٦٥) وأنه حاز شرف المؤسس الأول لمحكمة التفتيش في تونس ومراكش (١٦٦) .

ويظهر لنا أنه قد سمع أن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام في القرآن وفصاحته. ويظهر أيضا أن «تبحرّه» في القرآن قد اقنعه بمقدرته الهائلة على معارضته. فاذا نجح في مسعاه فان البابا سيبواه مكاناً علياً في الملكوت وأن «الكفار» المسلمين سيدخلون النصرانية الكاثوليكية زرافات ووحداناً. الم يتحد قرآنهم بفصاحة دونها فصاحة القرآن؟ واليك «سورة» الراهب «المعجزة» بكل مافيها من سقامة في الوضع واختلال في الفصاحة: (١٦٧)

[بسم الله الغفور الرحيم

أعارض قرآن من آخر اسمه الدال واوله الميم، بلسان فصيح عربي مبين، لايمنعنى منه سيف ولاسكين، إذ قال لي بلسان الالهام سيد المرسلين: قل المعجزة لاشريك فيها لرب العالمين وفي الفصاحة يشترك كثير كثيرين يغلب فيها أحيانا الصالح الطالح والكافر المؤمنين، فليست الفصاحة ولو فى النهاية أية ولامعجزة اللهم الا عند الذين أوطاوهم عشوة معلم مجنون حتى قالوا عنه خاتم الأنبياء وسيد المرسلين مع أنه باقراره في سورة الاحقاف لم يدر قط مايفعل به ولابتبّاعه أجمعين اكتعين، فقل يا من اسمه رمند ولقبه مرتين: آه لقوم يقبل الباطل والخرافات والترهات كأنها اليقين، وإن كنتم في شك مما ألهمنا إليه عبدنا يامعاشر المسلمين فأتوا بحل هذه الحجة، وبمثل هذه السورة وادعوا لذلك إخوانكم من الجن إن كنتم مهتدين فإن لم تقدروا. ولن تقدروا فقد زهق الباطل، واستقام اليقين والحمد والشكر لله آمين آمين]

وفي نسخة أخرى من هذه السورة المارتينية الفصيحة؟ ورد:

[والله الرحيم يرحم عبداً الجم بهذه جماعة الاسلام وتبارك الله أحسن الملهمين، وليقل أهل السموات والارضين آمين آمين آمين].

وفي هذه «السورة المارتينية» يظهر مدى تبحُّره! في القرآن وسعة حفظه للصحيحين!، وفيها ايضا تظهر البوادر الأولى للاستشراق الفعلي والذي كان للفلسفة الرشدية التي حرفها وزورها الخارجون على الكنيسة نصيب وافر لأن الكنيسة رأت في الرشدية المحرفة وفي ممثلها ابن رشد المسلم «اوقح عدو للنصرانية لأنه الرجل الذي استهزأ بكل الأديان وعدّها فاسدة واعتبر النصرانية أفسدها لأن النصارى يأكلون ربهم كل يوم» (١٦٨) . وهو السبب والمسبب لظهور حركات الزندقة التي لم تتوقف في الظهور(١٦٩) وفي تحدي تعاليم الكنيسة حتى القرن السابع عشر.

ابن رشد في نظر خصومه

ولما فشلت كل الجهود لكبت فلسفةٍ وجد فيها العقل الأوربي اغراء لاثارة ملكته الحرة في التمرد على عقيدة لاتقوم للمنطق والفهم، فإنه ليس عجباً أن تشيع آراء ابن رشد المحرفة بين علية القوم والعامة من الناس، ويظهرون القول بها علناً إلى حدّ أن يوصف ابن رشد بـ«ينبوع الحكمة» ويساء الى اسم المسيح [١٧٠] ، مما احفظ بترارك الذي كان يكره كل مايشم منه رائحة الاسلام: لقد كره طبه وكره علم فلكه وفوق كل هذا فقد كره فلسفته، وراى في ابن رشد كلباً عاوياً ضد العقيدة الكاثوليكية [١٧١] ، وابن رشد الاسلامي براء من ذلك. ومع أن بترارك اعتبر روما «معبد الزندقة» إلا أن إعجابه العميق بالتراث اليوناني، وخاصة أدبه [١٧٢] جرّه الى ازدراء كل علم غير يوناني وبالتالي إلى مقت ابن رشد لإعجاب مثقفي عصره بفلسفته وخاصة في جامعة بادو الايطالية. وقد برزت دعوة بترارك بتنظيف الفكر الأوربي من الأثر الأسلامي واضحة المعالم في رد الفعل العنيف ضد الأرسطوطاليسية المتجسمة في ابن رشد بعد انهيار الرشدية الايطالية. ولم يلبث ابن رشد أن عُدَّ ساماً ظلاميا جلادا للجنس البشري أهلك العالم بقلمه كما أهلكه الاسكندر، فصار هذا العربي المسلم هدف تهكمات جميع المثقفين [١٧٣] . ولذلك كتب «توماس جيونتا» في القرن السادس عشر: «كان أجدادنا لايجدون أمراً بارعاً في الفلسفة أو الطب الا والعرب مصدره، وأما جيلنا فيدوس علم العرب، ولايعجب بغير مايستخرج من كنوز اليونان، ولايعبد غير اليونان وهو لايريد غير اليونان اساتذة في الطب والفلسفة، فمن لم يعرف اليونانية لايعرف شيئاً» [١٧٤] . وقد بلغ الاستخفاف بابن رشد شديداً حين كتب «فيشين» داعياً الى التخلي عن ابن رشد لأنه: «لم يعرف اليونانية ولم يفقه من أرسطو شيئاً» [١٧٥] . وهنا أدلي الجزويت (اليسوعيون) دلوهم في محاربة الرشدية فاصرّوا على تذكير أساتذة الفلسفة في أوربا أن لاينسوا تحريم البابا في مرسوم مجمع لاتيران (١٥١٢م) الذي أدان فيه المجمع المسكوني الرشدية الايطالية، وأن

لايستشهدوا الا مع الاحتراز بمفسري أرسطو الذين لاخلاق لهم من النصرانية وأن يحولوا دون تعلق التلاميذ بهم وبألا يوضحوا استطرادات ابن رشد على الخصوص، وبان يقولوا اذا أمكن: «أنه اقتبس من الآخرين كل ماقال من صالح» . وقد أحسن الجزويت للاستشراق الفعلي كل الاحسان حين قدموا للمستشرقين هذا الرأي الجزويتي في نسبة كل ماهو صالح لغير أهله إذ أصبح هذا الرأي القاعدة الأولى للاستشراق الفعلي ولعلم مقارنة الأديان الأوروبي كما رأينا عند الكلام على نظرية الأجناس. وقد عد بعض اليسوعيين (الجزويت) في القرن السابع عشر ابن رشد رأس الزندقة لأنه لم يستطع أن يتصور وجود نصراني يطلب دروساً من زنديق ظهر بعد يسوع المسيح بأحد عشر قرنا . وظل إبن رشد ممثلاً للالحاد والزندقة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر حين عده لبنتز: «مؤلفاً ضاراً أصاب العالم النصراني بأعظم ضرر».

وشتان ما بين هذا الرأي اليسوعي، ورأي ابن رشد نفسه في كتب اليونان حين قال: «فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر مانقلوه من ذلك فان كان صواباً قبلناه منهم وان كان فيه ماليس بصواب نبهنا عليه». وقال أيضا: «فقد يحسن علينا أن ننظر في الذي قالوه وماأثبتوه في كثير من كتبهم فما كان موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وماكان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم عليه»[١٧٦] . وبهذه الروح العلمية الموضوعية التي سمت على البغض والحقد والتعصب الأحمق درس العلماء المسلمون تراث الأمم المختلفة عنهم ديناً وعرقاً وثقافة.

ريموند لول

أما الشخص الثاني الذي انجبته القرون الوسطى فهو ريموند لول الميورقي المولود في مدينة بالما سنة ١٢٣٥/٦٣٣هـ والذي قيل فيه: «ريموند لول في نفسه موضوع محير جداً فقد عدّه البعض قديساً واعتبره آخرون زنديقا. واعتبره بعض الناس عالماً وآخرون جاهلاً، وبينما راه البعض مُلهَما عدّه آخرون

محرفا» [١٧٧] . وهذه الشخصية المتناقضة عزيزة على قلوب المبشرين وحبيبة ذكراها عندهم لأنه «أول مبشر بين المسلمين» [١٧٨] جمع بين الاستشراق والتبشير فقال المبشر«صموئيل زويمر عنه»: «والى يومنا هذا كل مستشرقي أوربا وكتاباتهم مدينة لريموند لول .. لأن الفضل للمتقدم» [١٧٩] . ومع اتفاق المبشرين على قداسة هذه الشخصية فأنهم يناقضون بعضهم الآخر في تصوير غاياته. ولعل المبشر زويمر هو أسوأ من كتب عن ريموند لول من بين المؤرخين أو حتى المبشرين فقد صوره ميله التبشيري البروتستانتي مبشراً «بالمحبة والعلم بدلا من أسلحة الصليبيين: التعصب والسيف، لأن نصارى القرن الثالث عشر» ــ على رايه ــ «ماكانوا يحبون المسلمين بل لم يفهموا دينهم» [١٨٠] . أما زميله المبشر «اديسون» فيقول: «وفي زيارته الثانية لروما، فقد قدم ريموند لول طلباته المألوفة وهي إنشاء مدارس تبشيرية وارسال مبشرين مدربين إلا أنه أضاف طلباً جديداً له وهو تنظيم حملة صليبية عسكرية وارسالها ضد الكفار (المسلمين) في غرناطة وشمال أفريقية والأراضي المقدسة [١٨١] . وظل يدعو الى هذا طول حياته. أما ريموند لول نفسه فانه كتب حين سمع بنبأ سقوط عكا في سنة ١٢٩١م/ ٦٩٠هـ بيد المسلمين وهو في ايطاليا: «لو كان في المستطاع أن يضم الخوارج النساطرة الى الكنيسة الكاثوليكية وأن يتنصر التتار أمكن القضاء بسهولة على جميع المسلمين»(all the Saracens can easily be destroyed) واستطرد لول قائلا: «أنه مما يخيف جدا أن يقبل التتار دين محمد، لأنهم لو فعلوا ذلك، إما باختيارهم أو باغراء المسلمين لهم، فان جميع النصرانية ستكون في خطر عظيم» [١٨٢] . وقد صدق في الأولى وأخطأ في الثانية فان التتار دخلوا في الاسلام طواعية وهم حكام متسلطون فتهدم أمل البابا وحلم أوربا الكبير وتهدم معهما حلم (ريموند لول) في تنصير العالم وجعله كاثوليكياً بابوياً.

التياران اللذان حددا علاقة أوربا القرون الوسطى بالاسلام:

ان علاقة أوربا القرون الوسطى بالاسلام حددها تياران مستقلان أحيانا ومتشابكان أكثر الأحايين وكلاهما كان يهدف لتحقيق نتيجة واحدة: تنصير

المسلمين. وأولها تجلى واضحاً في الحروب الصليبية المتكررة في الأراضي المقدسة ومصر وشمال أفريقية وحروب إستعادة أسبانيا وكان دعاتها من البابوات وجيوشهم من الرهبان قد أعياهم «سر» هذا الاسلام، وراوا أن «الاسلام لايمكن أن يتسامح معه إلا إذا أسكت خاضعاً خانعاً، وأن الحل الوحيد والنهائى هو تحطيمه» (١٨٣) . وليس في الأمر غرابة لأن الكنيسة كانت تعتبر كل تسامح للآخرين هو عداء موجه اليها (١٨٤) فرأت أن العنف يسهّل تنصير هؤلاء «البرابرة». ولذا رأى الغرب المسيحي أن «استعمال العنف والابادة ضد الاسلام عمل بدهي وعادل (axiomatically just) وفي منتهى الشرعية». «ولما كان انتشار الاسلام بالسيف [كما يدعى المستشرقون اليوم ايضا] فان من واجب النصارى أن يطهروا الأرض منهم. وأن المسلمين لايستأهلون حتى النقاش معهم ولكن بالأحرى يجب أن يبادوا بالنار والسيف» (١٨٥) .

والتيار الثاني اتخذ سلاح المحاورة والجدال والاقناع بالحجة النصرانية في محاولة لضم «الخراف الضالة» إلى حضن روما. بيد أن دعاة هذا التيار لم يهجروا العنف والابادة اذا استمر «الكفار» في عنادهم. و يبرز بطرس المحترم أول هؤلاء الدعاة، فقد كتب باللاتينية التي لم يكن المسلمون في اسبانيا يفهمونها، فقال لهم: «أنا اتقرب اليكم بالكلام لا بالعنف وقوة السلاح ــ كما يرى أصحابنا ــ ولكن بالعقل و بالحب لا بالكراهية». ودافعه في هذا «الحب» أنه عدّ الاسلام «ضلالة الضلالات». و بعد أكثر من ثمانية قرون من وفاة بطرس المحترم اتخذت مجموعة من الكنائس قراراً بالتبشير بين العمال المسلمين في هولندا(١٢ كانون الأول ١٩٧٧) فكتب أحد العاملين الذين اشتغلوا بالتبشير في مصر: «الحق أن جعل هؤلاء المسلمين في هولندا يشعرون بحب الجوار (حب الانسان لأخيه الانسان) المنبعث من حب الله لنا جميعا هو أحسن وأكثر ملائمة لانعكاس هذه الرسالة» (١٨٦) .

وفي ريموند (او رامون) اوف بينافورت، الذي أنشأ مدرستين لتعليم الرهبان العربية في كل من تونس ومرسية وإعدادهم مبشرين لتنصير المسلمين وبمساعدة من ملكي اراغون وقشتالة، التقى التياران ولم ينفصلا بعده. واليه تنسب القوانين الكنسية التي فرضت الموت حرقاً لمن يحكم عليه بالزندقة (١٨٧) فأحسنت محاكم الدومينيكان التفتيشية المرعبة تنفيذها. وقد أصرّ هذا على تنصير المسلمين واليهود ولكن لاباتباع العنف والقسوة بل بالعقل والاحسان غير أنه فرض على النصراني أن لايساكن مسلماً أو يهودياً ولايأكل معه ولايدعوه الى طعامه كضيف، الا أنه أباح للمبشرين أن يفعلوا ذلك حين يحملون «نور الانجيل» الى ماوراء دار النصرانية، وفرض على المسلمين واليهود في دار النصرانية أن لا يرفضوا الاستماع الى تبشير المبشرين في جوامعهم (١٨٨) . ونحن واجدون غير هذا عند اوليفر اوف بادابورن حين كتب: أن الكنيسة تفضل سيف الكلمة بديلا عن السيف ولكن إذا وجدت أن هذا لاينفع فإنها تسمح باستعمال السيف ضد الاسلام، للدفاع عن النصرانية: "et iuris sui" ، والكنيسة لها الحق بل إنه لواجب عليها، أن تستعمل السلاحين (١٨٩) . ولعل الغريب في كل هذا القلق الذي اقضّ أرواح رجال الكنيسة منذ العصور الوسطى هو حيرتهم العميقة من ظهور الاسلام ومن ثم نجاحه الهائل في العالم.وبالرغم من عظم التسهيلات التي وفرها بعض حكام المسلمين للتبشير كأكبر وابنه جهانكير (١٩٠) وملوك تونس والمغرب في القرون الوسطى والدول الاستعمارية في العصر الحديث فقد فشلوا في تنصير المسلمين. وحيرتهم هذه جاءت من إيمانهم بأن النصرانية هي الدين الحق. لذلك منعهم من أن يحاولوا أن يفهموا السرّ العميق في ظهور الاسلام بعد المسيحية «الالهية» ولما تمض ستة قرون، فقادتهم هذه الحيرة الى وصف الاسلام بـ«اللغز» أو «لغز الالغاز» (١٩١) . وقد كان حل هذا اللغز وتمزيقه حلم الكنيسة ورجالها منذ أن بدأت حركات الزندقة في «لانكودوك» بجنوب فرنسا تذر قرنها وتدعو الى نبذ سلطة الكنيسة ورجالها ومنذ أن شعرت الكنيسة الكاثوليكية أن فساد رجال «الاكليريوس» من اتباعها وتأثير الاسلام بحكم الجوار مع

أسبانيا المسلمة قد سببا في ظهور الزندقة، بدأت تنظر الى الاسلام نظرتها لعدو مرعب. وقد زاد في هذا الرعب إقبال أوربا القرون الوسطى على الفلسفة الرشدية ومن ثم اتخاذها كسلاح عقلي للخروج عليها وللتمرد على سلطتها، حتى «أصبح أسم ابن رشد مرادفا للالحاد والزندقة». ولهذا فان عظمة «توماس الاكويني» وشهرته لم تكن لأنه تعلم أصول التوفيق بين الكنيسة والفلسفة من ابن رشد بل لأنه أهانه وأذله(١٩٢) . وقد تجلت هذه الحيرة أيضاً عند «ريموند لول» الذي حيره عناد المسلمين فقال: «حتى أولئك الذين لايؤمنون بدينهم من المسلمين لم يكونوا راغبين لتقبل الحقيقة النصرانية» (١٩٣) . وقد ظن «لول» أن تعلم العربية فقط كان كافياً لتنصير المسلمين وأن اكتساب هذه اللغة كان سهلاً (١٩٤) . وقد فعل. فانه تعلم العربية من اسير مسلم اشتراه. فكان الأسير و«لول» يعيشان و يدرسان معاً لسنوات تسع. وحدث مرة أن الأسير«سب اسم المسيح المقدس»، كما يروي مؤرخ «لول»، حين كان لول غائباً. وعلق المؤرخ «نورمان» على هذه الحكاية بقوله: «ولو قبلنا هذه الرواية فان هذا السب الذي بني على تقولات النقل لايخرج عن أحد تعابير التقوى والاحترام الاسلامية للمسيح كنبي». ولما قيل للول: أن الأسير قد جدف في المسيح استشاط غضباً وانهال على مملوكه المسلم ضرباً على كل جزء من جسده. وفي هذه الرواية أيضا: أن الاسير حاول قتل «لول» فأودع في السجن موثوقا. و بعد ثلاثة أيام قيل له: أن السجين صلب نفسه بحبل وثاقه، فأحس لول بالراحة الروحية لأنه تخلص من مشكلة لم يعرف لها حلاً ولم تسعفه صلواته في الكنيسة لالهامه بالحل(١٩٥) . و يستطرد «نورمان دانيال» قائلا: «ان هذه الحكاية تمثل موقفاً عاماً وهو أن الاسلام لايمكن أن يتسامح معه الا اذا سكت خاضعا، وأن الحل النهائي له هو تحطيمه»(١٩٦) . والظاهر أن هذا الخضوع لايمكن أن يتحقق الابمقارعة اتباعه بأسلحتهم ولايتحقق ذلك الا بدراسة مصادر الاسلام الشرعية والتاريخية ومعرفة طرائق حججهم الجدلية، وهذا ايضا لايتحقق من المترجمات اللاتينية ولكن بتعلم العربية وتعليمها: وهذا ما فعله «ريموند لول» أول مستشرق فعلي. والظاهر أيضا أن لول

استوحى فكرة المدارس من «ريموند اوف بينافورت» الذي عاصره. فقد اقترح على المجمع الدومينيكاني الأسباني الذي انعقد بطليطلة في ١٢٥٠/٦٤٨هـ وبعدها بتسع سنين في بلنسية، تدريس اللغات الشرقية (العربية والعبرية والسريانية) (١٩٧) . وقد رأينا أن ريموند اوف بينافورت نفسه قد أنشأ واحدة بتونس بحكم صداقته لأمير تونس والاخرى في مرسية. وقيل: انه انشأ مدرسة ثالثة في برشلونة (١٩٨) . وقد تبع لول خطى أستاذه فأنشأ مدرسة لتعليم العربية في ميرامار وتبعه راهب آخر هو خوان بوكفيتوس فأنشأ مدرسة أخرى في بلنسية وتبعتها مدرسة للعبرية والعربية في شاطبة ولم تقتصر الدعوة الى إنشاء مدارس لتعليم العربية على لول ومن سبقه بل إن الفيلسوف «روجر بيكون» وجه رسالة (سنة ١٢٦٦) الى البابا ضمنها دعوته الى:

١) وجوب إدخال اللغات الأجنبية وخاصة العربية في مناهج الدراسات الجامعية وذلك كوسيلة للتبشير ضد الاسلام.
٢) دراسة أحوال من يراد هدايتهم وذلك لمعرفة المسارب التي يمكن منها النفاذ الى عقيدة المسلمين لهدمها وتقويضها.

من هذا يظهر أن الاستشراق الأوربي الفعلي بدأ تبشيرياً محضاً واستمر يحمل هذه السمات عند الكثير من المستشرقين ومن تبعهم من المبشرين حتى اليوم.

أراد «لول» الكاثوليكية للمسلمين وأراد في الوقت نفسه الفهم للكاثوليك وقد شغلت إرادته الأولى جميع عقله وملكت عليه مشاعره ورأى في عناد المسلمين عقبة كؤودا في سبيل تكثلك العالم كله «فاذا تنصر المسلمون سيصبح تنصير بقية العالم أمراً سهلا. ولذلك فانه واجب على الكل، من البابا وأمراء النصرانية والى الأدنى أن يبعثوا برسلهم الى المسلمين، ويتناقشوا معهم ويجادلوهم ببسالة. وهذا ميسور بتعلم لغة الوثنيين، ومع الشجاعة والاحتمال فإن المبشرين سيقدمون حججاً جديدة على تفوق

(*) Southern R. W., P. 56 - 7

دينهم واستعلائه على غيره من الأديان»[١٩٩] . وأراد «لول» للكاثوليك الفهم «لأن هناك أموراً لايستطيع النصراني فهمها ولكن يجب عليه أن يؤمن بأنها صحيحة، ولاحاجة له الى معونة العقل»[٢٠٠] . فقد أدرك حماة الكثلكة في العصور الوسطى أن التعقيد العقائدي الذي تراكم عبر القرون في النصرانية الغربية نتيجة للاصدارات التفسيرية البابوية الهائلة لمسائل عقائدية قد خلق سداً كثيفاً بين الكنيسة والجمهور. ثم ان اصرار الكنيسة على سلطتها المطلقة في التشريع وفرض هذا التشريع بالاكراه قد سبب تمرداً عنيفاً وانشقاقات لاهوتية لاحصر لها سواء بين رجال اللاهوت أنفسهم أو الرهبان، فعمد هؤلاء الحماة من أمثال بطرس المحترم و«برنارد» و«ريموند اوف بينافورت» و«ريموند مارتيني» و«لول» ومئات آخرين إلى التأكيد على: «أن العقائد النصرانية إذا كانت محالة في نظر العقل متعذرا إدراكها فإنها قد تكون صحيحة من وجهة نظر أخرى»[٢٠١] لأن «الايمان هو أسمى في هذا العالم من الفهم لأن الانسان يستطيع من خلال الايمان أن يحب الله وباستعداد أكثر من معرفته من خلال الفهم، ومن خلال الايمان تستطيع أن تفهم في العالم الآخر مالم تستطعه الآن»[٢٠٢] . وقصدهم من كل ذلك التسليم لآوامر الكنيسة وإماتة روح التطلع والفهم بيد أن هذا التطلع وهذا التعطش للفهم وفرته الرشدية فاستحق ابن رشد لذلك لعنة الكنيسة وحماتها فأدخل الإسلام طرفاً في شخص ابن رشد فى النزاع بين الرشدية والكاثوليكية وأصبحت الرشدية عند «توماس الاكويني» و«ريموند مارتيني» و«ريموند لول» وأمثالهم تعني الاسلام فتحول الدفاع الجدلي الذي رأيناه عند باسكال وريكولدو الى هجوم وحط وتفنيد. ففي كتاب للول لتفنيد بعض أخطاء ابن رشد ــ كتبه في ١٣١٠/٧١٠هـ ــ كتب معنفاً وزاجراً أولئك المسيحيين الذين ينقادون لابن رشد «إن ابن رشد كان مسلما ولما كنت اكتب للافهام وآباء الكنيسة يكتبون لغرض الدين، فإن ابن رشد لم يكن أحسن علماً أو معرفة. وأن أولئك الذين يدعون أنفسهم نصارى ثم يتبعون أراءه لأمر غير معقول»[٢٠٣] والامر على مايظهر في كلا الحالين ــ الدفاع

الجدلي والتفنيد والهجوم ـ كان لتزويد النصارى بالحجج حتى يستطيعوا المحافظة على موقفهم ضد الاسلام ومن ثم فإن الحجج التي كان لول مغرما باختلاقها على ألسنة المسلمين الذين تجادل معهم في أكثر كتبه على شكل محاورات، إنما هي أجوبة يود «هؤلاء الكتاب أن يسمعوها من المسلمين» (٢٠٤) . لقد ادعى لول في عدد كبير من كتبه أنه في الواقع تجادل وتناقش بصورة علنية مع علماء المسلمين أثناء رحلاته الى بجاية وتونس، بل انه أهدى أحد كتبه الى مفتي تونس (٢٠٥) غير أن الاختلاق والخيال، واحياناً الكذب المغلف بالصلوات الكثار توحي أن الكاتب كان يود أن يكون الأمر كما اشتهى لأن «القابلية على خداع النفس» ـ كما يقول نورمان دانيال ـ عند هؤلاء الكتاب كانت بلا نهاية، فكان لول ومن سبقه مدمنين على حججهم في التثليث ولذلك لم يعتورهم الشك قط في أن حججهم غير مقنعة لغير النصارى» (٢٠٦) «لأن هذه الحجج التي أعدها لول للعوام من النصارى ضد الاسلام لم تكن مفهومة لهم حتى يستطيعوا إستخدامها، وليس لدينا أي سبب يدفعنا الى الظن أن أحداً استخدم هذه الحجج اطلاقاً» (٢٠٧) .

لقد كرس لول جميع حياته لانتزاع الأماكن المقدسة وتنصير اليهود والمسلمين وايجاد أسلوب جدلي واقعي للبرهنة على صحة النصرانية الكاثوليكية والقضاء على الرشدية التي رأى فيها أكبر عدو (٢٠٨) للنصرانية. ولاجل الوصول الى كل هذه فقد أعد لول تقريراً شاملاً يحتوى على مخططه في تتنظيم حملة عسكرية صليبية الى جنوب أسبانيا وغرناطة ومنها الى تونس وشمال أفريقية ومصر ومن ثم فلسطين ويحتوى أيضا على اقتراح بانشاء مدارس لتعليم العربية والعبرية والسريانية في كل من روما وباريس وطليطلة حتى يستطيع المتخرجون فيها إيصال «نور الإنجيل» إلى العالم بأسره أما الرشدية فانه اقترح أن تحرم دراسة الفلسفة التي تتعارض والعقيدة النصرانية (٢٠٩) ، وقد قدم لول هذا التقرير الى المجمع الكنسي الذي انعقد برئاسة البابا «كليمان الخامس» في فينا سنة ١٣١١/٧١١هـ. ومع كل

الجهـود الـواسـعـة الـتـي بـذلها لول فإن نتائجها كانت ضئيلة فإن «الرشدية استـمـرت فـي الـقـوة وإن أمـراء النصرانية لم يستجيبوا لتنظيم حرب صليبية جديـدة، وإن تـنـصير اليهود والمسلمين لم ينل نجاحا. وكل مااستطاعت جهود لـول تحـقـيـقـه هو إنشاء مدرسة في ميورقة وأخرى في صقلية وإرساء القواعد لايجـاد مدارس أخرى في باريس و بولونا وأفنيون وأكسفورد وسلامنكا والتي أوصـى مجـمـع فينا بانشائها [٢١٠] . وقد أنشئت بعض هذه المدارس فعلا فيما بـعـد لـتـكـون مـراكـز للاستشراق الفعلي. وفي هذه المدارس ومثيلاتها تخرج المستشرقون الأوائل.

الفصل الثالث

الإستشراق في هولندا

لقد تناول الحديث عن الاستشراق في هولندا بعض الهولنديين أنفسهم مثل السيدة «يانبول» [٢١١] و«فوخل» [٢١٢] و«پاپير» [٢١٣] وأخيراً صدر كتاب «لبروخمان» بالاشتراك مع «شرودر» [٢١٤] باللغة الانكليزية والعربية معاً وطبع في لايدن ومن ثم وزع مجاناً في مصر وغيرها. والظاهر أن هذا الكتاب قد كتب للرد على كتاب **الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** للدكتور محمد البهي المطبوع مرارا. والكتاب بعد هذا جيد في معلوماته إلا أنه لا جديد فيه يعيننا على اتخاذ موقف مغاير لآراء الدكتور البهي لشيوع المغالطات التاريخية فيه، ومن ثمّ فان عنصر التبرير لم يعدم مكاناً واسعاً فيه وبخاصة تبرير المؤلفين لأنشطة المستشرقين الهولنديين في الاستعمار والتنصير. وهناك دراسات استشراقية أخرى تضمنت فيما تضمنت الحديث عن الاستشراق في هولندا مثل دراسة المستشرق الألماني «فوك» [٢١٥] والفصل الذي كتبه «نجيب العقيقي» في كتابه: «المستشرقون» [٢١٦]. إضافة الى كل ذلك الدراسات المنفردة، أو تراجم بعض المتشرقين لزملائهم في الكثير من الدوريات والحوليات أو «كتب التذكار». ففي كل ذلك معلومات كثيرة وفوائد وفيرة.

قد نتجنى كثيراً على التاريخ إذا راينا هولندا منعزلة عن تيارات القرون الوسطى ومفاهيمها عن الاسلام، وقد نتجنى أيضا إذا قلنا أن بداية الاستشراق في هولندا لم تكن مدفوعة بروح التبشير. وقد نتجني على التاريخ إذا لم نقل ان الاستشراق في هولندا قد اتسم في بدايته بروح فيها شيء من العلم بيد أنها مشوبة بالكثير من مفاهيم القرون الوسطى البغيضة، والأمر في كل ذلك لايخرج عن أن هولندا كانت تدور في الفلك البابوي الكاثوليكي حين كانت جزءاً صغيراً من الأمبراطوريات الأوربية التي تعاقبت على حكمها وهي بعد لم تعرف بشخصيتها الحالية إلا حين استطاعت أن تتحرر من حكم الأمبراطورية الأسبانية تماماً في سنة ١٦٤٨/١٠٥٨هـ

بعد حروب استمرت ثمانين عاماً فتأسست أول جامعة فيها في سنة ١٥٧٤ بمدينة لايدن بعد تحريرها من الحكم الأسباني . وفي هذه الجامعة بالذات بدأ الاستشراق الهولندي وتبعتها بقية الجامعات التي انشئت فيما بعد كجامعة امستردام الحكومية واترخت وجامعة امستردام الحرة البروتستانتية ونايميخن الكاثوليكية وخرونكن وتبع كل ذلك معاهد مختلفة للاستشراق بفروعه وضروبه في هذه الجامعات وأحياناً خارجها في المعاهد التابعة للكنائس المختلفة.

إن العدل يفترض فينا أيضاً أن ننظر إلى الاستشراق الهولندي ظاهرةً متكاملةً في أكثر الوجوه ومتباينة في بعضها الآخر. فكما كان بين المستشرقين الهولنديين من بلغ به الهوس التبشيري حد السفه مثل هندريك كريمر (المتوفى سنة ١٩٦٦) كان بينهم من بلغ ذروة التفاني في نشر النصوص العربية مثل دي خويه (المتوفي ١٩٠٩). وبين هذا وذاك تقع الكثرة الكاثرة من المستشرقين الهولنديين الذين نعرف العديد من أسمائهم والكثير من دراساتهم وتحقيقاتهم أمثال «دوزي» و«فنسك» و«منسك» و«هوتسما» و«دي يونك» و«دي بور» والعديد أيضا ممن لايعرفون وراء حدود بلدهم. ومن هذه الكثرة يبرز «كرستيان سنوك هورخرونيه» وهو أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وأندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين. وقد «عُدَّ عميد العربية بعد كولدزيهر وفي طليعة رواد الفقه الاسلامي والاصول والحديث في أوربا» (٢١٧) . وبالرغم من مسحة الغلو في هذا القول العام فإنَّ أثر «كريستان سنوك هورخرونيه» على الاستشراق الهولندي كان شاملا وعميقاً حتى يومنا هذا. وعمق هذا الأثر وشموله يتجلى في مكانته بين المستشرقين الهولنديين اليوم وطموحهم العميق في تقليده ومحاكاة نفسيته بل وحتى نشاطاته التنكرية.

قلت: ان الاستشراق الهولندي ظاهرة متكاملة في أكثر الوجوه ومتباينة في بعضها الآخر لأنها لاتنفصل عن النشاط الفكري الاستشراقي الأوربي ككل وتختلف عنه بشيء من الموضوعية والجدة المغلفة بروح البحث عن

الحقيقة والاصالة، بيد أن هذه الروح ماتزال خاضعة بصورة لاشعورية لأحكام القرون الوسطى في أحسن أحوالها، والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصى ولكنني اكتفي هنا بجزء قليل من محاضرة لاستاذ معاصر كان قد عاش في القاهرة سنين طويلة، ألقاها في الجمعية الشرقية بلايدن سنة ١٩٦٩ فقال:

إن «معلومات محمد، في بداية دعوته، عن المسيحية كما يبدو كانت ناقصة وذلك لأن الجزيرة العربية كانت معزولة تماماً في بداية القرن السابع. ومن المحتمل أنه كان هناك في شمال هذه الجزيرة الكبيرة وفي جنوبها بعض من استطاع المبشرون النصارى تنصيرهم بيد أنه لم يكن فى زمن محمد الا عدد ضئيل من النصارى».

وقد عزز هذا الرأي باقتباس رأي «مونتكومري واط» الذي افترض بناءاً على وجود بلال الحبشي: «أنه كان في زمن النبي عدد من الرقيق الأحباش النصارى الذين لم يكونوا يستطيعون اخبار النبي الا قليلاً من محتويات دينهم». واقتبس هذا الاستاذ قول المستشرق «تور اندريه» الذى افترض هو الآخر: «أن النبي كان قد سمع خطبة تبشيرية (من احد القسس) إلا أنه لم يفهم منها إلا أجزاء وفهم البعض الآخر فهماً خاطئاً تسرب الى تعاليمه بل وربما حصل على معلومات من مملوكه وابنه بالتبني زيد الذي كان أصله من دومة الجندل السورية التي أكثر سكانها نصارى والذي كان ولابدَّ قد احتفظ بشيء من عقيدة المحيط الذى قضى زمن يفاعته فيه». واستطرد هذا الاستاذ فى محاضرته قائلا: «ومحمد على أية حال لم يصر نصرانياً والسبب كما يبدو يعود الى نقص إتصالاته (بالنصرانية) والى شخصيته أيضا. وفي أول مراحل دعوته فاننا لانجد أية عداوة للنصرانية ولكنه بعد ذلك أدرك مدى التناقض بين تصوراته وبين النصرانية». وقد قال هذا الاستاذ فى أول محاضرته: «ولم يزل الفهم بعد قليلاً بين النصارى والمسلمين لدين بعضهم البعض» [٢١٨] . وأشار هذا الاستاذ الى سماحة الاسلام وتساءل: كيف يمكن أن نعلل وجود أقليات نصرانية كبيرة بين أكثرية مسلمة في العالم العربي؟

التيارات الاستشراقية في هولندا

لقد تحكم في الاستشراق الأوربي ككل والهولندي كجزء تياران: تيار يحمل مفاهيم القرون الوسطى بكل سماجتها وتعصبها الجاهل البغيض، وتيار اتخذ صبغة العلمية «الاكاديمية» التي تمردت على بعض مفاهيم القرون الوسطى حول الاسلام وتراثه وتمثل في بعض الكتاب الذين حاولوا وبادراك أن يتحرروا من التقليد اللاشعورى للقرون الوسطى إلا أن الكثير منهم لم يكن ناجحاً عموماً في محاولته.

وهناك تيار جديد بدأ في السنين القليلة الماضية اتخذ الموضوعية الصرفة في دراسة الاسلام وهو يتمثل في عدد من المستشرقين الشباب الذين تمردوا على التقليد وأنفوا من الانقياد الى التبعية. ويلقى أصحاب هذا التيار معارضة شديدة من المستشرقين التقليديين. وهذا لايثير الدهشة اطلاقا لأن المتعود على مجموعة من المفاهيم يعزّ عليه أن يراها تتزعزع في الوقت الذي يحسّ أن مكانته الرأسية على علمه الببغاوي بدأت تضمحل وتنفشّ. والغريب أن العرب والمسلمين قد ساعدوا على بعث الغرور الفارغ عند بعض المستشرقين المقلدين لشعورهم العميق بالتقدير للصعاب التي يلقاها المستشرق المهتم بلغتهم أو تراثهم، فتراهم يكيلون المديح له والثناء الجم لجهوده، ويسارعون لمساعدته، وحتى ضمه لمجامعهم ودعوته الى مؤتمراتهم، ويترجمون مايكتب، ولو كان كفراً، وكل ذلك نابع من مبدأهم في الشكر وعرفان الجميل(*). بيد أن هذا الشكر وعرفان الجميل يفسر كثيراً بالتملق، ولايخلو من الشك عند الكثير من هؤلاء وقد سمعت بأذني أحد هؤلاء في

(*) صرح استاذ كرسي الاسلام يان بوليون في محاضرة عامة، فى نهاية سنة ١٩٨٠ فى مبنى جامعة لايدن أن المسلمين لم يعودوا يدعون المستشرقين إلى مؤتمراتهم. وحبذا لو لام هذا المستشرق جمعية المستشرقين الأوربيين الذين قرروا في مؤتمرهم الاستشراقي في باريس في شهر تموز سنة ١٩٧٣ استبعاد العرب والمسلمين من مؤتمرهم على الرغم من اعتراض الدكتور عبد الرحمن بدوي وانتقاده لهذا الاقتراح في المؤتمر.

دعوة في احدى السفارات الاسلامية يقول لصاحبه: «يدعونني وهم يظنون بأنني سأمدح دينهم»، وقد كان ثملاً من خمر السفارة «الاسلامية» في لاهاي.

ان المستشرق المقلد يرى نفسه بطلاً عالماً يعمل على انقاذ التراث الشرقي من الضياع والدثور [٢١٩] وتقديمه مفسراً ومدروساً لأهله الذين لايفهمون منه شيئا. ولم لا؟ وهو المؤهل الوحيد على اكتشافه لهم وإرساء قواعده، وماعلى الشرقيين إلا قبول أحكامه، فأصابه الغرور وساهمت المفاهيم الاستعلائية المتراكمة على تكثيف هذا الميل النفسي ولذلك لم أعجب حين قال لي أحد المستعربين الصغار: «العرب لايعرفون العربية». وقد صدق في نفسه ولنفسه، ولم لا: وهو يكلم عربياً بالهولندية. وهذا المستعرب الصغير لم يخرج عن التقليد الاستشراقي الأوربي الذي وصفه «أدورد سعيد» بـ«**الاستشراق التمثيلي**»: الذي يرى أن الشرق لايستطيع أن يمثل نفسه بل يحتاج الى من يمثله [٢٢٠]، فرأى هذا المستعرب نفسه قادراً على أن يمثل الشرق بلغته وتراثه وحتى دينه. وهو بعد هذا مقلد حريص مخلص في تقليده لأن الخروج على التقليد والنسخ ــ عنده ــ بدعة. وهذا أمر طبيعي إذا أدركنا أن الانسان بطبيعته مشدود بوعي منه أو غفلة الى تقاليد بيئته وتصوراتها الموروثة أو المكتسبة. وفي هذه التصورات تبرز مفاهيم القرون الوسطى فتشده دون شعوره إليها في إصدار أحكامه وصياغة آرائه وهو مدرك أن «الأعور في بلد العميان ملك البصراء»(*).

مصطلح الاستشراق

إن الاستشراق مصطلح في غاية الغموض والابهام لأن «الشرق» هو اصطلاح ابتدعته أوربا لكل أرض تقع وراء حدودها شرقاً الى اليابان بيد أن هذا المصطلح بدأ يتزحزح عبر القرون ليقتصر في مفهومه العام والغامض

(*) هذا مثل هولندي مشهور.

أيضاعلى الشرق الأوسط ومافي هذا الشرق من أديان (عداالنصرانية لأن الفكر الأوربي لايحب ربطها بالشرق) وثقافات أوحضارات مختلفة. والباحث في أي فرع من فروع المعرفة التي تتعلق بقريب أو بعيد بهذا الشرق يسمى«مستشرق». وبالرغم من رفض الكثير من هؤلاء لهذا المصطلح واصرارهم على تسميات الاختصاص **Islamologist, Arabist, Indologist etc.** في عصر الاختصاص، فإن المصطلح مايزال متداولاً ومصطنعاً مع كل العلامات الفارقة المعروفة. ودلالة المصطلح عند العرب أو عند المسلمين لاتخرج من مفهوم «دراسة الاسلام ديناً ومايتبعه من لغات أهله وتواريخهم ومظاهر حضاراتهم». ولهذا راى «بايبر» في «الكاردينال اوليفر فان كولون» أول مستشرق هولندي لاهتمامه الخاص بالاسلام كما يبدو في كتابه «**تاريخ دمياط**» ، وذلك لأنه اشترك فعلاً في سنة ١٢١٨/٦١٨هـ في حصار دمياط، وفي الرسائل التي كتبها إلى السلطان الأيوبي الملك الكامل وإلى علماء الدين في مصر [٢٢١] باللاتينية إبّان الحملة الصليبية الخامسة. ولم تتميز كتابات القرون التى تلت إلا بكونها استمراراً وتكراراً لكل المفاهيم السمجة التي كانت سائدة في أوربا جميعها.

دوافع الإستشراق

ولما انشئت جامعة لايدن بدا مايسمى بـ«الدراسة العلمية» للغات الشرقية وفي الأخص العربية وآدابها ــ على رأي بايبر [٢٢٢] . وقد تحكمت فى الدراسات الشرقية دوافع ثلاثة:

(أ) دافع علمي صرف (ب)فائدة اللغة العربية في علاقات هولندا (باختلاف ضروبها) باقطار البحر الأبيض المتوسط (الاسلامية) (جـ) الدفاع عن النصرانية ونشرها بين المسلمين [٢٢٣] . ولم تزل هذه الدوافع مجتمعة ومنفردة الأساس الذى يقوم عليه الاستشراق الهولندي عامة. وانك لواجد في الماضي والحاضر من يمثل هذا الدافع أو ذاك أو من يجمع بينها في كتاباته كما فعل كريستيان سنوك هورخرونيه (المتوفى فى سنة ١٩٣٦) الذى أراد أن يُري المسلمين: كيف ينبغي أن يكون المسلم» [٢٢٤] ، فقلده المستعرب

الصغير في قوله: «أن العرب لايعرفون العربية»، لأنه أراد أن يريني كيف ينبغي أن أتكلم العربية كما رأى من قبل «عميد العربية ورائد الفقه الاسلامي في أوربا» أنه مؤهل لأن يرى المسلم كيف ينبغي أن يكون مسلماً. ومن هذا الدافع تقمص «سنوك هورخرونيه» شخصية كاتب من جاوه وبدأ يرى المسلمين في جاوه كيف ينبغي أن يكونوا؛ في سلسلة مقالات أبدى فيها «سنوك هورخرونيه» الوجه الاستعماري «التمثيلي» سافراً: «لم ألق إلا فى النادر أناسا من أهل بلدنا من كان يرى أننا جديرون بأن نتخلص من وصاية الأوربيين التي فرضها الله علينا» (٢٢٥). ولابد أنه لم ينس أن يؤكد: أن الاستعمار الهولندي هو قضاء وقدر ويجب التسليم به. وليس عبثاً أن يعد كريستان سنوك هورخرونيه رائد الفقه الاسلامي والأصول والحديث في أوربا لأنه لم يترك أية مناسبة في كتاباته دون أن يؤكد على أن الشريعة الاسلامية المستندة على القرآن والسنة موجودة فى الكتب النظرية أما عملياً فانها لاتصلح لاقامة نظام سياسي يقوم عليها فانكر ولج في انكار الدور السياسي للقرآن والسنة لأن خطته الكبرى كانت تدور على ربط المستعمرات الهولندية في أندونيسيا بروابط ثقافية (اوربية) بهولندا فتسلب هذه الوحدة «كل خلاف ديني من أهميته السياسية والاجتماعية» (٢٢٦). وقصد «سنوك هورخرونيه» إبدال الاسلام بثقافة أوربية وعندها تَسْهُلُ التبعية السياسية والدينية.

"to bring about a cultural unity strong enough to 'void the difference of religious denomination from its political and social signifcance' ".

وهذا الانكار لدور الشريعة السياسي والثقافي نراه واضح المعالم في كتابات بعض المستشرقين الهولنديين منذ أن توفي «سنوك هورخرونيه» والى الان. وهذا النوع من التأثير الذي أرسى «سنوك هورخرونيه» قواعده يحتاج الى دراسة مفردة موسعة، ولكنني سأكتفي بالقليل جداً من الأمثلة. ففي مقال لاستاذ كرسي الاسلام في جامعة لايدن: «يان باليون»، عن مميزات الاسلام في شبه القارة الهندية، حاول جاهداً أن يثبت أن الشريعة وأحكام القرآن لا يوافقان تطورات العصر الحاضر وهما لذلك يجب أن يبدلا. وقد أكد

هذا القسيس المبشر سابقاً: «أن التغيير في الأوضاع الاجتماعية وتأثير الثقافة الغربية والصلات التجارية مع الأوربيين اقتضت التنقيح واعادة النظر في الشريعة الاسلامية» وطالب مع آصف فيضي الاسماعيلي بالعلمانية و«الحرية من الدين» لضمان حرية الرأي والاعتقاد(٢٢٧). وفي مقالات ثلاث أظهرت بوضوح أن هذا الاستاذ ضحل في علمه ومعرفته باللغة العربية لغةً وجاهل بالاسلام والشريعة ديناً(٢٢٨).

ولما فقدت هولندا مستعمراتها في جنوب شرق آسيا وسقطت معها نظرية «سنوك هورخرونيه» في الوحدة الروحية والثقافية و le desir d'etre ensemble (الرغبة في العيش معا) والرضا بحكم الهولنديين، لم يهجر بعض المستشرقين الهولنديين نظرية «سنوك هورخرونيه» في الشريعة الاسلامية. ففي رسالة قدمها «يان بروخمان» (أستاذ العربية الآن) لنيل الدكتوراه ونشرت في سنة ١٩٦٠ بالهولندية عن «مغزى الشريعة المحمدية في (حياة) مصر اليومية»(٢٢٩)، تظهر الخطوط التي رسمها «سنوك هورخرونيه» واضحة المعالم وعميقة الآثار. والكاتب يتعامل مع بلد لم ير حكماً إسلامياً في الفترة التي درسها لذلك فان دراسة مغزى الشريعة فيه ناقصة المغزى.

كرستيان سنوك هورخرونيه ودراسة الشريعة

لم تكن دراسة الشريعة عند «سنوك هورخرونيه» إلاّ لأغراض عملية، وهذه الاغراض العملية تعني استخدام الشريعة لغرض الاستعمار والسيطرة فقد كتب «سنوك هورخرونيه» في التعريف بكتاب سخاو في سنة ١٨٩٩: «الشريعة في وضعها العملي كان عليها أن تقدم تنازلات هائلة لعرف وتقاليد الناس واستبداد حكامهم. ومع هذا فقد احتفظت بتأثير واسع المدى على حياة المسلمين الفكرية، لذلك كانت ولم تزل لنا أيضاً موضوعاً مهماً للدراسة، لا لمجرد الأسباب المتعلقة بتاريخ الشريعة والحضارة والدين ولكن لأغراض عملية. وكلما ازدادت صلات أوربا الودية مع الشرق الاسلامي

ازداد معها وقوع الاقطار الاسلامية تحت سيطرة أوربا كلما أصبح الأمر مهما لنا ــ نحن الأوربيين ــ أن نكون على معرفة بالحياة الفكرية ومفاهيم الاسلام وشريعته الدينية». وعلق «ادورد سعيد» قائلاً: عند «سنوك هورخرونيه» ان معرفة الشرق إما تزيد أو تحقق أو تعمق الخلاف الذي بواسطته تستطيع السيادة الأوربية أن تمتد على آسيا»[٢٣٠] . وفي تقرير «أجي» (غير المنشور) الذي كتبه «سنوك هورخرونيه» حث الحكومة الهولندية على استعباد أقليم «أجي» لأن احتلاله «سوف يزيل من الوسط الاسلامي كراهية كل شيء غير اسلامي ومن ثم فان سكانه سوف يقبلون مايملى عليهم من المفاهيم الأوربية التي ترفع من شأنهم لأن العقيدة الاسلامية تحث على كراهة الكافر لتعصبها». وفي مكان آخر قال: «إن الشريعة الاسلامية هي شريعة مثالية توجد فى المدارس فقط وليس لها تأثير في الحياة العامة».

ولد كريستيان «سنوك هورخرونيه» لأب قسيس في سنة ١٨٥٧ ودرس اللاهوت على أستاذ التوراة كونن ثم بدأ دراسته للعربية والاسلام على «دي خوية» وتخرج عليه في رسالته عن «الحج الى مكة» في سنة ١٨٨٠. ولما عقد مؤتمر المستشرقين في لايدن سنة ١٨٨٣ حضره «امين المدني الحلواني» ومعه أحضر مجموعة نفيسة من المخطوطات فباعها من برل واشترت جامعة برنستون بأمريكا قسماً منها والقسم الآخر اشترته جامعة لايدن. وفي المؤتمر تعرف عليه «سنوك هورخرونيه». ولما نشر «أمين المدني» انطباعاته عن المؤتمر سارع سنوك فترجمها عن جريدة البرهان القاهرية. ويظهر أن «أمين ابن حسن حلواني المدني» سافر الى الهند بعد انتهاء المؤتمر حيث عمل هناك على طبع كتاب **«القرب في محبة العرب»** لعبد الرحيم العراقي (شهر صفر ١٣٠٢ هجرية/١٨٨٤) وقد وصف نفسه بـ«المدرس بالروضة المطهرة». وبعد انتهاء المؤتمر الاستشراقي بسنة سافر «سنوك هروخرونيه» بصحبة القنصل الهولندي «كراوت» الى جدة. والسؤال الذي يبرز: هل من علاقة بين تعرف «سنوك هورخرونيه» على «أمين المدني» وبين رحلة

«سنوك هورخرونيه» الى جدة ومن ثم اظهاره الاسلام ودخوله الى مكة المكرمة؟.

ان اكثر المراسلات الشخصية الخاصة بعلاقاته ماتزال مقفلة للباحثين بموجب وصية ابنته حتى سنة ١٩٩٤ فان الاجابة عن هذا السؤال تبقى معلقة لغيرنا. ومع هذا فمن المحتمل جداً أن «أمين المدني» قد أبان الطريق لسنوك هورخرونيه لدخول مكة المكرمة. والثابت تاريخيا أن «سنوك هورخرونيه» أظهر الاسلام على رؤوس الملاء والشهود إحتيالا واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة ومن ثَمَّ في أندونيسيا طيلة حياته. وقد أخبرني ثقة من أندونيسيا أن «سنوك هورخرونيه» خدع أحد الأمراء باسلامه وتزوج ابنته وله منها أولاد أكبرهم يشغل منصباً كبيراً في الشرطة في أندونيسيا. وقد تأكدت هذه المعلومات حين قابلت حفيد سنوك شخصيا بصحبة زميلي المستشرق شورد فان كونكزفيلد في لايدن. ومما لاشك فيه أن «سنوك هورخرونيه» كان بارعاً في تمثيل الدور على زوجته وأولاده كبراعته في تمثيل الدور على الكثير من المسلمين الذين منحوه الحب فخانهم.

مكث سنوك ستة أشهر ونصف في مكة المكرمة متخذاً اسم «عبد الغفار» له. وصار يختلف الى مجالس العلماء، وشيوخ التعليم فوطد علاقاته بالكثير من علماء مكة وبالكثير من علماء «جاوة» و«سومطرة» و«اجي» ممن كان يختلف الى مكة، وخاصة شيخ مكة ومفتيها شيخ العلماء «أحمد بن زيني دحلان». ولعل هذا الشيخ الطيب قد أجازه أو زوده برسالة توصية لتتم بها خطة «سنوك هورخرونيه» في فتح السبل أمامه في أندونيسيا وخاصة في أقليم «اجي» الذي كان ثائراً على الحكم الهولندي. ووطد علاقته ايضا بحبيب عبد الرحمن الظاهر الذي يبدو أنه كان يطمح أن يسلطنه الهولنديون على أقليم «أجي» فعرض جهوده على القنصل الهولندي «كروات» وعلى «سنوك هورخرونيه» في أحسن السبل للقضاء على ثورة المسلمين في اقليم «اجي». ولاجل الوصول الى أهدافه فقد سبب هذا متاعب للحكم

الهولندي وقنع أخيرا براتب محترم يتقاضاه من القنصلية الهولندية في جدة مدى حياته. وليس عجباً أن يصم المسلمون في «اجي» حبيب عبد الرحمن الظاهر هذا وسنوك هورخرونيه بـ«الخونة» حتى يومنا هذا.

كل من كتب عن كريستيان سنوك هورخرونيه من المستشرقين الهولنديين كال له المديح وغرف له الثناء فان «دراسته الرائدة للشريعة الاسلامية ومايعنيه الاسلام في حياة أتباعه جعلته واحداً من مؤسسي علم الاسلاميات الحديث ــ كما يقول «دريفس» [٢٣١]. وقال «فرانك شرودر»: «لقد صار خبيرا بالشريعة الاسلامية: الموضوع الذي لم يدرس الا هواية، إذا درس اطلاقاً. وقد اخذ على عاتقه مهمة تصحيح الآراء الخاطئة» [٢٣٢]

وقال «فان در مولن» فيه: «أنه البطل المكافح» [٢٣٣]. وعلق هذا في محاضرة عن سنوك ألقاها صديقي «فان كوننكزفيلد» فقال: «قدم نفسه فداءاً للمسيح» إلا أن «فرانك شرودر» أدرك وبطريق ذكي أننا: «حتى ولو اعترفنا أن سنوك هورخرونيه كان يكنّ الاحترام للاسلام، فان سياسته الاسلامية كانت تعني: رفض محتوى الاسلام السياسي» [٢٣٤]: وإبداله كما أراد سنوك هورخرونيه بقوانين «العادات» كما جاء في تقرير «اجي» المشهور "Atjeh - Verslag" السيء الصيت الذى قدمه «سنوك هورخرونيه» للحكومة الهولندية «للتبرير الخلقي» للحرب الدموية [٢٣٥] التي قادها الجنرال «فان هوتس» وبارشادات سنوك هورخرونيه و«علمه العظيم وأحكامه الفائقة التي استغلت للأغراض العملية» ــ كما يقول «فوخل» [٢٣٦]. ولهذا أستحق الجنرال «هوتس» فيما استحق من الألقاب، لقب «سيف سنوك الضارب» "Snouck's slagzwaard" [٢٣٧].

لأنه أباد قرى بكامل رجالها ونسائها وأطفالها وحتى حيواناتها «الثائرة» على خطة «سنوك هورخرونيه» في : «تثقيف رعايا هولندا وربطها بروابط ثقافية لأنها أقوى من روابط الاستعمار القسري». وقد كلف تمرد هذا الاقليم الصغير حياة مائة ألف أو يزيد من سكانه لبناء مجد الشيخ عبد الغفار افندي وهولندا «فوق الجميع».

هل أسلم سنوك هورخرونيه حقا؟

يتحاشى الكثير ممن كتب عن «سنوك هورخرونيه» الاعتراف بأن «سنوك هورخرونيه» استطاع الولوج الى مكة المكرمة لأنه أعلن اسلامه رسمياً، وحاول بعضهم أن يسبغ عليه ثوب البطولات والجرأة النادرة في قدرته على التوغل الى معقل الاسلام الحصين. فيحلو لفوخل أن يقول: «وكان هدفه الحقيقي مكة نفسها: المركز الديني للعالم المحمدي. وقد نجح في سنة ١٨٨٥ في التوغل الى المدينة المقدسة حيث عاش متنكراً لمدة خمسة أشهر ونصف تحت اسم عبد الغفار» (٢٣٨) . وذكر فرانك شرودر نصف الحقيقة التاريخية حين قال: «لقد زار المدينة المقدسة كثير من المغامرين المتنكرين وبعض ذوى المعرفة بيد أن «سنوك هورخرونيه» كان بلا شك أحسنهم تجهيزاً فقد عاش حياة مسلم تحت اسم «عبد الغفار» (٢٣٩)

وقد اختلف من كتب عن «سنوك هورخرونيه» في الهدف الذي أراد تحقيقه من سفرته الى مكة المكرمة وأكد بعضهم على «دعم معرفته النظرية بالعملية» بل أنه سافر « من أجل المعرفة والتعلم»

وأخيراً ألقى المستشرق «بيتر شورد فان كونكزفيلد» محاضرة بعنوان: «سنوك هورخرونيه كما كان» في الجمعية الشرقية التي أسسها «سنوك هورخرونيه» نفسه. والجديد في هذه المحاضرة أن المحاضر اعتمد في أغلب المعلومات التي أوردها على الوثائق الرسمية وعلى بعض الرسائل التي لم تدخل في وصية ابنة «سنوك هوخرونيه» وكل هذه الوثائق لم تنشر بعد بل أنها لم تعرف قبل اكتشافه لها. وأهم هذه الرسائل رسالة أرسلها عزيز بن الشيخ الحداد الى «سنوك» رداً على رسالة منه عقيب طرد «سنوك هورخرونيه» من مكة، وقد اقتبس «سنوك هورخرونيه» الجزء الأخير المتعلق «بالورقة» وترك الاشارة الواضحة لعملية إسلامه (٢٤٠) . وهذا نصها:

الحمد لله   مكة المكرمة

إلى حضرة الحبيب الشيخ عبد الغفار السلام عليكم،

أما بعد! بلغني جوابك وفهمت مافيه. أما ماذكرت من جانب اسماعيل آغا وغيره ليس صحيح نعم ان الأمر وقع من غير شك وصار كلام عند الوالي، وأما من جانب الصدق: الوالي صدق بهذا الكلام أو كذب لانعلم. وأما ما بلغني، الوالي لاعلم له بالجريدة إلا من كتابتك له فأجابك بخبر جوابك لأن الأول لايقدر يذكره، وأما أساس السبب من الأول لأن الناس لما مات وجدوا له طريقاً للسبب بأي وجه عند الوالي وخصوصاً عند كشف أوراقه فهموها كما يشاءوا. وأن قلت: ما أجابك به هو الصدق وهو السبب: **وهذا لايكون أبداً لأنك اشهرت إسلامك وعلماء مكة يشهدون باسلامك،** واذا فعلت ذنباً يبحثون عليك ويعاقبوك ولايحكمون عليك بالخروج من مكة على حاجة لا تضر ولا تنفع الدولة العلية، والله أعلم.

أما قولك: نكتب لك ورقة ضد قونصو افرانصة: نعم الحبيب، أنت عارف لا ترضا لي بالضرر لأن دولة افرانصه ناكل منها معاشي فكيف نشهد حقاً أو باطلاً على قونصو دولة افرانصه، لكن بعد ملاقاتي مع الوالي ان سألني نخبره بما في علمي وأما الكتابة لانقدر.

والسلام ختام من كاتبه عزيز بن الشيخ الحداد
في ٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٠٢.

الواضح من هذه الرسالة أن «سنوك هورخرونيه» لم يعرف سبب طرده من مكة المكرمة لأنه على مايبدو قد ظن أن اسماعيل آغا (قاضي جدة) أو غيره قد اكتشف سره فوشى به للباشا التركي. ويظهر أيضا أن «سنوك هورخرونيه» قد كتب رسالة للوالي التركي فأجابه الوالي التركي برسالة لم يصدق «سنوك هورخرونيه» ماجاء فيها. ويظهر كذلك أن «سنوك هورخرونيه» استعلم من عزيز بن الشيخ الحداد فيما اذا كان الوالي أو غيره

يشك في إسلامه فأجابه: «وهذا لايكون ابداً لأنك اشهرت اسلامك وعلماء مكة يشهدون باسلامك». و يظهر أيضا أن كاتب الرسالة كان يعرف أن أتهام سنوك كان بسبب النقوش.

والآن ماقصة الجريدة: لقد كان في الجزيرة العربية رجلان أجنبيان أحدهما «هوبر الفرنسي» وأخر(*) يحمل اسم عبد الوهاب وقد كان هدف «هوبر الفرنسي» لايختلف كثيراً عن هدف الهولندي(*) فقد كان الفرنسي يبحث عن نقوش أثرية ليفوز بالمجد «الاكتشافي» كما فاز «شامبيليون» من قبل وحدث أن أحد أدلاء هذا الفرنسي قتله. والسبب حسب المفهوم الأوربي: «لسلب أمواله ومتاعه». أما أن يكون السبب غير هذا فلا يدخل في الحساب. وحاول القنصل الفرنسي في جدة الحصول على ماخلفه هذا الفرنسي من متاع ونقوش وجدها. وهنا بدأ الصراع على المسلوب بين فرنسا وهولندا فدار شك الفرنسيين حول «سنوك هورخرونيه» من أن له يداً في قتل الفرنسي للحصول على نقوشه وظهر هذا الاتهام في جريدة Le Temps [٢٤١] (الزمان) الفرنسية فنقلته جريدة «إستانبول» العثمانية وفيها ظهر أن هناك هولندياً تحت اسم عبد الغفار يحاول الحصول على نقوش أثرية. وبعد هذا يبدو أن الحكومة العثمانية أمرت الوالي بابعاد «سنوك هورخرونيه» دون أن تخبر واليها بالسبب لأن الوالي لم يعرف بأمر الجريدة

(*) الآخر كان ألمانيا هو او يتنك (Prof. Euting)الذي اتخذ حينذاك اسم عبد الوهاب.

(*) كان سنوك هورخرونيه يبحث عن النقوش أيضا، أنظر رسالة عثمان ابن عبد الله في آخر النص. والظاهر أن تيماء كانت مركزاً لليهودية فقد ذكرها الشماخ في احدى قصائده:

كما خط عبرانية بيمينه ... بتيماء حبرٌ ثم عرّض أسطرا

ديوانه طبعة القاهرة ص ٢٦ ونشر هذا النقش الآرامي الذي وجده هوبر في كتاب.

Travellers in Arabie, by R. Bidwel, London 1876, P. 153.

وقد نشرت مذكرات هوبر بعد وفاته بعناية رينان و باربير دي مينارد وغيرهما في:

Journal d'un voyage en Arabia (1883 - 1884), Publié par la société Asiatique et la société de Géographie sous les auspices du Ministère de l'instruction Publique, Paris 1891.

الا من رسالة سنوك نفسه. و يؤكد هذا أن القنصل الهولندي في جدة: فان در شايس P.N. van der Chijs كتب رسالة بتاريخ ٣ آب (أغسطس) ١٨٨٥ الى «سنوك هورخرونيه» (محفوظة في مكتبة جامعة لايدن) جاء فيها:

«من ضمن المعروف هنا أن جريدة «ستانبول» قد أعادت نشر التقرير (تقرير الجريدة الفرنسية)،وعلى أية حال فان اسمك الذي تبنيته حديثاً قد ذكر فقط هناك».

وفي هذه الاشارة: «فان اسمك الذي تبنيته حديثاً قد ذكر فقط هناك» تطمين «لسنوك هورخرونيه» بأن أمره لم يزل مستورا ولم يُلقَ عليه الشك؛ ودليل على أن القنصل الهولندي كان على علم باحتيال «سنوك هورخرونيه» واسلامه العلني الكاذب. وأنها تكذب دعوى خوبيه بأن العلماء اعتبروا سنوك عالما مسلما.. كما سنرى.

ومن رسالة عزيز بن الشيخ الحداد يظهر أيضا أنه كان شخصية مهمة يلتقي بالوالي العثماني و يعرف أنه لاعلم للوالي بالجريدة إلى حدّ ان «سنوك هورخرونيه» يطلب منه أن يزوده بورقة ضد القنصل الفرنسي بجدة. فلا بد أنه كان من أولئك الذين نفتهم فرنسا من شمال أفريقية لتأمن من شغبهم على استعمارها والا لم تدفع له «دولة افرانصه» معاشه؟ ولابد أن «سنوك هورخرونيه» أراد الحصول على «الورقة» من عزيز بن الشيخ الحداد لأمر في نفسه ولكن أمانات البشر وأخلاقياتهم مختلفة في معيار الشرف الإنساني.

قلت: أن «سنوك هورخرونيه» كان بارعاً في تمثيل دوره كمسلم على المسلمين وهذه البراعة لا تقل في تمثيله دوره على إخفاء إسلامه الاحتيالي على الأوربيين. ففي مقدمته لكتاب **«توصيات سنوك هورخرونيه الرسمية»** [ثلاث أجزاء] "Ambtelijke Adviezen van C. Snouck Hurgronje" الذي نشر على حساب وزارة التعليم الهولندية و بأمروزيرها، اعتمد خوبيه ناشر الكتاب وتلميذ سنوك هورخرونيه على ماكتبه سنوك في مقال نشره في جريدة "Münchener Allgemeine Zeitung" الالمانية الصادرة في

١٨٨٥/١١/١٦، بعنوان «من الجزيرة العربية»، وعلى مانشره «سنوك هورخرونيه» نفسه من معلومات في Nieuwe Rotterdamsche Courant الصادرة في روتردام في ٢٦و ١٨٨٥/١١/٢٧ بعنوان «رحلتي الى الجزيرة العربية» قال خوبيه:

"Hoe kon Snouck Hurgronje in Mekka komen? Vermomd? Neen, - tenzij men de kleding van duizenden, andere pelgrims voor hem een vermomming zou willen noemen. Want voor de ingewijden, de Turkse Gouverneur en zijn ambtenaren, de Arabische Groot - Sjerief en zijn omgeving, belangrijker nog: voor vele schriftgeleerden, was hij een Nederlands geleerd Moslim, die voor studie en tot het volbrengen van de bedevaart naar Mekka was gekómen".

وترجمة النص: «كيف استطاع «سنوك هورخرونيه» الدخول الى مكة؟ أمتنكرا؟ لا، الا اذا اعتبرنا أن ملابس الاحرام التي يلبسها آلاف الحجاج كانت وسيلة التنكر له، لأنه للمسلمين وللحاكم التركي وموظفيه ولشريف مكة العربي الكبير وحاشيته: وأهم من هذا إلى الكثير من العلماء، كان «سنوك هورخرونيه» عالماً مسلما هولندياً (بقدر مايتعلق الأمر بهم) جاء لتلقي العلم وتأدية الحج».

وهنا يستغفل «خوبيه» القارىء الهولندي ويُظهر كذلك غفلة الحاكم التركي وشريف مكة وغفلة الكثير من العلماء الذين لم يشكوا في أن سنوك جاء إلى مكة كأي مسلم يطلب العلم والحج. لأن رسالة «فان در شايس» تظهر أن سنوك تبنى اسم «عبد الغفار» حديثا لأنه لو جاء كمسلم، لجاء ومعه اسم اسلامي. وهذا الاستغفال لايحمل «خوبيه» ووزره لان «سنوك» استغفله هو الآخر كما استغفل كل قراء الجريدة الألمانية وقراء الجريدة الهولندية واستغفل فيمن استغفل حكام هولندا العامين الا اذا كانوا على علم باسلامه الاحتيالي فهم إذن شركاؤه. ومايزال الكثير من المستشرقين ينكر استغفاله. ويستطرد خوبيه:

«كيف كان ذلك مستطاعاً في مكة حيث يمنع الأوربيون الغرباء وحيث تكون حياتهم غير مضمونة اذا مادخلوا خلسة ثم اكتشفوا؟ بعد وصول سنوك هورخرونيه الى جدة: ميناء مكة بصحبة القنصل الهولندي الذى دعاه لاستصحابه، اتخذ سكناه فى القنصلية. ولما كانت العلاقات بين القنصل ووكيل النقل البحري الهولندي مع إدلاء الحجاج (المطوفين) يمكن استغلالها في دعوة بعض علماء مكة للحضور الى جدة لأن متعلماً هولندياً شاباً درس الاسلام يود مقابلتهم، فقد حدث اللقاء. وفي هذا اللقاء جرى الحديث حول بعض الموضوعات الدينية، وحيث ترك العلماء مجال الحديث لسنوك هورخرونيه للتحدث عنها وعن بعض الكتب التى أوردها نفسه في حديثه. وبعد أن تعرفوا على وجهة نظرة فى الاسلام بوضوح أعلن الزوار المكيون: أننا نشعر بأنك واحد منا. وبهذا أصبح الطريق له مفتوحا الى مكة» (٢٤٢) . والأمر لم يكن بمثل هذا الاستغفال الساذج.

تحتفظ مكتبة جامعة لايدن بدفتر مذكرات «سنوك هورخرونيه» بخط يده. وفي هذه المذكرات كتب سنوك هورخرونيه:

=) في يوم ٦ كانون الثاني ١٨٨٥ حضر الوالي من مكة الى جدة وحل في بيت وحدنه(من أثرياء جدة)

=) زارني اسماعيل آغا قاضي جدة في بيت رادن أبو بكر (حيث كنت أقيم منذ ١ كانون الثاني ١٨٨٥) في ١٦ كانون الثاني وكان بصحبته رجلان من جانب الوالي.

=) وفي اليوم التالي (١٧ كانون الثاني) جاء القاضي مع ترجمان الوالي مع آخرين لتحية سنوك هورخرونيه نيابة عن الوالي وليقولوا له: أن الباشا سوف يتشرف بزيارة «سنوك هورخرونيه» للوالي.

=) وفي يوم الأحد ١٨ كانون الثانى زار «سنوك هورخرونيه» الوالي «وكان لطيفاً جداً معي وقد دعاني لاعتبر نفسي ضيفا عليه إذا أردت السفر الى مكة».

=) وفي ٢١ كانون الثاني جاء الباشا إلى داري (دار رادن ابو بكر) لاعادة زيارتي وبعدها ذهبنا الى حديقة القنصلية لأخذ الصور.

من هذه المعلومات التي سجلها «سنوك هورخرونيه» نفسه يظهر بوضوح ان عملية إشهار إسلامه الرسمية على يد القاضي وبشهادة شاهدين جاءت بعد أن سمع القاضي رغبة سنوك في اعتناق الاسلام من فيه وبحضور شاهدين عدلين لهما صفة رسمية ايضاً فشهدا على ماسمعا وبلغا الوالي. وفي اليوم التالي مباشرة جاء القاضي مع ترجمان الوالي وآخرين للتهنئة باسلامه نيابة عن الوالي وليقولوا له: ان الوالي يتشرف بزيارة «سنوك هورخرونيه» المسلم طبعا. لأن هذا الإجلال الذي أغدقه الوالي على «سنوك هورخرو نيه» لم يكن لأنه أعجب بعلم «سنوك هورخرونيه» بالاسلام لأن الوالي لم يفهم العربية و«سنوك هورخرونيه» لم يفهم التركية فما السبب في كل هذا التشريف إذن؟ وماالسبب في زيارة قاضي جدة مع رجلين اثنين؟

أما رادن أبو بكر الذي أقام سنوك هورخرونيه في بيته بعد انتقاله من القنصلية الهولندية فقد استمر على الاتصال بسنوك هورخرونيه سنين طويلة ولابد أنه شاهد عملية اعتناق سنوك هورخرونيه الرسمية للاسلام في داره والا فمن غير المقبول عقلاً ومنطقاً أن يدعوه في رسائله: «الى الأخ في الله الشيخ المحترم الأمجد .. عبد الغفار». ومن غير المقبول عقلا لمسلم أن يكتب لنصراني: «سعادة الأديب الحميد الشيخ محبنا ومولانا الشيخ عبد الغفار سهل له مطالبه وبلغه مناه في الدارين». ومن غير المقبول إطلاقاً أن يدعوه الباشا لزيارة مكة دون أن يسمع شهادة قاضي جدة وشهادة رجاله على إسلام سنوك.

ولعل أعجب مافي علاقة رادن أبو بكر (وهو نبيل أندنوسي) بسنوك هورخرونيه أنه زوده بكل تفاصيل المعلومات عن احتفالات مكة المكرمة من زواج وأفراح وتراجم علمائها فأدخلها «سنوك هورخرونيه» في كتابه حول مكة موحياً للقارىء أنه شاهدها بنفسه وسجلها من غير أن يعترف بجميل هذا الرجل عليه بكلمة واحدة ولم يذكر أيضاً جهود السيد عبد الغفار الطبيب بمكة عندما زوده بصور كثيرة لمكة ومافيها. فنشر سنوك كلَّ هذه

الصور في "Bilder aus Mekka" في سنة ١٨٨٩، وفي الاطلس الملحق بكتابه عن مكة المكرمة "Bilderatlas" وقد فصل القول في كل ذلك صديقي المستشرق الهولندي شورد فان كوننكزفيلد فى كتابه (*). وهذه المعلومات موجودة بخط رادن أبو بكر باللغة العربية ومحفوظة مع مخطوط كتاب «سنوك هورخرونيه» عن مكة مع رسالته التى دعا فيها سنوك هورخرونيه بـ«الأخ في الله» (٢٤٣).

أن ظاهرة العقوق ونكران الجميل واغفال الاعتراف به ليست جديدة وقد أشرنا إلى وجودها عند كتاب القرون الوسطى ونؤكد على وجودها الآن، فإن «سنوك هورخونيه» لم يكن فريداً في بابه لأنهم يظنون أن مجرد الاعتراف بالجميل سوف يسلبهم شيئا من المجد في أعين أقرانهم أو أنه يعني إظهار ضعفهم في مادة علمهم.

إن أثر «سنوك هورخرونيه» لم يقتصر على الجانب العلمي (الاكاديمي) من العقلية الاستشراقية الهولندية، بل إن دوره البارع في إخفاء عملية اسلامه عليهم حفز بعضهم على تقليده في هذا الدور، لأنه حين كتب ماياتي في كتابه «**الاجين**» بالهولندية فقد أوحى لقارئه أن خداع المسلمين سهل فقال: «ليس هناك أسهل من التحول من دين الى دين كسهولته في التحول الى الاسلام. فان الفرد يستطيع أن يكون عضوا في الأمة و يبقى كذلك دون أن يكلف بتقديم إثبات واحد على اعتقاده أو على علمه بالشريعة أو على اخلاصه. ان التلفظ بكلمتي الشهادة تجعل من الانسان عضواً في الأمة المحمدية ولايحق لأحد من المسلمين أن يشك في إخلاص هذا الشهادة» (٢٤٤). وقد صدق لأن الاسلام يؤكد على حرية الضمير الخلقي الانساني في الايمان وقد كذب لأنه لم يذكّر قارئه بـ«إنَّ من غشنا ليس منا».

وهذا التقليد «لسنوك هورخرونيه» شاهدته بنفسي حين كنت في القاهرة في سنة ١٩٧٣ أثناء عملي في الاشراف على طبع تحقيقي لكتاب

(*) Snouck Hurgronje alias Abdoel Ghaffar, Leiden 1982, PP. 14 - 16.

«**الإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني**» الذي نشره المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية الكائن في الزمالك بالقاهرة وكنت مقيماً فيه مع بعض الطلبة الهولنديين الذين يأتون إلى القاهرة لتحسين لغتهم أو للاختلاف إلى دور الكتب. وحدث أن زرت أحد أكشاك الكتب القريبة من الجامع الأزهر فدار الحديث بيني وبين صاحب الكشك عن عملي فأخبرته فقال لي: أتعرف الأستاذ فريد عبد الرحمن؟ قلت: لا، قال: هو رجل هولندي مسلم. فلم أعر الأمر اهتماما. وفي يوم آخر أخذني صاحب الكشك لرؤية الشيخ عبد الحميد الشيمي لرؤية بعض المخطوطات عنده. فأخبرني عبد الحميد الشيمي نفس الحكاية عن فريد عبد الرحمن وزاد: انني رأيته يصلى هنا في بيتي وعلى سجادتي مستخدما مسبحتي في التسبيح. فقلت له: صف لي هذا الفريد، فوصفه لي باتقان ودقة فعرفت من وصفه من يعني: «الفرد دي يونك»، الطالب الهولندي الذي يكتب عن الطرق الصوفية في مصر في القرن التاسع عشر وهو يسكن معي في المعهد. ولما عدت الى المعهد وجدته في غرفة المطبخ فحدثني وحدثته وقلت له: لقد سمعت بأنك قد تحولت مسلما. فقال لي: نعم أنا مسلم وبدأ في عملية اقناعى بصدق إسلامه فقاطعته قائلا: أنا واثق كل الثقة مما تقول إذا أجبتني على سؤال واحد. قلت له: تقول أنك مسلم والمسلم يعرف اتجاه القبلة لأنها ضرورية لصلاته، وقد أخبرني الشيمي أنه رآك تصلي فقل لي في هذه الغرفة: أين اتجاه القبلة؟ فأبلس! إلا أنه أخذ سبيلا آخر لايقل في براعته عن براعة «سنوك هروخرونيه» في تمثيله فقال: أنت تعرف أن الطرق الصوفية تتكتم على أسرارها لغير المسلمين، وانني بهذه الطريقة (بادعاء الاسلام) استطيع الحصول على الكثير من أسرارهم (*). فقلت: ياهذا إن اتباع أية طريقة صوفية ليشعرون بالفخر إذا كتب أحد عن طريقتهم لأن في ذلك نوعا من الدعاية لها وأنك لو جئتهم بثوبك الحقيقي

(*) سمعت من مصادر شخصية أن هذا الرجل مايزال يمثل هذا الدور على الأتراك المسلمين في لايدن وأنه يصلي معهم في المسجد.

لما اختلفت معاملتهم لك وتزويدهم إياك بالمعلومات ولكنكم تأبون الا الحيلة. ومع كل هذا فان الطرق الصوفية ليست منظمات ماسونية سرية، لأن كل كتبها منشورة معروفة، وما لم ينشر فهو متوفر في دور الكتب، أو دور الوثائق، فما هذا الاعوجاج في الاخلاق الذي تنسبونه الى من يثق بكم؟

أما علاقة سنوك هورخرونيه بالتبشير فترجع أصولها الممتدة الى البيئة التي ولد فيها والعصر الذي عاش فيه ومن ثم درس فيه والكلية التي درس فيها. فهو ابن قسيس كان ينتمي الى الكنيسة البرتستانتية الكالفنية المعروفة بجساوة تعاليمها وتشدد لاهوتها. وبعد فقد درس اللاهوت في كلية أنشئت خصيصاً لاعداد القسس، وعاش في عصر كانت أوربا فيه مسيطرة فيما بينها على أكثر شعوب الأرض بما فيهم من المسلمين. ودرس مع من درس العربية على «دي خويه» العالم الفذ الذى اتصف بالعلمية الموضوعية والأخلاقية العالية، والجهد الهائل في نشره وتحقيقه. وتبرز هذه الحقيقة في تلميذه «فان فلوتن» (المتوفى سنة ١٩٠٢) وعلميته فى مانشره من النصوص كمفتاح العلوم للخوارزمي والمحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ وغيرها. ومن هذه الخلقية الانسانية نجده يرثي الشرق بحزن عميق وكان قد زار استانبول ودمشق فرأى البون الشاسع بين ماقرأه وبين مارآه في الشرق فكتب متوجعا:

«أواه، أهذه أمة في طريق التقهقر، إنني أسآل نفسي كثيراً في وحدة تأملاتي: أحكم على هذه الشعوب أن تخضع لغزونا؟ ولكن أنا الذي يعرف جيداً الجانب السمح من الأوربيين، أرفض القبول بتفوقنا. أنا لاأريد أن أصدق أن هذه الحياة الخصيبة سوف تخنقها حضارتنا التي لا لون لها» [٢٤٥] . أما فى تلميذه الآخر: سنوك فأخذت أخلاقية «دي خويه» طريقا آخر للمجد.

ان العصر الذي عاش فيه «سنوك هورخرونيه» كان «عصر الحمى»:

حمى التوسع الاستعماري، وحمى التبشير في حماية السلطة المستعمرة، وأمام هذه الحمى برزت بعض الدعوات الأخلاقية الانسانية في التنديد بالسيطرة الاستغلالية اللانسانية. ورافق كل هذا «حمى الاكتشاف» والريادة، وذلك باكتشاف أي مجهول عند الأوربيين للفوز بالشهرة: كالنقوش الكتابية مثلاً (انظر الرسالة الملحقة). يقول «فان كوننكزفيلد»:

«لقد وضع «سنوك هورخرونيه» كفاءآته (العلمية) في خدمة الحرب الاستعمارية في الوقت الذي كان مولتاتولي أعظم أدباء القرن التاسع عشر (في هولندا) قد أتحف القراء في هولندا بكتابه **«ماكس هافلار»**وبجواهره الأدبية الرائعة الاخرى»، لاستنكار سياسة الحكومة الهولندية الاستغلالية في أندونيسيا. وعند الجنرال «فان در ماتن» ــ صديق «سنوك هورخرونيه» الذي رأى أن المجد الذي حازه الجنرال «فان هوتس» يجب أن يكون لسنوك ــ لأن: «مولتاتولي لم يكن عنفوان هولندا الرائع بل إن سنوك هورخرونيه هو زهرة الشعب الهولندي». وقد كتب الجنرال «فان در ماتن» كتاباً بجزئين «لرد اعتبار» شرف «سنوك هورخرونيه» بعد أن انتزعه الجنرال «فان هوتس» على الصعيد الرسمي، والشعبي منه في قضائه على «تمرد» اقليم «أجي» الأندونيسي [٢٤٦] فشيد له نصب تذكاري بينما عاش «سنوك هورخرونيه» في الوسط الاستشراقي الهولندي.

يقول بعض المستشرقين الهولنديين اليوم: أن «سنوك هورخرونيه» كان «ابن عصره» ولذلك لايمكننا الحكم عليه الا على ضوء عصره وقد فرض عليه العصر مافرضه عليه. وهذا قول فيه تزوير كثير للمعايير الخلقية الانسانية التي لم تتغير جواهرها عبر الأجيال لأن التاريخ لا يكتب التاريخ. بل ان الإنسان وحده هو المخلوق الذي يسجل معاييره الخلقية كما تراها البشرية في قيمها الخلقية العامة، وسم هذه القيم الخلقيةاعراف القبيلة أو الدين أو التقاليد أو حتى العادات. والتاريخ بعد هذا لم يسجل لنا: أن الاحتيال صنعة محمودة، وأن الكذب مقبول، أو التزوير مندوب اليه. ولو كان الأمر كما وصفوا لبررنا الكثير من الحماقات التاريخية، ولرفضنا الكثير من

البطولات الانسانية التي ماتزال البشرية تستمدُّ منها معاييرها الأخلاقية. فان الثابت تاريخياً أن «سنوك هورخرونيه» قد استخدم علمه في سبيل مصلحة بلده وهذا لايذم عليه من وجهة نظر أولئك الذين لايفرقون بين العلم لاجل العلم وبين العلم لاجل «أغراض عملية». أما أن يحاول الانسان أن ينفي «عملية إسلام» «سنوك هورخرونيه» الرسمية لأنه استغفل الرأي العام الهولندي خاصة والأوربي عامة نتيجة لبراعة «سنوك هورخرونيه» في تمثيل دوره البطولي عليهم، فان هذا لايستسيغه المنطق الخلقي ويحملهم التاريخ وزر هذا الاستغفال. ولعل أطرف مافي نفي النافين لاسلام «سنوك هورخرونيه» الاحتيالي هو نفي الاحتيال عنه للخروج بشرفه الاخلاقي سليماً الا أنهم أرادونا أن نحكم عليه «على ضوء عصره» فهل إن عصره كان يرى الاحتيال شرفاً، وعصرنا يراه رذيلة؟ أم انّ لهم تبريراً خلقياً في خداع الشرق وأهله؟

وفي رسالة كتبها «سنوك هورخرونيه» الى الجنرال «فان در مارتن» بتاريخ ١٩٣٣/٦/٢٩ ذكر فيها طريقة دخوله الى اقليم «أجي» وسببه، أوردها الدكتور «فان كونكزفيلد» في محاضرته وجاء فيها:

«في سنة ١٨٨٩ وقبل إعدادى للسفر إلى الهند (الهولندية) فقد أعلمت وزير (المستعمرات) بأنه حيث أن اهتمام الحكومة خاصة بأهمية الاسلام السياسة فان اقليم «اجي» هو المكان المفضل الذي تغطيه أهداف تحرياتي، مشيراً كذلك الى انني في مكة قد تعرفت على الأجيين من قرب وبمناسبة لم تتأت لأوربي من قبل وأعني بذلك على طريقتي الخاصة: دعني اقول: بالتنكر:

"laat mij maar zeggen incognito"

(واخفاء شخصيتي الحقيقية) للذهاب الى بينانغ حيث أخالط اللاجئين الأجيين. وانني لأشعر بأنني ساحصل على المعلومات وربما سأجد الفرصة للذهاب إلى كومالا. وفي الوقت نفسه فإنني لواثق بأنه بهذه الطريقة فان الموقف سيكون أكثر وضوحاً، وربما يمكن الحصول

على اتصالات شخصية مثمرة. وقد وافق الوزير الذي أبرق للحاكم العام الذي لم يكن لديه اعتراض، فأبحرت بكل هدوء على متن سفينة بخارية إنكليزية الى بينانغ، (في ماليزيا الحالية) ففاجئني القنصل (الهولندي كروات) ببرقية من باوتنزورخ (القريبة من جاكارتا حيث كانت الحكومة المركزية): أنه يجب عليَّ أن أترك خطتي بسبب معارضة الجنرال «فان تاين» (حاكم الجزء المحتل من اجي) لدى الحاكم العام، ولذلك فانه يجب عليَّ أن أسافر إلى بتافيا (جاكارتا الحالية). وبهذا فان تنكري (وإخفاء شخصيتي) الأن وفي المستقبل جُعل بالطبع غير ممكن».

والواقع التاريخي يكذب «سنوك هورخرونيه» فان «تنكره» لم يُجْعَل غير ممكن لأن «إسلامه الاحتيالي» في جدة، وعلاقته التي وطدها بالأجين في مكة المكرمة، والتي بنيت في أساسها على هذا الاحتيال قد ساعدته على الولوج إلى اقليم «اجي»، «حيث أراد أن يجمع المعلومات التي يمكن أن تساهم في إيجاد حل لمسألة اقليم اجي» ـ كما يقول «خوبيه» [٢٤٧].

وكان من نتيجة اعتراض السلطة الهولندية في «اجي» أن قبل «سنوك» العمل في «بتافيا». وهناك بدأ في جمع معلوماته حول التعليم الإسلامي في المدارس في غرب ووسط جاوه، وحول ماكان يسمى بـ«الاكليريوس المحمدي» الذين نفى «سنوك هورخرونيه» مرة بعد أخرى وجودهم. وقد صدق لأنهم لايوجدون في الاسلام على النمط الكاثوليكي خاصة والنصراني عامة. ثم صدر له الأمر الرسمي بالقيام بمهمته الرسمية والتي وصفها في توصياته بـ«السرية جداً». وفي هذه الرحلة التجسسية أولاه الأجيون، ومنهم العلماء كل ثقتهم، ومنحوه ضيافتهم فقابلهم بالعقوق والخيانة فكان تقريره الذى يفيض بغضا وحقدا وتحريفا وكذبا، وخاصة على العلماء الذين رأى فيهم العقبة الكؤود أمام خضوع الاقليم للسيطرة الهولندية لأنهم كانوا المحرك الروحي للناس في الدفاع عن الاقليم فسماهم عشرات المرات بـ«عصابة العلماء» في تقريره التجسسي، وأوصى الحكومة المستعمرة باتباع سياسة العنف والافناء لهم، فقال:

«ان العدو الحقيقي والنشط هم العلماء والمغامرون الذين نظموا العصابات القوية. وبالرغم من قلة عددهم الذي يتجدد من بين مستويات السكان المختلفة، فانه يمكن أن يضاف اليهم قسم من السكان والرؤساء. ولايمكن أن تكون هناك أية فايدة في المفاوضة مع هذا الحزب العدائي لأن عقيدتهم ومصلحتهم الشخصية تفرض عليهم أن لايخضعوا الا باستعمال العنف ضدهم. إن الشرط الضروري جداً لاعادة النظام إلى اقليم «أجي» يجب أن يكون بسحق العلماء بعنف حتى يكون الخوف عاملا في منع الأجيين من الانضمام إلى «رؤساء العصابات» لتجنب الخطر .. إنه يجب أن تعد خطة تجسسية، كما أرى، فعالة ومنظمة للتجسس على تونكو كوتاكرانج (رئيس العلماء في سنة ١٨٩٢) وعصابته، ولابد أن يكون هناك نجاح مبدئي لها. ولما لم أكن أنا كفؤاً لشرح كل التفاصيل فاني أجرؤ على القول أن مثل هذه العملية التجسسية ممكنة» (٢٤٨).

وعلق «فيرتهايم» أستاذ علم الاجتماع في جامعة امستردام قائلاً: «هل اعتبر (سنوك هروخرونيه)بحثه العلمي في هذه العملية التجسسية لمرحلة أولى في هذا الميدان؟». ومع كل هذا: «فإن هذا الجانب من توصيات «سنوك» هو الجانب الاستعماري» ــ على رأي «فيرتهايم» (٢٤٩).

ولما ألقى «فان كونكزفيلد» محاضرته التي أشرت إليها سارعت جريدة لايدنية فنشرت تعريفاً بالمحاضرة فدفع هذا التعريف جريدة أخرى تصدر في امستردام: "NRC - Handelsblad" أن تنشر ملخصاً كاملا للمحاضرة وعندها توالت على الجريدتين رسائل الاحتجاج من بعض الموظفين والمقيمين الرسميين القدامى في الهند (الهولندية) الذين كانوا تلاميذ «سنوك هورخرونيه». وفي هذه الرسائل مديح جارف لدور «سنوك» في اخضاع الأقليم وتقريع عنيف لصاحب المحاضرة وأنه «ترك العنان لخياله» بل انه «كاذب» في «ادعاء تجسس سنوك»؛ بل إن مقيماً رسمياً قديما منهم ذهب الى: «أن كل من كان على علاقة شخصية «بسنوك هورخرونيه»

كان يندهش من اهتمامه البالغ وحبه لاقليم «أجي» وسكانه» [٢٥٠] .

وكتب آخر من هؤلاء المستعمرين القدامى: «لقد توصل «سنوك هورخرونيه» الى أنه ليس هناك حل ثالث: اماأن يخضع الاقليم أو يترك لشأنه، فوصف لذلك أهل الأقليم وحياتهم خلال أوضاع الحرب المستمرة، وكيف أن التوازن بين العادات والشريعة قد تهدم. ووصف كيف أن بعض العلماء المسلمين قد أساءوا استغلال الأوضاع غير الطبيعية فأجبروا السكان على الجهاد ولأجل إعادة الثقة بحكم حكام العادات (الامراء الوراثيون) فانه كان من الضروري مطاردة عصابات العلماء إلى أقصى ركن» [٢٥١] . فهل بعد هذا المنطق من منطق؟ أيجبر سكان بلد من بلدان الكون على الحرب أربعين عاماً؟ أم أن هؤلاء الآلاف المؤلفة من الذين قتلوا في الدفاع عن حريتهم، واستقلالهم وقيمهم الخلقية كانوا يساقون للموت قسراً؟ أم أن سنوك هورخرونيه، وتلامذته من المستعمرين القدامى رأوا أن العلماء لايمثلون السكان الأجيين فنصبوا من أنفسهم نوابا يمثلون الناس، ويدافعون عن مصالحهم لحبهم البالغ لهم ضد العلماء«المستغلين»؟

يناقش فيرتهايم مسألة حب سنوك هورخرونيه لاقليم «أجي» وسكانه فيقول: «ولو سألنا أنفسنا: فيما إذا كانت توصيات «سنوك هورخرونيه» باتباع سياسة العنف يمكن أن تعزى الى تعاطفه مع الناس الذين عاش فيما بينهم؟ غير أننا نصاب برجّة إذا ماقرأنا حكمه الآتى على الأجيين:

«ان اقليم أجي باضطراب أموره الداخلية الميئوس منها، وبافتقاره إلى أية سلطة مركزية وازدراء سكانه العميق الجذور للكفار وغدرهم وأخلاق سكانه التى لايوثق بها اطلاقاً، لايمكن أن ينحازوا الى الطريق الحضاري، بلى: ولذلك (لاحلّ) لدفع الخطر الا باخضاعه التام».

ويستطرد «فيرتهايم» قائلا: «في هذا الحكم يتجلى الاستعمار ويده العليا هي الغالبة على أي اعتبار أخلاقي» [٢٥٢] ، بل إن «سنوك» لم يفهم أن العلماء الذين حاربهم بضراوة كانوا المحرك الدائم في داخل المجتمع

الأجيني، ولم يدرك أيضاأن محاربة العلماء معناها محاربة الغالبية العظمى من سكان الأقليم» (٢٥٣) «ولو كان الأجيون كما وصفهم «سنوك» أهل غدر .. فان سنوك هو آخر من له الحق أن يصم الأجيين بالغدر .. لأنه هو الذي خان الثقة التي أولاها إياه الأجيون» (٢٥٤) .

إن الطريق الحضاري أو مايسمى بسياسة «الترابط الثقافي»: "cultural association" كانت إحدى أركان توصيات «سنوك هورخرونيه» التي أراد بها «تصدير الثقافة الأوربية» الى الهند (الهولندية) لأن هذه الوحدة الثقافية سوف: «تجرد النظام الديني (الشريعة) من مغزاه السياسي والاجتماعي» (٢٥٥) أو بمعنى آخر: إبطال العمل بالشريعة وإلغاء الجهاد والقبول بما يمليه «مفتى باتافيا» و«شيخ الاسلام المحترم المكرم الفاضل الحاجي عبد الغفار في الجهة الجاوية» (٢٥٦) . والظاهر أن السياسة الاستعمارية كانت تسير على نظام واحد وان تعددت الدول المستعمرة. ففي الهند كان الانكليز أكثر ذكاءاً من زملائهم الهولنديين حين دفعوا القاديانية، وأعانوها بعد أن أعيتهم ثورات المسلمين ومن ثم احتضنوا البابية وبعدها البهائية في ايران، لأن كل هذه الجماعات كانت تدعو الى الغاء الجهاد والقبول بالوصاية الاستعمارية (٢٥٧) . ثم أن سياسة الامتزاج الثقافي هذه لم تكن من بنات أفكار «سنوك هورخرونيه» وحده بل انها كانت سياسة كل الدول الاستعمارية التي رسمها مستشاروهم من المستشرقين كماسينيون من الفرنسيين وجب وغيوم من الانكليز، وأمثالهم كثير ممن اتفقوا مع المبشرين في فتح المدارس والجامعات لأوربة أبناء عِلِّية القوم سواء في الهند (الهولندية) أو الهند ومصر والعراق وشمال أفريقية ولبنان وسوريا أو البلدان الأفريقية التي كانت تحت وصاية هذه الدولة الأوربية أو تلك «لاغراض عملية». وهذا الحب البالغ الذي حمله «سنوك هورخرونيه» للأجيين هو نفس الحب الذي حمله «بطرس المحترم» و«ريموند أوف بينافورت» و«ريموند لول» و«صموئيل زويمر» و«هندريك كريمر» و«فون كريمر» و«اندرسون» الانكليزي المعاصر. ولم يكن «سنوك هورخرونيه» الا امتداداً طبيعياً لروح

القرون الوسطى وروح التبشير بالمحبة والعلم فردد كل الآراء التى كانت معروفة فى عصره. فاذا كان «ريموند لول» قد تجاسر أن يهاجم الاسلام: «بأسلحة المسيحية الجديدة وهي. العلم والمحبة بدلاً من أسلحة الصليبيين» [٢٥٨]، و « ماركو بولو » الذي رأى ان:« الشريعة التي تركها لهم نبيُّهم تأمرهم بعمل كل ماتصل إليه أيديهم من الضرر لكل ماسواهم من الأمم وخصُوصاً النصارى [٢٥٩] فاننا لانعجب من «سنوك هورخرونيه أن رأى: «أن العقيدة الاسلامية تحث على كراهة الكافر لتعصبها»، لأنه ردد بكل إخلاص آراء غيره بأسلوب عصره بل مايزال مستشرقو هذا العصر يرددونها أمثال أستاذ كرسي علم التبشير في الجامعة الحرة بامستردام: «انطون فسلز» في مقال: ماذا يريد المسلمون اليوم؟ حين كتب: «والثابت في كثير من أحكامه فان الاسلام دين تعصب وغلو» [٢٦٠] . وقد صدق لأنه يتقاضى أجره على مايكتب عن الاسلام مما يفرضه عليه كرسيه ان لم يكن تعصبه. وتعصب الاسلام عند كل هؤلاء لأن أهله لم يتبعوا ملة «ريموند لول» أو«سنوك هورخرونيه» أو ملة أنطون فسلز: وهذا أمر عجيب عندهم: بل انه لغز الألغاز حين يعرض هؤلاء «الوثنيون» عن الخلاص والنجاة التى يقدمها «انطون فسلز» وجماعته بدافع « الحب الخالص» لانقاذهم من «الظلام الوثني». ألم يترك الله ابنه الوحيد يموت صلباً لاجل أن يفتدي البشرية و يتحمل عنها خطاياها؟ فكيف يعرض هؤلاء «الوثنيون المتعصبون» عن هذا الخلاص الأبدي؟ انه لغز الألغاز. و بدافع من هذا «الحب» الأعمى هاجم «لول» والمئات من الذين جاءوا بعده من «الغيورين» والممتلئين حباً أمثال هندريك كريمر تليمذ سنوك هورخرونيه وانطون فسلز وأمثاله، الاسلام وقيمه وشرائعه وأخلاق أهله ــ حباً بهم ورغبة في خلاصهم من النار الأبدية!! لأن هؤلاء «الغيورين والممتلئين حبا»للوثنيين أيقنوا أنهم «رسل الحب» لهؤلاء الضالين لهذا ينبغي أن يروا المسلمين «الكفار» كيف يجب أن يكونوا: وماعليهم إلاأن ينقادوا الى ممثليهم «الممتلئين حباً».

يقول «فان كونكزفيلد»: «لم تنقطع مراسلة «سنوك هورخرونيه» مع

تلميذه «هندريك كريمر» المبشر المشهور وصاحب النفوذ في دوائر التبشير من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٣٥» (٢٦١) . أما «بولاند» فيروي: «أن كتاب «هندريك كريمر» ــ الرسالة المسيحية في عالم غير مسيحي (٢٦٢) ــ يوضح بجلاء أن المسيحيين كانت عندهم خطة عملية لتنصير العالم وخاصة اندونيسيا .. وأنهم كانوا يهدفون إلى إخضاع العالم الاسلامي (٢٦٣) بل ذهب «كريمر» الى مقارنة الاسلام مع النازية (٢٦٤) . ولم لا؟ والتاريخ الأوربي المسيحي مليء بالحب الدافق لأتباع موسى الذين وجدوا كل الرعاية وحسن معاملة «فوق خشب الحريق أو دفنهم أحياء» (٢٦٥) . أما زميله «انطون فسلز» ــ أستاذ كرسي علم التبشير بجامعة امستردام الحرة ــ فيؤيد رايه بقول مناحيم بيغن وهو يتحدث عن معنى النهضة فيقول: «ان مفهوم النهضة بالمعنى الغربي يوحي بالبهجة بيد أن معناها في الاسلام تعني الانحراف الى اليمين أو الرجوع الى القرون الوسطى كما قال مناحيم بيغن..» (٢٦٦) . ولم يكذب لأن محاكم التفتيش «الانسانية!!» كانت من صنع المسلمين!!

إن علاقة «سنوك هورخرونيه» بالتبشير في الهند (الهولندية) كانت نابعة من سياسته في «الترابط الثقافي» لأنها عنده أقوى من روابط الهيمنة بالقوة وأقوى على ربط المستعمرات بالوطن الأم. ولو قدر لهذه السياسة أن تنجح لرأينا أندونيسيا ترفض الاستقلال كما ترفضها الآن مستعمرات هولندا في سورينام، وجزائر الانتيل والسبب واضح، وهو أن أندونيسيا أو أقطار شمال أفريقيا لم يكونوا خلواً من الاصول الثقافية التي وفرها الاسلام كخلو مستعمرات هولندا في أمريكا الجنوبية لذلك لم تنجح سياسة «سنوك هورخرونيه» في أندونيسيا وسياسة ماسينيون في شمال أفريقية. ومع كل هذا فان «سنوك هورخرونيه» لم يكن متحمساً للتبشير كأداة سيطرة بقدر ماكان متحمساً لتصدير المثل الأوربية التي تعمل على المدى البعيد في إضعاف الوازع الديني الاسلامي وحصره في المساجد ومن ثم «يذوى كما يذوى نبات الخريف» ــ كما يقول اللاهوتي المشهور «ابراهام كاوبر» (٢٦٧)

ـ صديق «سنوك هورخرونيه»). وهو هنا قد اتفق مع المبشرين في الغاية واختلف عنهم في الوسيلة بالرغم من أنه كتب كتابه Colijn over Indie الصغير لإظهار تعاطفه مع سياسة رئيس الوزراء اللاهوتي «ابراهام كاوبر» في المستعمرات، والتي حوت فيما حوت «تنصير الهند (الهولندية) جميعها» (٢٦٨). وأن هذا الاتجاه لسنوك هورخرونيه يظهر واضحاً في رده العنيف على الوزير الهولندي لومان في رسالة كتبها للوزير في ١٩ كانون الأول سنة ١٩١٣ حين أوردت الصحف أن الوزير قد صرح بأن سنوك هورخرونيه يؤيد الشعار: الهند الهولندية للمحمديين، فكتب سنوك هورخرونيه:

«مما يسرني كثيراً لو كانت مسؤلية سوء الفهم هذه تقع على محرري الصحف، عندئذ يكون الأمر سهلاً، ولكن اذا حدث أن هؤلاء المحررين قد وضعوا هذا الكلام على لسانك فانني أسألك بكل أدب ولكن بإصرار: أنه يجب أن تخبرني في أي من كتاباتي غير القليلة عن الاسلام في الهند (الهولندية) ماقادك الى سوء الفهم هذا (...) ولعلك لست على علم بأنني، وبدون مصلحة شخصية، قد ساهمت في إعداد المبشرين في روتردام، وكان بسبب محاضراتي ـ هولندا والاسلام ـ أنني تسلمت رسائل تقدير أرسلها لي من تلقاء أنفسهم الحاكم العام (للهند الهولندية) «ايدنبرخ» ومن «خوننك» مدير إرساليات التبشير ومن دكتور «ادرياني» (المبشر) ومن «البرت كروات» (القنصل السابق بجدة) وهؤلاء تربطني بهم علاقة ودية منذ ٢٥ سنة (...) وأنني لي الحق في أن اطلب: أن لايحكم الا على ماقلت أو كتبت أنا نفسي. وبالأحرى فأنني أود أن أولئك الذين ليسوا بذي خبرة بهذه الأمور أن يلتزموا الصمت وأن لا يتكلموا عني وعن عملي في اجتماعات الناس» (٢٦٩).

يعترف سنوك هورخرونية في هذه الوثيقة أنه ساعد في إعداد المبشرين، بيد أنه لم يذكر أيضاً أنه كان يحاضر عن الاسلام في معهد اعداد الموظفين

الذين سيلتحقون في الادارات الاستعمارية في المستعمرات الهولندية، ولذلك أرسل له الحاكم العام والمبشرون رسائل تقدير وثناء على جهوده في إعداد الفريقين. وجهود سنوك هورخرونيه هذه وجهوده الهائلة الأخرى في حياته كانت نابعة من شعور عميق بتفوق الثقافة الأوربية ــ ولانقول الجنس الأوربى ــ والأنظمة الأوربية بكل حسناتها، بل وسيئاتها على غيرها من الثقافات والأنظمة. و«سنوك هورخرونيه» بعد هذا لم يكن فريداً في هذا الشعور التفوقي الذي شاركه فيه الكثير من مستشرقي وراسمي سياسات عصره الذين كانوا على اتصال دائم مع بعضهم سواء في المؤتمرات، أو خلال المراسلات. وعندى أن تاريخ الاستشراق يجب أن تعاد الآن كتابته من جديد على ضوء الوثائق الشخصية والمراسلات التي بدأت تظهر للباحثين بعد أن سمح برؤيتها. ومع أن الكثير من هذه الوثائق ماتزال مقفلة للباحثين فإن الكثير منها مفتوح الآن لهم. وان هذا «الإعجاب» بتفوق الثقافة الأوربية لم يقتصر على المستشرقين والمبشرين وساسة العصر بل وصلت عدواه الى بعض مفكري العرب فكتب محمد أمين فكري (المصري) كتابه **«إرشاد الألبا الى محاسن أوربا»** في سنة ١٨٩٢ للاشادة بدور أوربا في إصلاح مستعمراتها «والقيام البالغ بمصالحها». ولم يكن دور طه حسين في كتابه **«مستقبل الثقافة في مصر»** ولطفي السيد والشيخ حسن العطار وأستاذه رفاعة الطهطاوي أو على عبد الرازق في مصر والزهاوي وغيره في العراق إلاّ صدى لأثر الآراء الاستشراقية الأوربية. ولو أجهد الباحثون أنفسهم قليلا لوجدوا أن الكثير من المقالات التي كانت الصحف العربية والاسلامية تنشرها بأسماء مستعارة أو صحيحة داعية الى «الاصلاح» أو مشيدة بدور أوربا في «التقدم والرقي والحرية» كانت تكتبها أقلام المستشرقين ويصححها لهم أو يعيد كتابتها لهم المأجورون وجريدة المؤيد المصرية مثلاً حوت أمثال هذه المقالات الاستشراقية السرية التوقيع. ولا تخلو المنار وجريدة المعلومات التركية أو الزوراء البغدادية من أمثال هذه

المقالات أو الردود على مقالات تنتقد سياسة هذه الدولة أو تلك في مستعمراتها(*).

ومن هذا الشعور التفوقي كان على «سنوك هورخرونيه» أن يهاجم الشريعة لأنه كان مؤمنا مثل غيره من مستشرقي عصره بأن «الثقافة الأوربية» لايمكن لها أن تنتشل «الجهال المسلمين» إلا إذا تحرروا من الدين «الرجعي» فهو لذلك لم يكن متحمساً لارساليات التبشير، وفي الوقت نفسه لم ينصح بتحريمها في الهند الهولندية إلا اذا كانت الاكثرية مسلمة فانه نصح بالتريث والمداراة. ومع هذا فإنه شجع على فتح المدارس التبشيرية «على أمل أن المحمديين، وعلى مدى الزمن يتحولون الى النصرانية، لأن مئات الآلاف من السكان يتشوقون للتعليم، غير أنهم لايرضون بتعليم النصرانية لأولادهم» (٢٧٠). والدافع له هو سياسة «الترابط الثقافي» لأنه رأى في انتشار المدارس على النمط الأوربي الوسيلة الوحيدة لتحقيق حلمه حتى ولو كان ذلك من خلال مدارس التبشير لأن «سنوك هورخرونيه» كان «بلا دين» كما يظهر من سجل البلدية المحفوظ في دار الوثائق بمدينة لايدن حيث ظهر أنه كتب نفسه أو كاتب السجل الرسمي ذلك في حقل الدين: «بلا دين» (٢٧١).

لقد أراد «سنوك هروخرونيه» كما أراد «ماسينيون» أن يجعل من جزائر الأرخبيل الأندنوسي ومن الجزائر وتونس ومراكش أجزاء لا تنفصل ثقافيا وبالتالي عقائديا وحضاريا عن هولندا وفرنسا. وبالرغم من تباين وسيلتيهما فأنهما اتفقا في الغاية. لقد كان ماسينيون كاثوليكيا متحمسا وقد جره هذا الحماس الى أنه لم ير في الاسلام إلا الجانب التصوفي الحلاجي حيث رأى فيه مسيحية صوفية يتعاطف معها. وسنوك هورخرونيه لم يكن مسيحيا متحمسا كما أراد تلاميذه أو المعجبون به أن يقنعونا بذلك وهو بعد هذا لم

(*) من الطريف جداً أن يقرأ الانسان أن «كتاب الاسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق: ليس له فيه الا اسمه عليه فقط» انظر: الاسلام والخلافة في العصر الحديث لمحمد ضياء الدين الريس (القاهرة ١٣٩٣/١٩٧٣) صفحة ١٧٤ ــ ١٧٥.

يسلم علانية الا لأنه أدرك أن إسلامه العلني هذا سوف يحقق له ماراه من استعلائية الثقافة أو الحضارة الأوربية. ولم يكن «سنوك هورخرونيه» عرقيا الا بقدر ماتحققه هذه العرقية من سيادة هولندا التامة وبالتالى سيادة سياسته في الترابط الثقافي وهو لذلك صب هجومه العنيف على ماأسماه مرارا بـ«كراهية الكفار» عند المسلمين، لأنهم ـ على رايه: «يعتبرون كل إنسان غير مسلم عدوا لله، وأن إجباره على اعتناق الاسلام أو اخضاعه بالقوة هو برهان على إحسانهم اليه» (٢٧٢) . ولاندرى إن كان «سنوك هورخرونيه» يردد مشاعره حين كان في جدة، ورأى الطريق الى مكة مسدودا الا إذا أعلن إسلامه؟ فاحس أنه قد دفع بالعنف الى لبس قناع حمله على وجهه طول حياته فأقلقه ثقل هذا القناع الذي كان لابد له أن يلبسه لتحقيق طموحه وحلمه في « وطوافي لدى وصولي الى هناك (مكة) .. كان أهم حادث في حياتي وبداية لحلم من أحلام القرون الوسطى» (٢٧٣). وبقدر ماكان «سنوك هورخرونيه» قلقا أن يشف القناع عن حقيقته عند المسلمين كان قلقا أيضا أن يكتشف الحاكم الهولندي العام أو موظفو الحكم الهولندي في أندونيسيا أو أصحابه وتلاميذه حقيقة هذا القناع واليك مثلا واحدا من هذا القلق:

نشرت جريدة «المعلومات» التركية في عددها ٣٨ الصادر في ١٦ شوال من سنة ١٣١٥ (٩ مارت ١٨٩٨) مقالا من « مكاتبنا الفاضل في بتاوي»: أن القنصل التركي أراد انشاء مدرسة«على قاعدة المدارس في البلاد العثمانية فأرسل لاستشارة أحد الاشراف (لم تذكر الجريدة اسمه قصدا) العلماء في شأن المدرسة والتمس المساعدة منه على ذلك لأن هذا الشريف متقرب عند الحكام (الهولنديين) وله صيت عال بهذا الطرف ولكنه لما خاطبه القنصل والتمس منه الجواب بما يراه في بناء المدرسة لم يجبه الا بقوله: طيب فقط، وظهرت في وجهه الكراهة ولم يستحسن ماأشار به القنصل ولكنه سكت. فخرج من عند القنصل توا إلى منزل رجل مسلم هولندي وأخبره بما قال القنصل في شأن المدرسة لأولاد المسلمين في بتاوي (جاكارتا). فلم يلبث هذا الرجل (المسلم الهولندي) الا ريثما كتب عريضة

للوالي العمومي (الحاكم الهولندي العام) على جاوه ونواحيها فأرسل الوالي الى القنصل وأخبره بأن الحكومة لن تسمح له بذلك فعلم القنصل أن ذاك العالم الشريف هو الذي أفشا هذا السر فاغتاظ منه جدا ومنعه من المواجهة مرة أخرى لما تحقق عنده ميله للحكومة الهولندية ومصافاتها الى هذا الحد».

ولما كان سنوك هورخرونيه المستشار الرسمي «للشئون المحلية (الاندنوسية) والشئون العربية»، إذ ذاك فقد وصلته هذه الجريدة مع الجرائد الأخرى التي نشرت شيئا عن «مظالم الحكم الهولندي في جاوة» (٢٧٤) . وكان لابد له أن يقدم تقريرا أو ترجمة كاملة لما ينشر عن الحكم الهولندي في الصحف التي تظهر باللغة العربية، مع كل المعلومات الدقيقة التي جمعها من «عيونه» الكثيرة أمثال عثمان بن عقيل.

ان الذي يبدو من توصيات «سنوك هورخرونيه» أن السيد عثمان بن عبد الله بن عقيل كان على اتصال دائم مع سنوك وكان يستشيره حتى في طبع نداء القنصل التركي لمساعدة سكة الحجاز في مطبعته (٢٧٥) الخاصة. ففي توصية سنوك الى الحاكم العام (٤ مايس ١٨٩٨) لخص المقالة التي نشرتها جريدة المعلومات التركية على الصورة الآتية (مع أن الجريدة قد حذفت اسم الشريف عمدا):

«وبأسلوب أعنف فقد عومل السيد عثمان(بن عبد الله بن عقيل) في مقالة: «من مكاتبنا من بتافيا» في جريدة المعلومات الرسمية الصادرة في استانبول في ٩ مارت ١٨٩٨. وذكر هناك أن القنصل التركي الجديد كامل بك الذي يعمل بحماس لأجل مصلحة المحمديين في هذا البلد أراد أن ينشيء المدارس لتعليم الدين الا أن السيد عثمان قد أسرع حتى يجعل الحاكم العام على علم بالخطة ولذلك فان الخطة قد فشلت» (٢٧٦) .

إلا أنه ذكر في توصيته إلى الحاكم العام (٢٠ شباط ١٨٩٩) مساعى القنصل التركي في إرسال الأولاد الى أستانبول للدراسة ثم استطرد: «أن السيد عثمان وبتشجيع من الحكومة الهولندية قد دعا الى اجتماع العرب،

واقترح انشاء مدرسة أو اكثر لأولاد العرب .. بيد أنهم أعلنوا عدم استعدادهم حتى لاعتباره بله قبوله» [٢٧٧] . من هذا يظهر أن المعلومات التي ذكرتها جريدة «المعلومات التركية» لم تتسم بالمبالغة كما رأى سنوك. أما بشأن الاجتماع فالظاهر أن سنوك كان وراء السيد عثمان في الدعوة اليه لإفشال خطة القنصل. وهذا غير مهم هنا. المهم أن «سنوك هورخرونيه» قد استغفل الحاكم الهولندي العام لأنه لم يكن أمينا في ترجمته أولا وأنه استغفل حكومته حين لم يترجم: «فخرج (الشريف) من عند القنصل توا الى منزل رجل مسلم هولندي .. الى آخر النص». لأنه خشي أن ينكشف قناعه أو قل: احتياله وهو يعرف جيدا أن: «إلى منزل رجل مسلم هولندي» هو نفسه بالذات. فوضع اللوم على جهل «المكاتب» وسوء معلوماته وإلاّ فان الحاكم العام كان يعرف الرجل الذي قدم توصيته له إلا أنه لم يكن يحسن قراءة الجريدة فاستغفله الشيخ عبد الغفار ــ المستشار الرسمي ــ فيمن استغفل.

الخلاصة

من كل ماسبق نستطيع أن نخرج بنتيجة تتسم بالبساطة، وهي أن الاستشراق بتباين ضروب مظاهره ودراساته وأعلامه لم يكن لأجل العلم الصرف؛ وأننا نخطيء أيضا اذا قرّرنا هذه النتيجة حكما عاما لأن هذه النتيجة تضم أولئك الذين آثروا الانزواء في صوامع العلم لأجل العلم والمعرفة، ومن هنا أرى ان الاستشراق بتياراته المختلفة يجب أن لا يدرس كتيار عام أو ظاهرة عدائية، بل أرى أن يدرس المستشرقون على أساس الأفراد والشخصيات بكل مافي البحث من جدية وبكل مافي الدراسة من موضوعية وتجرد على أن تكون هذه الدراسة مبنية على ماكتب هذا المستشرق أو ذاك أولا وعلى الوثائق الأصلية التي توضح وجهة نظر هذا المستشرق أو ذاك بصورة أوضح وأوثق من كتاباته المنشورة ثانيا، وعندها يصح الحكم الموضوعي عليه. أما التراجم التي كتبها مستشرق لزميله فهي آخر مايطمئن إليه، وخاصة إذا كان هذا تلميذا لذاك إلاّ في ما ندر، وهذا أقل من القليل، أما خطب التأبين أو رسائل التذكار فان عين الرضى عن كل عيب فيها كليلة.

لم يكن المستشرقون في يوم ما من صنف الملائكة وهم بعد هذا بشر، ولكل منهم اعتقاده العرقي والديني أو السياسي أو الانساني، أو أن منهم من يخلو من كل ذلك. وأن منهم القسيس، ومنهم المبشر ومنهم الملحد بكل دين، وأن منهم الرأسمالي، وأن منهم الشيوعي، وأن منهم الاشتراكي الذى يرى أن أحسن مافى الإسلام سماحه بتعدد الزوجات، وأسوأ مافيه الإيمان بالوحدانية، وتساوي البشر في الطبقات. وأن منهم من يلوم الاسلام على سوء حرية المرأة والأولاد في الوقت الذي يشكو فيه من سوء معاملة زوجته له، وعدم إطاعة أولاده له (رايه الأول منشور وشكواه كانت شفاها لزميل

له). وأن منهم من يكره اليهود فبذل جهده في الدفاع عن العرب ولكن على أن لايهاجروا الى بلده لأن «السعيد أن يكون بعيدا». وأن منهم من ذهب به الهوس العرقي بعيدا فأنكر على الهولندية ان تتزوج عربيا وهو نفسه هجين.

ان كل هذه الميول انما هي ميول إنسانية لا تقتصر على جنس من الاجناس أو عرق من البشر وهي بعد ذلك توكيد على أنهم بشر خاضعون لشتى النزعات البشرية. وكل هذه الميول تظهر بشدة أو بخفوت تبعا لهذه النزعات النفسية في كتاباتهم أو محاضراتهم المنشورة أو غير المنشورة وكلهم مشدود إلى بيئته وحضارته وماورث من مفاهيم تقليدية أو مكتسبة.

لقد أحسن الاستشراق بضروبه المختلفة المقاصد والأهواء للعرب وللمسلمين حين نبهوهم الى اصالة تراثهم، وطرق دراسته وتناوله. وكان المستشرقون الأول حريصين على تتبع الأصول المخطوطة للاستفادة منها راسا في كتاباتهم الجدلية التبشيرية بدلا من ترديد أقوال ريكالدو وبسكال ونشروها على طريقة محققي النصوص اليونانية واللاتينية مع أن هذه الطريقة هي إسلامية صرفة [٢٧٨]، أو للاستفادة منها في تحقيق نصوص الإنجيل والتوراة. ولما عرف المستشرقون طرق نقد النص التوراتي والإنجيلي فانهم طبقوا هذا النظام على القرآن فجاؤا بآراء في الشك بـ«النص»، أو الرواية فطبقوا هذا الشك على الاسناد في الحديث، وعلى روايات الشعر الجاهلي فتأثر بهم بعض العرب والمسلمين كطه حسين ومن لف لفه. وجاؤا بنظرية الأجناس العرقية، وتحمسوا لها حينا من الدهر، وتأثر بها من تأثر فساعدت على بعث الفرعونية والفينيقية، أو حضارة البحر الأبيض المتوسط وعلاقتها بالحضارة الأوربية فكان لطفي السيد وتوفيق الحكيم ولويس عوض. ودعوا الى نبذ العربية الفصحى، والاستعاضة عنها بالعامية واستبدال الحروف العربية بالافرنجية كما فعلت تركيا واندنوسيا فوجدت هذه الدعوة صدى عند عبد العزيز فهمي باشا في كتابه: الحروف اللاتينية لكتابة العربية(القاهرة ١٩٤٤) وعند سلامة موسى وأمثالهما وأكد محمد كرد علي — رحمه الله — أنه كان ظاهر أحمد أمين وباطنه مع السنهوري وطه حسين

ولطفي السيد ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز فهمي وتلك الطبقة يجمع أكثرهم الغرام بقاعدة خالف تعرف وهم في الغاية علما وأدبا شهادة الله»(*).

ولم ينته الامر عند هؤلاء بل تجاوزت الدعوة الى «عدم إمكان استعمال العربية لأن لها طابعا دينيا» (٢٧٩) . وجاء المستشرقون بأراء جديدة في الشريعة وفعاليتها السياسية والدينية فالبسوها لباس الصراع بين الكنيسة والملوك فى أوربا فتأثر بها علي عبد الرازق دون تعقل =)، وجاءوا بآراء في تأثير هذا اللون من التصوف النصراني أو البوذي أو ذاك في التصوف الاسلامي فوجدت لها صدى عند هذا المسلم أو ذاك. ويصح هذا على الكثير جدا من جوانب الفكر الاستشراقي. وكان من أثر هذا الرأي أو ذاك أن بدأت الأقلام بالرد والهجوم أو بالسب والشتائم فازداد النشاط في التعلم والتعليم وبادر المتحمسون لكل ذي رأي بالدفاع عن رأيهم وبذلك بدأت دائرة المعرفة تتسع فازداد الطلب على أسلحة الدفاع من المصادر(●).

(*) مذكرات محمد كرد علي ٥٨٦/٢، الاسلام والحضارة العربية ٤٣/١ ومابعدها.

أنظر مقال: رشدي عليان: الخلافة والإمامة في الاسلام؛ حول كتاب على عبد الرازق ففيه نقاش طريف ومعلومات وفيرة. مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد المجلد ١٨ لسنة ١٩٧٥ ص ١٥٣ — ١٨٦؛

(=) انظر: محمد ضياء الدين الريس، الاسلام والخلافة في العصر الحديث: نقد كتاب الاسلام وأصول الحكم، القاهرة ١٩٧٣/١٣٩٣ فقد احسن مؤلفه في تبيان خطل مانسج حول علي عبد الرازق من مجد وبين زيف الأحكام التى رددها الشيخ مثاثرا بالمستشرقين الذين درس عليهم في انكلترا، بل أنه قد شك في نسبة الكتاب لعلي عبد الرازق ورجح أن يكون من كتابات بعض المستشرقين وانظر مقال فاروق منصور (من القاهرة): الاسلام وأصول الحكم، في مجلة المورد البغدادية، المجلد السابع، العدد الثانى لسنة ١٩٧٨/١٣٩٨، ص ٢٣٩ — ٢٥٨. دافع فيه بعنف وحماسة عن علي عبد الرازق وكتابه.

(●) نشر العالمان محمد كرد علي والامير شكيب أرسلان والأستاذ عباس محمود العقاد كتبا نفيسة تضم آراءاً كثيرة في دحض دعاوي المستشرقين ومن قلدهم، انظر: الاسلام والحضارة العربية، القاهرة ١٩٣٧، حاضر العالم الاسلامي، القاهرة ١٣٥٢، مايقال عن الاسلام وحقائق الاسلام وأباطيل خصومه وكلاهما للعقاد. وقبل كل هذا ظهرت تصانيف محمد عبده ورشيد رضا وآخرين. ويبرز الشيخ محمود شلتوت في كتابه «الاسلام دين وشريعة» في ايامنا هذه مصنفاً واضح الآراء نقيًّها لمن يبتغى فهم الاسلام السليم.

وبازدياد الطلب بدأ العرض يكثر ويزداد فتعددت المعسكرات الفكرية، ثم كان لابد لمن كان قد درس على أيدي المستشرقين أن يقتحم الميدان مؤيدا هذا المعسكر أو ذاك إما بالصحف أو بالمجلات أو بالكتب فبرزت ظاهرة تشبه الى حد كبير تلك الظاهرة التي أثارتها شروح ابن رشد على أرسطو في أوربا مع فارق واحد وهو إن الكنيسة لم تكن طرفا في هذه الحماسة الفكرية بل آراء أولئك الذين تأثروا بآراء المستشرقين. وهنا أحسن الاستشراق بكل ضروبه في أثارة الحماسةالخافتة كما أحسن ابن رشد في هزهزة الفكر الأوربي في القرون الوسطى وفي كونه السبب المباشر في نشوء الاستشراق الفعلي. وقد رأينا ان أثر ابن رشد على الفكر الأوربي كان عميقا. وقد رأينا أيضاً شدة دعوة بترارك للارتداد إلى اليونانية وتراثها بغضا بالرشدية والرشديين ثم رأينا معا أن الاستشراق الفعلي عند توماس الاكويني ولول ومارتيني قد اتخذ أسلوب الرجوع الى الأصول الاسلامية بترجمتها والرد عليها، ومن ثم الهجوم على مافيها ـ ثم رأينا معا أن سبب نشوءالمدارس كان في الأساس لتعلم لغة القوم وشريعتهم من أصولها، والهدف منه كان تنصيرياً.

ثم أننا لم نعالج بل وحتى لم نتطرق الى آراء أوائل المستشرقين الهولنديين أمثال اربينوس وخوليوس أو سكاليخر ومن تبعهم لأن كل هؤلاء كانوا امتدادا طبيعيا ومتطورا لمفاهيم القرون الوسطى الا أنهم أسدوا خدمات كبيرة للاستشراق الهولندي وذلك بارسائه على قواعد ثابتة في الدراسة والتناول والأسلوب. ثم أن المعلومات عنهم متوفرة وميسرة لمن يتجشم عناء البحث والدراسة.

وكما أحسن ابن رشد المسلم وابن رشد اللاتيني في إثارة الفكر الأوربي، وفي بعثه من الركود ومن ثم في نشوء الاستشراق الفعلي، فقد أحسن الاستشراق الى حد ما في خلق رد الفعل الفكري وخاصة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر في حركات سميت بـ«الاصلاح» (وهذا مصطلح لايصلح الا لحركة لوثر وإصلاح اصلاحه واعادة إصلاحه في البرتستانتية

ومذاهبها المتعددة)، وفي النشاط الفكري الذي ساد العالم الاسلامي لاظهار ضحالة المقلدين في بدايات القرن العشرين، فبدأت آراء أولئك المتأثرين بآراء المستشرقين تنحسر يوما بعد يوم وتبرز فوقها آراء تتسم بالاصالة والجدة والعمق العلمي. فرحم الله ابن رشد فقد سلك طريقا طويلا وشاقا وعرا ليساهم في نهضة الفكر الاسلامي المعاصر.

لايدن ــ هولندا ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ **الدكتور قاسم السامرائي**

الحمد لله وحده

ان افخر درر نظمتها يد الاقلام في سطور الطروس وازهى زهر تكللت به تيجان الربى فمايلت من طربها الرؤوس عرف تحيات تستمد لطفها نسمات الصبا وتتهادى بنشر اريجها اغصان الربى يخبر عن محبة مؤسسة رفيعة البناء وعوامل الاشواق تعرب عن افعال المدح والثناء تهدى لحضرة خلاص المجد ومعدن الفخار والحمد الخواجه الدكتور سنوك هرخرنيه طابت ايامه وعلت اقلامه ومقامه

فغي ابرك الايام وانفس الاوقات جاء الينا كتابكم الكريم الذي هو الطف من النسيم وارق من التسنيم ففرحنا به غاية الفرح وشكرنا سعيكم بالدعا والمدح ثم بعده بايام قلايل جاءت الجرايد السياسية اخبرنا بها الخواجه فندرسيس وغيره فمن اجل ذلك نرجو ان لنا منزلة عند ارباب الدولة الولندا بحسن الأسم والسيرة وحسن الرعاية الكاملة والمراعاة الحسنة والمحبة السالمة فانتم وسيلتنا الى ذلك وازيد مما هنالك واما اخبار حضرموت فقد حصلنا جواب من ولدنا من حضرموت فقال لنا ما عندنا علم هل شي من الاحجار المكتوبة ام لا وانما قال لنا بايفتش عن خبرها واذا وجدها يخبرنا بذلك فنحن ما يكن نسافر الا على يقين من حصولها واما مطلوبكم من مصنفاتنا فتراخي واصتلكم في الميل مع هذا الكتاب واكثرها بلغة ملايو بتاوي مع ركاكة المباني ولسنا اهلا للتصنيف ولكن الحاجة داعية فاذا عدم الماء ابيح التيمم فالذي صدر منا من الكتب كتاب اصلاح الحال في طلب الحلال كتاب النفاحة الوردية كتاب الزاهر كتاب نفايس النحلة في ادلة القبلة رسالة في دعوى الزوجين رسالة فيها سؤال وجواب في الكتابة كتاب سمط الشذور كتاب ترجمة الوثيقة قاموس صغير اداب الانسان جمعا كاملا جدول النكاح جدول الرضاع جدول الطلاق والعدة جدول التجويد جدول الموازين والحدود نرجو وصول ذلك اليكم وانتم بعافية وسرور وكتبنا قفا كل كتاب غالبا او رسالة الباعث على تصنيف ذلك فبعد ما تتاملون فيها واسبالكم الستر على كل عيب او خطأ فيها نطلب منكم ان تشهروا بما فيها من النفع والافادة والارشاد لرعايا دولة الاولندا من المسلمين كما هو من عادتكم ومحاسنكم السابقة لنا لكي تحصل كمال الاحسان من ارباب الدولة بواسطة هممكم الرفيعة وفضايلكم العميمة لازلتم اهلاً لمعالي الامور وندعو لكم ولاهل بلدكم بما هو الخير عند الله تعالى ودمتم معززين مكرمين مسرورين ولقد علمتم ان الكتاب نصف الملاقاة حرر في بندر بتاوي ٢٦ جنواري ١٨٨٦

الداعي لكم بخير جزيل
عثمان بن عبد الله بن عقيل
بن يحيى العلوي

(رسالة عثمان بن عبد الله بن عقيل إلى سنوك هورخرونيه)

تعليقات على رسالة عثمان بن عبد الله الى سنوك هورخرونيه:

اذا كان علماء ذلك العصر بمثل هذا المستوى في اللغة والنحو بله الشريعة، فكيف يعجب المرء أن يكون سنوك هورخرونيه «مفتي بتافيا» و«شيخ الاسلام في الجهة الجاوية» كما يظهر من مراسلاته الشخصية.

في السطر ١١ ــ ١٢: من رسالة الشيخ عثمان بن عبد الله بن عقيل العلوي يبدو أن سنوك هورخرونيه كان يبحث هو أيضا فيما كان يبحث عنه، عن الاحجار المكتوبة أو النقوش الأثرية. ولعل هذه الاشارة أول إشارة وثائقية موثوقة.

وعثمان هذا لعب دورا كبيرا في مساعدة الاستعمار الهولندي في اندنوسيا نتيجة صداقته لسنوك هورخرونيه وإيمانه ايضا بجدوى «الترابط الثقافي» ويظهر دور عثمان واضحا في توصيات سنوك الرسمية (١٥١٠/٢ وما بعدها) وفي اثناء هذه التوصيات وغيرها من كتب سنوك الذي اقترح تعيينه «مستشار شرف للشئون العربية(١٥١٣/٢) وكتب عنه: «أنه من واجبنا أن نوجه انتباهنا الى هذا الحليف لسلطتنا والذي سيكون في الوقت المناسب مفيداً لنا وراء الحسبان». وكان سنوك قد كتب هذا في سنة ١٨٨٦ ــ مباشرة بعد تركه مكة المكرمة.

انظر:

N R C, 14, 16 Oct. 1886 en Verspreide Geschriften, 4/69 - 85.

=) في السطر السابع: الاشارة الى الجرائد السياسية تعني «مقالة سنوك عن الشيخ عثمان في جريدة:

N R C: "Een Arabisch bondgenoot der Nederlandische Regeering"

تحت عنوان: «عربي حليف للحكم الهولندي».

=) الخواجة فندرسيس: هو القنصل الهولندي P.N. van der Chijs في جدة بعد كراوت، والظاهر أنه نقل الى بتافيا حينذاك.

=) كلمة «الميل» في السطر ١٢ تعني: "mailboot" أو سفينة بخارية.

=) الظاهر من توصيات سنوك: أن عثمان هذا منح وسام الاسد الهولندي فاتخذ أعداء عثمان (الذين حاربوا الحكم الهولندي) من هذا ذريعة للحطّ منه فاستحق لقب (صديق الكفار) (١٥١٧/٢) وقد دعا هذا الشيخ إلى قبول السلطة الهولندية على أساس «الشر الذي لابد منه». ووجدت الصحف فيه خيانة وبخاصة ثمرات الفنون البيروتية والمؤيد والمعلومات التي كتبت: «فلو بذل التضحية والموعظة الحسنة لابناء جنسه وغيرهم من المسلمين كاسلافه لقاومته الحكومة الهولاندية كما فعلت سابقا مع أمثاله ولطردته ولم تمهله ساعة واحدة ولكنه لما أظهر المصافاة والميل اليهم صار من المقربين لديهم».

(جريدة المعلومات: العدد ٣٨، ١٦ شوال ١٣١٥. (٩ مارت ١٨٩٨).

=) أما التماس الشيخ عثمان «أن تشهروا النفع والافادة .. لكي نحصل كمال الاحسان من أرباب الدولة» فقد حقق سنوك له كل هذه الآمال فصار يقبض ١٠٠ كلده شهريا وبصورة سرية من السلطات الهولندية في بتافيا (توصيات سنوك ١٥١٠/٢ — ١٥١١) وصار سنوك يكثّر الدعاية لكتبه:

"Op de nuttige strekking zijner geschriften heb ik reeds zoo dikwijls de aandacht gevestigd, dat het overbodig mag heeten, daarover in details nog uit te weiden". (Ambt. Adviezen, 2/1512).

ولما راى سنوك أن صديقه بدأ يفقد سلطته نتيجة الوسام الهولندي أوصى حكومته أن تستعمل كل مافي وسعها للحصول على وسام عثماني له من استانبول (١٥١٨/٢ ـــ ١٥١٩).

قائمة الحواشي والإشارات:

١) الدجوى، يوسف أحمد: الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف في الكتاب الشريف (القاهرة ١٣٣١/١٩١٣) صفحة ٢٢، ٧٠ . وانظر مقال محمود اسماعيل عن كارلايل في مجلة المؤرخ العربي، العدد السادس (بغداد ١٩٧٨) صفحة ١٥٨ ـــ ١٦٨. محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب (القاهرة ١٣٤٥ ـــ ١٩٢٧) صفحة ح من المقدمة. محمد عبد الله السمّان مفتريات اليونسكو على الاسلام، القاهرة ١٣٦٦/١٩٧٦ ص: ٧٠، محمد كرد علي: المذكرات (دمشق ١٣٧٠) ٤/١٣١٥، وانظر كذلك الاسلام والحضارة العربية، القاهرة ١٩٥١/١٩٣٧، ١/٦٤؛ Brown, E.L, A year amongst the Persians, London 1893, P. 84.

2) Carlyle, T., On Heroes, Hero - Worship and the Heroic in History, (London 1935),P.57.

3) Renan, E., Histoire general et systeme compare des langues semitiques, (Paris?), P.165.

خلاصة آراء رينان تتضح في محاضرته «الاسلام والعلم» التي ترجمها المهندس علي يوسف ـــ رحمة الله ـــ الى العربية (مع رد المسيو مسمر على رينان) بعنوان «دين الاسلام والعلم» القاهرة دون تاريخ. في ٦٨ صفحة مع فذلكة عن تاريخ حياة رينان وفلسفته.

4) Calvani, V., Lost Cities, (Spain 1976), P. 129.

٥) يوسف القرضاوي: الحلال والحرام في الاسلام (نشرة الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ـــ شتود كارد ١٣٩٨ ـــ ١٩٧٨)، صفحة ٣٩.

٦) مصطفى الخالدي وعمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية (الطبعة الثانية ـــ بيروت ١٩٥٧) صفحة ٢٠٠، وانظر ايضا:

Trevor - Roper, Hugh, The Rise of Christian Europe, (Norwich - England 1978), P.92-3.

٧) طه حسين: في الأدب الجاهلي، (القاهرة)، صفحة ٩ ـــ ١١ .

٨) نجيب العقيقي: المستشرقون، (القاهرة ١٩٦٤ ـــ ١٩٦٥)، ٣/١١٢٧.

٩) المصدر نفسه: ١/١٣٣ ـــ ٤.

10) Peers, E.A., Ramon Lull - a biography, (London 1929), P. 40.

١١) ابن رشد والرشدية، ترجمة عادل زعيتر،(القاهرة ١٩٥٧)، صفحة ٢٦٧.
١٢) جريدة الجزيرة (الرياض ـــ المملكة العربية السعودية) العدد ٢١٤٥، الجمعة ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٩.

13) Carlyle, P. 83.

١٤) ابن رشد الرشدية، صفحة ١٠٥ ـــ ١١٥، اسماعيل مظهر: تاريخ الفكر العربي، (القاهرة ١٩٢٨) صفحة ١٧٥.
١٥) ابن رشد والرشدية ٢٢١، وانظر كذلك:

Danniel, Norman, The Arabs and Mediaeval Europe, (London 1975), P. 275;"John of Salsbury, the best Latinist of the twelfth Century, hardly refers to Arabic sources".

١٦) ابن رشد والرشدية، صفحة ٢٢١، وعن هرمان الألماني ٢٢٧.
١٧) حياة محمد، صفحة ٩.
١٨) المصدر نفسه: صفحة ١٢؛ ومثل هذا عند قاسم أمين ـــ بطل تحرير المرأة ـــ ان جهل بعضهم أحوال بعض كان بسبب اختلاف الدين جعل العداوة تستمر أجيالاً بين أهل الشرق والغرب. انظر: الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ٤/١.
١٩) كذلك.
٢٠) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، (القاهرة ١٣٤٣ وما بعدها)، ٢٠١/٩، وانظر: التبشير والاستعمار، صفحة ٢٦.
٢١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، (القاهرة ١٣١٧هـ ، صفحة ١٢١.

22)Mac Kay, A., Spain in the Middle Ages (London 1977), P.22; "indeed an older generation of historians also identified the activities of Clunic monks with the policies of Gregory Vll and with the origin of the crusading movement agatnst Spanish Islam".

Gregory was pressing Alfonso Vl to replace the Muzarabic or Visigothic liturgy with the Roman rites; P. 23.

23) Castro, Americo, The Structure of Spanish History, (Princeton 1954), PP. 130 - 8; 162.

24) Mac kay, P. 21.

٢٥) المستشرقون ١/١٢٢ ــ ١٢٣.

٢٦) المصدر نفسه: ١ /١٢.

٢٧) أفادني هذه المعلومات الزميل الدكتور شورد فان كونكزفيلد بجامعة لايدن، فله أجزل الشكر والامتنان.

28) The Rise of Christian Europe, P. 145;

29) Barraclough, G., the Medieval Papacy, (Norwich - England), P. 91; Mac Kay,p. 23.

٣٠) هذه وجهة نظر المبشرين، انظر: التبشير والاستعمار٣٦.

31) Brugman, J. and F. Schroder, Arabic Studies in the Netherlands, (Leiden 1979), P. 11.

32) Ibid., P. 26. (Albert Schultens d. 1750).

٣٣) المستشرقون، ١/٩٨، ١١٣ ــ ١١٦.

34) The Medieval Papacy, P. 38 - 40; The of christian Eutope, PP. 63, 137 - 8; Southern, R.W., Western Views of Islam, (Cambride - Mass. 1962), P. 92; cf. his other work: Western Society and the Church in the Middle Ages (Penguin Book 1975), PP. 92 ff.

35) Addison, J.T., A Christian Approach to the Moslem, (N.Y. 1942),P.67.

35A) Cohn,N. the pursuit of the Millennium, London etc., 1978, P. 80.

36) Jaliluddin, Ahmad Khan, Secularism, a reaction to the experience of the Christian Church, (Riyad 1378), P. 22; The Rise of Christian Europe, PP. 21, 63.

37) Western Society and the Church in the Middle Ages, P. 20 - 1.

38) Jaliluddin's Secularism etc. P. 41.

39) The Medieval Papacy, P. 25.

40) Stephenson, C., Mediaeveal History, (4th ed. Japan after 1967), P.249.

41) Ibid., P. 257; de Bruin, C.C, Handboek der KerK Geschiedenis,(Den Haag 1965), 2/81.

42) The Rise of Christian Europe, P.64 - 5.

43) Dagobert d. Runes, Crosscut Through History, (N. Y. 1965), PP.108 - 110; The Rise of Christisn Europe, P. 92 "if the Vikings were the pioneers, the princes of Europe, or some of them, were the middlemen of the new slave - trade".

44) Crosscut Throygh History, P. 111.

45) Ibid., PP. 52, 75.

46) Pirenne, H., Mohammed and Carlemagne, (London 1974), PP. 71 - 3.

نشر هذا الكتاب (محمد وشارلمان) بالفرنسية وطبع أكثر من عشر طبعات ومن الطبعة العاشرة ترجم الى الانكليزية وطبع ست طبعات أولها سنة ١٩٣٩ وأخرها في لندن سنة ١٩٧٤.

47) Cach, W.W., Christendom and Islam, (N.Y. 1937), P. 118.

48) Lea, H.C., A History of the Inquisition of the Middle Ages , (N.Y. 1955), 3/616; Western Society and the Church in the Middle Ages, P. 102.

49) Lea, H.C., History of the Inquistion in Spain, (N.Y. 1907), IV/307; cf. Lea's former work (note 48) 3/569: "it was safe to discuss the power of God than that of the popes".

50) Lea, 111/549: "the inquistion was constantly applied for the furtherance of obscurantism, the repression of thought; the exclusion of foreign ides, and the obstruction of progrees"; IV/313.

51) Ibid., 1/66 - 7, 83; Turberville, A.S., Mediaeval Heresy and the Inquisition, (London 1964), PP.8, 16, 62.

52) The Rise of Christian Europe, P. 96.

53) Crosscut through History, PP. 53, 62, 70.

54) Lea, A History of the Inquisition 111/322; (NT. Math. 7:6.)

هذا اقتباس من العهد الجديد متى ٧:٦ «لا تعطوا ماهو مقدس للكلاب ولا ترموا دركم للخنازير لئلا تدوسها ثم تعود لمهاجمتكم».

عن محنة الموريسكو مع محاكم التفتيش، انظر ماكتبه:

Lea, A Hist. of the Inqui. in Spain, 1111/317 - 410-

= Moriscos of Spain, their conversion and expulsion, (Philadephia 1911).

55) A Hist. of Inqui. in Spian, 1111/320; Dickens, A.G., The Counter Reformation. (Spain 1977), P. 48 - 50.

«خمينز ضاعف الضغط على المسلمين وأحرق كتبهم»

وانظر: ابن رشد والرشدية، صفحة ٩٤، حيث ورد: «ولنلاحظ أن مجموعة الاسكوريال لم تكن مما تركه عرب الاندلس خلافا لما يعتقد وانما أتى معظمها من السفن المراكشية التي غنمت في سنة ١٦١١ وقد قضى الحريق سنة ١٦٧١ على نصفها تقريبا».

56) A Hist. of Inqui. in Spain, 1/64, "the church has always held the toleration of others to be persecution of itself"; A Hist. of the Inqui. of the Middle Ages, 1/135.

57) A Hist. of Inqui. in Spain, 1/55 - 6; Daniel, N., Islam and the West, (Edinburgh 1960), P.115.

58) A Hist. of the Inqui. of the Middle Ages, 1/129 ff, 208; Addison, P. 55. "incerasing their efforts to keep the christians separated form the Moors".

59) France, J., The First Crusade and Islam, ('MW, vol. LXVII, Oct. 1977, on. 4), 248; Islam and the West, P. 113, "the blood of the slaughered prisoners' came up to the horses' knees"... "it would be the duty of the christians to fight against them, and to cleanse the earth".

60) Tuberbille, A.S., Mediaeval Heresy, P. 172; A Hist. of the Inqui. of the niddle Ages,1/66 - 7.

61) Mohammed and Charlemagne, P. 148; Macdonald, D. "Whither Islam" in (MW. vol. 23, Jan. 1833), P.2; Said, Edward W., Orientalism, (London 1978), P. 62.

٦٢) ابن رشد والرشدية، صفحة ٧٣.

٦٣) كتاب الملل والنحل: تحقيق عبد العزيز الوكيل (القاهرة ١٣٨٧ ــ ١٩٦٨)، ٢٩/١.

٦٤) الاصفهاني: أبو نعيم، حلية الأولياء، (القاهرة ١٣٩١ ــ ١٩٧١)، ١٨١/٩.

٦٥) الملل والنحل، ١٠٤/١.

66) Grunebaum, von G.E., The Structure of Islamic Civiliztion, (Der Islam, 46, 1970), P. 31; (وانظر: الفهرست لابن النديم، صفحة ٣٤١ ــ ٣٤٣.)

٦٧) تاريخ هلال الصابي، (القاهرة ١٣٣٧ ــ ١٩١٩)، صفحة ٤ ــ ٥: حاشية(١).

٦٨) اختلاف اللفظ والرد على الجهمية: نقلا من كتاب «زبدة بنت الحارث» لمحمد قطب، (القاهرة ١٣٩٩ ــ ١٩٧٨)، صفحة ٢٠.

69) Dozy, Hist. d. Musulman en Esp. 11/184; Mohammed and Charlemagne, P.173.

٧٠) ابن رشد والرشدية، صفحة ٢١٤.

٧١) المصدر نفسه، صفحة ٢١٤ ــ ٥.

٧٢) نقلا من كتاب «المستشرقون» للعقيقي ١١٥٧/٣.

٧٣) المستشرقون، ١١٤/١.

74) Ch. Dichl et G. Marais, Hist. des Moyen age, 3/322.

75) Western Views of Islam, P. 39, 97; Tuberville, P. 72, "have their central idea

apostasy, Which as a rule tales the form of converison to Mohammadanism''.

٧٦) ابن رشد والرشدية، صفحة ٢٣٥.

77) A Hist of the Inqui. of the Middle Ages, 1/129.

78) See f.n 112, B. Lewis: British Contribution etc.

79) The Rise of Christian Europe, P. 147 ff; Daniel, The Arabs and Mediaeval Europe, P. 162 - 3, ''Pope alleged that he (a Hafsid amir wanted to be baptized, but was prevented by Frederick''.

80) Stephenson, C., Mediaeval History, P. 305.

81) A Hist. of the Inqui. of the Middle Ages, 111/552 - 3.

82) Knowles, D., The Evolution of Medieval Thought, (Lodon 1963), P. 226ff; ''neither the writings of Aristotle on natural philosophy nor their commentaries are to be read at Paris in public of private, and this we forbid under penalty of excommunication''. This took ploce in the year 1210: twenty years before the translation of M. Scott appeared. (قارن: ابن رشد والرشدية، صفحة ٢١٨.)

٨٣) هذا القول لفليب حتي كما ورد في: التبشير والاستعمار، صفحة ٢٢٤.

84) A Hist. of the Inqui. of the Middle Ages, 111/596 - 611.

85) Zwemer, S.M., and Cantine, J., The Golden Milestone - reminiscences of pioneer days, fifty years ago in Arabia, (N.Y. - London MCMXXXVIII), PP. 141 - 3.

انظر ما كتبه الامير شكيب أرسلان عن زويمر في حاضر العالم الاسلامي (القاهرة ١٣٥٢) ١/٢٧٨ — ٢٨٢

86) De Religieuze Projectie:

حيث وضح الأستاذ فوكه سيركسما أن الأنسان يحاول دائبا أن يلصق مابه من صفات خلقية بغيره وهو كثيرا مايصور ذاته ويعكس مفاهيمه الخلقية على الاخرين لتبرير تصرفاته.

87) ''Whither Islam'' of Macdonald in'' MW'', P.2.

88) Said, E.W., Orientalism, P. 75.

89) The Golden Milestone etc., P. 116.

90) Orientalism, P.80 - 1.

٩١) تقرير سري يتعلق بالوضع السياسي والاجتماعي والديني لاقليم أجي الاندنوسي قدمه سنوك هورخرونيه الى الحاكم الهولندي العام. وهو من وثائق وزارة المستعمرات الهولندية ومحفوظ الأن في دار الوثائق الوطنية بمدينة آرنهم ويقع في ١٣٧ صفحة.

وينوى الدكتور شورد فان كونكزفيلد نشره وربما ترجمته للأنكليزية. وينوى الاستاذ اسكندر ترجمته الى اللغة الأجية ونشره في اندنوسيا، كما أخبراني.

92) Orentalism, P. 85.

93) Islam and the West, P. 235.

94) Our Moslem Sister - a cry of need from Iands of darkness, ed. Annie van Sommer and S.M. Zwemer, (N.Y. 3rd. ed. 1907), P. 5 - 6.

انتحل صموئيل زويمر اسم «ضيف الله» حين كان مبشرا في البحرين ضمن البعثة التبشرية للعرب الا أن البحرينيين كانوا يدعونه — كما يروي زويمر نفسه — «ضيف الشيطان» بيد أنه كان يحلو له أن يسمى نفسه: «فاتح البحرين». انظر كتابه السابق في رقم (٨٥)، صفحة ١١٤.

95) The Apology of al - Kindi, (London 1887), P. 43, n. 1; Addison, P. 28.

96) The Holy Bible, revised standard version (Toronto, N.Y., Edinburgh 1952); the Arabic tr. of Bairut 1952.

97) Wells, G.A. The Jesus of the Early Christians - a study in Christian origin, (London 1971)

98) Robertson, Archibald, The Bible and its Background, 2 Volas, (London 1942).

99) Ibid., 2/121ff.

100) Islam and the West, PP. 6 and 12; 238.

101) Simon, G., Luther's Attitude towards Islam, (MW, July 1931),P. 259.

١٠٢) ابن النديم: الفهرست، صفحة ٣٣.

١٠٣) مجلة الهلال (عدد خاص عن القرآن — ديسمبر ١٩٧٠، شوال ١٣٩٠): القرآن والمسيحية

104) Islam and the West, PP. 55, 66, 77, 78.

105) Ibid., P.50.

106) Southern, The Making of the Middle Ages, (London 1973), P. 40.

107) Sarton, G., The Incubation of Wesern Culture in the Middle East, (Arabic tr. by Omer Farrukh - Bairut), P. 28.

108) Islam and the West P. 103.

109) Ibid., Intro. P. 1.

110) Daniel, N., The Arabs and Mediaeval Europe, (London 1975);

- Islam and the West - the making of an image, (Edinburgh 1960),

- Said, Edward, W., Orientalism, (London 1978),

- Southerm, R.W., Western Views of Islam in the Middle Ages (Cambridge - mass. U.S.A. 1962),

- Tibâwî, A.L., English Speaking Orientalists, (Islamic Ceintre - Geneve 1385 - 1965).

نشر ملحقاً بكتاب: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار للبهي. بيروت — ١٩٧٣ (الطبعة السادسة) ص ٥٧٨ — ٦١٢.

111) Klibansky, R., The Continuity of the Platonic Tradition during the Middle Ages, (London 1939), P 15: "a Greek text would be first translated into Syriac and from thence into Arabic".

112) The authority "mighy be the citation of philosophers of raher secular Writers, but more often it meant Scripture, and, second to Scripture the Fathers". cf.Islam and the West, P. 253. For the citation, see The Arabs and Mediaeval Europe, P. 266; Lewis, B., British Contribution to Arabic Studies, (Oxford 1941), P. 11; Knowles D., The Evolution of Medieval Thought,P. 180

113) Lewis, B., op. cit., P. 10.

114) Mac Kay, N., Spain in the Middle Ages, (London 1977), P. 81 - 2,quohing E. Grant's ed. of "A Source Book in Medieval Science" Cambridge - mass. U.S.A. 1974), P. 35.

115) Pirenne, H., Economic and Social History of Medieval Europe, (9th ed. London 1972), PP. 45 - 50; Stephenson, C., Mediaeval History, 269ff.

116) Mediaeval History, P. 274 - 5.

117) Pirenne, op. cit., P. 43

118) Mediaeval History, P. 294 - 5.

119) Ibid., p. 296.

120) Ibid., P. 300; Knowles, op. cit., P. 125.

121) Ibid.

122) Ibid.

123) Ibid., P. 301.

124) Konwles, op. cit., P. 127; A Hist. of the Inqui. of the Inqui. of the Middle Ages, 111/559.

١٢٥) قانون التأويل: نشره عزت العطار الحسيني)القاهرة ١٩٤٠)، صفحة ٩ ـــ ١٠ نقلا من كتاب بين الدين والفلسفة لمحمد يوسف موسى (دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩)، صفحة ٩٢ ـــ ٩٣.

126) Sarton, G., op. cit., PP. 51, 55, 69;A Hist. of the Inqui. of the Middle Ages, 1/57-8.

127) A Hist. of the Inqui. etc. 1/57 - 8.

128) Ibid. 1/58; Addison, oo cit. P. 35.

129) Addison, op. cit., p. 35.

130) A Hist. of the Inqui. etc. 1/58; ابن رشد والرشدية، صفحة ٢٣٣.

131) Ibid., 111/558.

132) Ibid.

١٣٣) ابن رشد والرشدية، صفحة ٣٠٣.

١٣٤) المصدر نفسه، صفحات ٣٠٧، ٣٤٥.

١٣٥) المصدر نفسه، صفحة ٣٣٨.

136) The work of Edward, W. Said: Orientalism, deals as well with this point.

137) Presser, J., Das Buch "De Tribus Impostoribus", (Amsterddm 1926);

وانظر: ابن رشد والرشدية، صفحة ٢٠٦ ـــ ٢٠٧.

138) A Hist. of the Inqui. etc., III/560.

١٣٩) ابن رشد والرشدية، صفحة ١٧٣.

١٤٠) القول لابي سليمان السجستاني: اورده ابو حيان التوحيدي في الامتاع والمؤانسة (القاهرة ١٩٣٩)، ٣/١٨٨ ـــ ٩.

١٤١) الغزالي: قانون التأويل، (القاهرة ١٩٤٠)، صفحة ٨٠ وانظر كذلك:

Mediaeval Heresy of Turberville, P. 61.

١٤٢) محمد يوسف موسى: بين الدين والفلسفة، صفحة ٩٥ ـــ ٦.

143) Turberville, op. cit., P.62.

144) Ibid.

145) Lecky, W.E.H., History of the Rise and Influence of the Spirit of Rationalism in Europe, (London 2nd. ed 1865), 1/53 - 4.

146) Turberville, op. cit., P. 66, "Archbishop Peckham".

147) Ibid., P. 65.

148) Ibid., P. 66.

149) De bruin, C.C., Handboek der Kerk Geschiedenis , 2/167.

150) AHist. of the Inqui. etc, 111/556.

151) Peers, E.A., Ramon Lull - a biography, (Lodon 1929), P.346.

152) A Hist. of the Inqui. etc, 11/420ff, 111/556.

153) Ibid., 111/557.

154) Ibid.

155) Gilson, E., The Spirit of Mediedval Philosophy, (London 1930), P. 15.

156) Knowles, op. cit., P.252 - 3; ابن رشد والرشدية، صفحة ٢٨٠ — ١

١٥٧) ابن رشد والرشدية، صفحة ٢٨٦.

١٥٨) المصدر نفسه: صفحة ٣٠٦ — ٧.

159) Stephenson's Mediaeval History, PP. 569 - 572.

١٦٠) ابن رشد والرشدية، صفحة ٤٨ — ٩.

161) Stephenson, op. cit., P. 569; Knowles, op. cit., P. 296ff.

١٦٢) ابن رشد والرشدية، صفحة ١٥١ — ٣.

١٦٣) المصدر نفسه: صفحة ٢٥٨ وانظر كذلك:

Southern's Western Views of Islam, P. 72, n.12.

164) Addison, op. cit., P. 55.

١٦٥) المستشرقون للعقيقي: ١/١٣١.

166) A Hist. of the Inqui. etc., 1/355.

167) Vocabulista in Arabico, (Firenze 1871), ed. C. Schiaparelli, PP. xvl - xcil.

168) A Hist. of the Inqui. etc. 111/565.

169) Ibid. 11/108 - 9, 111/565ff.

170) Ibid. 111/564; ابن رشد والرشدية، صفحات ٣٤٣، ٣٦٨

171) Turberville, op. cit., P. 71 - 2.

172) Ibid. P. 71; A Hist. of the Inqui. etc. 111/564.

١٧٣) ابن رشد والرشدية، صفحة ٣٨٨.

١٧٤) المصدر نفسه: صفحة ٣٩١.

١٧٥) المصدر نفسه: صفحة ٣٩٥.

١٧٦) فصل المقال: تحقيق جورج حوراني (لايدن ١٩٥٩)، صفحة ٨ — ٩.

177) A Hist. of the Inqui. etc. 111/568.

١٧٨) هذا عنوان الكتاب الذي كتبه زويمر بالأنكليزية عنه وترجمه خليل افندي رزق للعربية وطبع في القاهرة سنة ١٩٢٠.

١٧٩) المصدر نفسه: صفحة ٦٤.

١٨٠) المصدر نفسه: صفحة ٤٢.

181) Addison op. cit., P. 45 and 47. "the orginization of a unified military order to engage in armed propaganda"; cf. Islam and the West, P. 119. Peers. op. cit., P. 318 and 340.

182) Southern's Western Views, P. 68.

183) Islam and the West, P. 118.

184) Ibid. P. 114; A Hist. of the Inqui. etc. 1/129 - 208.

185) Islam and the West, PP. 112 - 3, 183.

186) Dirksen, P.B., Geen Zending onder Moslims in Nederland, in "VOORLOPIG" (sept. 1978, no. 9) PP. 253 - 275.

"Juist voor de Moslims in Nederland zal echter de naastenliefde,geinspireerd door de van Gode voor ons allen, de best en meest adquate erflectie van deze boodschap zijn".

187) Turberville, op. cit. P. 153.

188) Islam and the West, P. 116 - 7; Addison, op. cit., P.55.

189) Ibid. P. 117.

190) Addison, op. cit PP. 69 - 78.

وفي سنة ١٥٩٦/١٠٠٥ هـ وبعد مكوثه في البلاط المغولي اثنتي عشرة سنة، قدم القسيس والمبشر الكاثوليكي الجزويتي زيرونيمو زفير كتابه «آينه حق نما» (مراة الحقّ) الذي كتبه بالفارسية لتفنيد الاسلام واثبات أن النصرانية الكاثولكية أحق أن تتبع وقدّمه إلى جهانكير داعيا اياه الى اعتناق النصرانية وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في كمبردج Queen's College ونشر المبشر ساميول لي مختصرات منه ومن رد أحمد بن زين العابدين العلوي عليه مع ترجمتها إلى الانكليزية في كتابه.

Samuel Lee, Controversial Tracts on Christianity and Mohammedanism, (Cambridge 1824), (pp. v- cxvii), cf. as well, Islam and the West 119 abut Tunis.

191) P, SJ. van Koningsveld, 'Dogmatiek en Godsdienstwetenschap' published in (Honderd Jaar uit Egypte - Leiden 1979), P. 42.

192) Southern's Western Views, P. 73.

193) Islam and the West, P.118.

194) Ibid., P.380.

195) The Arabs and Mediaeval Europe, P. 310 - 1; Peers, P. 41ff.

196) Islam and the West, P. 118.

197) Peers, P. 35 - 6.

198) Ibid., P. 36.

199) Ibid., P. 75.

200) Ibid., P. 70.

٢٠١) ابن رشد والرشدية ص ٢٧٠.

202) Peefs, op. cit. pp. 70 - 1, 31ff.

203) Ibid., P. 347.

204) Islam and the West, P. 258.

205) Peers, op, cit., P. 371.

206) Islam and the West, 258.

207) Ibid., P. 280, n. 18.

208) A Hist. of the Inqui. etc. 111/579.

209) Peers, op. cit., P. 350 - 2; A Hist. of the Inqui, etc. 111/580 -1-.

210) A Hist. of the Inqui. etc. 111/581; Southern's Western Views, P.72.

211) Juynboll, W.M.C, Zeventiende - eeuwsche Beofenaars van het Arabisch in Nederland, Utrecht 1932.

212) Vogel, J, Ph., The contribution of the University of Leiden to Oriental research, Leiden 1954.

213) Pijper, G.F., Islam and the Netherlands, Leiden 1957.

214) Brugman, J. and F. Schröder, Arabic Sutdies in the Netherlands, Leiden 1979.

215) Fück, J., Die Arabischen Studie in Europa bis in den anfängen des 20 Jahrhunderts, Leipzig 1955. see as well: Nat, J., De Studie van de Oostersche Talen in Nederland in de 18e en de 19e Eeuw, Purmerend 1929; Waardenburg, J., L'Islam dans le miroir de l'Occident, Den Haag 1963.

٢١٦) المستشرقون، الفصل الثاني عشر ٢/٦٤٤ ـ ٦٧٧.

٢١٧) المصدر نفسه: ٢/٦٦٦.

218) Brugman, J., Godsdienstgesprekken tussen Christenen en Moslims in de vroege Islam

(Oosters Genootschap in Nederland 2), Leiden 1970, P. 38 - 9; cf. Addison, P. 17, where a similar view is found.

219) Said, E. Orientalism, P. 121.

220) Ibid., PP. 121 - 2, 263.

221) Pijper, G.F. Islam and the Netherlands, P.9 - 10.

222) Ibid., P. 11.

223) Ibid., P. 12.

224) Arabic Studies in the Netherlands, P. 45.

225) Ibid.

226) Ibid., P. 44.

227) Characteristics of Islam on the Indo - Pakistan subcontinent, pp. 50 and 61, in (Studies on Islam - a sumposum on Islamic Studies orginized in co - oporation with the Accademia dei Lincei Rome), Amsterdam - London 1974.

وهذا ما دعا اليه صموئيل زويمر من قبل.

see: L. Vander Werff Christian Mission to Muslims, U.S.A. 1977, P.248.

228) a: Two Lists of Prophets Re - Examined, in: Islamic Studies, Pakistan, vol. XVI, no, 3, 1977, PP. 189 - 216.

b: How a Western Scholar Inerprets Islamic prohetic Tales, Leiden 1979.

c: A Sharh or a Shadkh? in: Islamic Studies, Pakistan, vol. XV111, no.3, 1979, pp. 225 - 273.

229) Brugman, J. De Betekenis van het Mohammedaanse Recht in het Hedendaagse Egypte,('s - Gravenhage 1960), still in Dutch only.

230) Said, E., Orientalism, P. 255 - 6, quoting "Selected works of Snouck Hurgronje, ed. G.H. Bousquet and J. Schacht, Leiden 1957, P. 267".

231) Dreewes, G. W. J., The Legatum Warnerianum of Leiden University Library in: Lelinus Warner and his legacy, Leiden 1970, p. 28. More information of such sort: Jaarverslagen 1934 - 40, iv, Oosters - Instituut, p. 16ff.

232) Arabic Studies in the Netherlands, p. 46.

233) Jaarverslagen 1934 - 40, iv, Oosters Instituut, Leiden 1941, p. 19.

234) Arabic Studies in the Netherlands, p. 45.

235) Leidsch Dagblad, Zat. 17 XI 1979.

236) Vogel, op. cit., p. 12.

237) K. van der Maaten, Snouck Hurgronje en de Atjeh Oorlog. 2 vols. Leiden 1948, 2/104.

238) Vogel, op. cit., p. 12.

239) Arabic Studies in the Netherlands, p. 46.

240) Cf. Verspreide Geschriften, (Bonn - Leipzig 1923), 3/13.

241) Le Temps, 5 July 1885.

242) Gobee en C. Adriaanse, Ambtelijke Adviezen van C. Snouck Hurgronje, 's -Gravenhage 1957, Vol. 1/introd. p. X.

243) Cf. MS. Or. 71111 in the Univ. Lib. of Leiden.

وهناك رسالة أخرى من رادن أبو بكر مؤرخة في ١٨ رجب ١٣٠٢ (٣مايس ١٨٨٥) مرسلة من جدة الى مكة حيث دعاه فيها أبو بكر بـ «أخينا في الله».

244) De Atjehers, Batavia - Leiden 1894, 2/305.

245) Arabic Studies in the Netherlands, p. 42.

246) K. Van der Maaten, Snouck Hurgronje en de Atjeh oorlog, Leiden 1948.

247) Amtelijke Adviezen van C. Snouck Hurgronje, 1/Introd. p. XII.

248) Ibid., 1/95.

249) Wertheim, W, F., Counter - insurgency at the turn of the century - Snouck Hurgronje and the Acheh War, In: Sociologische Gids, no, 19, 1972, Sept - Dec., p. 324.

250) Drs, B. Cox (oud - resident in het voormalige Nederlands Indi) ; in: "Leidsch Dagblad, 28 Nov. 1979".

251) Dr. J.J van de Velde, "NRC - Handelsblad 26 januari 1980".

252) Wertheim, op. cit, p. 325 citing Gobee and Adriaanse, op. cit., p. 253.

253) Ibid., p. 326 - 7.

254) Ibid., p. 328.

255) Arabic Studies in the Netherlands, p. 44, quoting: Snouck Hurogronje's **Nederland en de Islam,** Leisen 1911, PP. 83, 101.

٢٥٦) في رسالة أرسلها محمد بن صالح بن عمر من سمارنج، مؤرخة في ١٠ نوفمبر ١٨٩٣ يطلب منه التدخل في إصلاح ذات البين بين فريقين حول مسجدٍ: «نرجو منكم المعونة والاعانة على الاسلام... وأنتم ياأخي لايخفى أنتم أخي في الدنيا والأخرة، نرجو الاصلاح في أمور المسلمين».

وفي رسالة أخرى مؤرخة في ١٩ مارت ١٨٩٨ من بندر شربيون «الى جناب المكرم المحترم الفاضل شيخ الاسلام (في) الجهة الجاوية الحاجي عبد الغفار متع الله بحياته، آمين».
اضافة الى هذه الرسائل التي تتعلق بتأييد شرعية المسجد الجديد أو بطلانه فان هناك رسائل حول الموضوع نفسه بالعربية والملاوية من الكثير من العلماء وخاصة من صديق سنوك هوخرونيه الشيخ عثمان بن عبد الله بن عقيل بن يحي العلوي الحليف المخلص للسلطة الهولندية. وقد وجدت هذه المشكلة صدى في جريدة «معلومات» الاستانبولية (العدد ٤٦ الصادر في ٢٥ ذي القعدة ١٣١٥ للهجرة). وقد تبع سنوك هورخرونية نصيحة صديقة في عدم شرعية الصلاة بالمسجد الجديد. انظر:

Verspreide Geschriften, 1/pp. 426 - 431.

Ambtekijke Adviezen, op. cit., 1/pp. 823ff; 2/p. 1627.

وبعد أن أيد رأيه بعدم شرعية الصلاة بالمسجد الجديد (بالرغم من فتوى العلماء في مكة بجوازها) معتمدا على فتوى صديقة عثمان العلوي انهى «شيخ الاسلام ومفتي بتافيا الشيخ سنوك هورخرونيه فتواه بالتوصية» بـ : «أن هذا البنكولو (العالم ومؤيد المسجد الجديد) كما يظهر لي يستحق التعنيف الصارم».

٢٥٧) أبو الحسن على الندوي: القادياني والقاديانية، جدة ١٣٩١هـ ، صفحة ٩٦ ومايليها.

وقد نصح سنوك هورخرونيه بالسماح لجماعة الأحمدية القاديانية بالعمل في اندونيسيا لأنها جماعة لاخطر منها سياسيا. انظر: Ambtelijke Adviezen, 2/1108ff.

٢٥٨) صموئيل زويمر: ريموند لول، أول مبشر بين المسلمين، صفحة ٤٢.

٢٥٩) المصدر نفسه :

260) "Wat willen de Moslims vandaag de dag?", (de Volkskrant, Zat. Sept. 1979). door Prof. Dr. Anton Wessels, "Islamoloog en hoogleraar aan de Vtije Universiteitvan Amsterdam", while no mention was made of the official function of his chair; "zendingswetenschap". (كرسي علم التنصير)

261) Cf. Cod.Or. 8952 in the University Library - Leiden (Dept. of Eastern MSS).

262) Kraemer, Hendrik, The Christian message in a non - Christian World, London 1938. 2nd de. 1947. (كانت خطة كريمر أن تتوجه أوربا الى إفناء المسلمين بعد النازية)

263) Boland, B.J., The Struggle of Islam in Modern Indonesia 's - Gravenhage 1970, p.236.

264) Kraemer, op. cit., p. 353, cf. Boland, op., p. 240,n. 146.

265) The Rise of Christian Europe, op. cit., p. 174ff; cf. Lea, A Hist. of the Inqui. of the Middle Ages, general index under "Jews", 111/702.

266) Anton Wessels's article, op. cit., in f.n (260).

267) Pijper, G.F., Islam and the Netherlands, p.7, quoting: A. Kuyper's om de oude wereldzee, Amsterdam, n.d. 2/1.

268) Vam koningsveld, Snouck Hurgronje Zoals hij was, f.n 6, "Over de algehele kerstening van Indie, bij Kuyper een vanzelsprekend doel van diens koloniale politiek...", De Gids, nr. g/10, 1980, p. 781.

في محاضرة فان كونكزفيلد: «سنوك هوخرونيه كما كان» ذكر المحاضر في حاشية (٦): «أن تنصير الهند (الهولندية) جميعها كان هدفاً مفروغا منه في سياسة كاوبر الاستعمارية».

269) Algemene Rijksarchief, Tweede afdeling, collectie A.F. Savornin Lohman, nr. 692: brief van Snouck Hurgronje aan de S. Lohoman d.d Leiden 19XI 1913.

لقد نقلت أجزاء رسالة هوخرنية للوزير لومان من نص محاضرة الدكتور فان كونكزفيلد وباذن منه.

270) De Nieuwe Rotterdamsche Courant van 20 Mei 1915, gen. in Verspreide Geschriften, deel IV: 2, p. 405 - 6.

271) Bevolkingsregister te leiden.

272) Ambtelijke Adviezen, 2/1076.

273) Snouck Writes: " My **tawâf** of first arrival... was the great event in my life, the beginning of a mediaeval dream that was to be continued for eight months and a half..." **Jaarverslagen** 1934 40, op. cit., p. 4.

٢٧٤) تحتوى الصحف العربية: (المؤيد، المنار، اللواء، السلام وكلها مصرية والمعلومات وطرابلس التركية، وثمرات الفنون البيروتية ومصباح الشرق القاهرية) على الكثير من مقالات الاحتجاج على الحكم الهولندي والتي تتميز ــ بشهادة سنوك هورخرونيه ــ بالمعلومات الصحيحة.

275) Ambtekijke Adviezen, 2/1666.

276) Ibid., 2/1532.

من النص الهولندي يظهر أن عثمان لم يسرع بنفسه للحاكم العام وانما الى شخص آخر قام باعلام الحاكم. وهل هذا الآخر غير سنوك؟

277) Ibid., 2/1620.

٢٧٨) انظر مقدمة تحقيقي لكتاب الإنباء في تاريخ الخلفاء لابن العمراني، القاهرة ــ لايدن ١٩٧٣.

٢٧٩) انظر مقال فاروق شوشة: لغتنا الجميلة ــ هل هي لغة عصرية ؟مجلة الفيصل السعودية العدد الثاني ــ السنة الأولى (شعبان ١٣٩٧ ــ يوليو ١٩٧٧ صفحة ٢٨).

فهرس الموضوعات

الفصــل الثــاني

الفصــل الثالــث

جريدة الأعلام (١)

---

(١) شكري العميق للأخ علاء الدين آغا على نسخ هذا الفهرس من الجرازات
(٢) ح: في الحاشية.

جريدة المواقع والبلدان

جريدة الكتب والمقالات والجرائد والمجلات الواردة فى المتن

(١) ح: أي في الحاشية.

هـذه السلاسل
تقدمها إليك
دار الرفـاعي
للنشر والطباعة والتوزيع

المكتبة الصغيرة
مكتبة الدراسات
السلسلة الشعرية
المصابيح
مـدن ومعالم
أشهر رحلات الحج
المكتبة التراثية
دنيا القصص
مذاهب وتيارات

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
ت : ٤٨٢٤٩٨٣ الدرعية
ت : ٤٧٨٨٥١٠ الملز

المملكة العربية السعودية – تلفون ٤٧٧٧٢٦٩ - برقياً دار الرفاعي

الرياض { ص. ب ١٥٩٠ الملز
الرمز ١١٤٤١



الكاتب .. بقلمه

ولدت في بعقوبة سنة ١٩٢٥ تخميناً
ودرست فيها الابتدائية والمتوسطة واكملت
الثانوية في بغداد.

تخرجت في دار المعلمين العالية سنة ١٩٥٨ والتحقت بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية (جامعة لندن) ومنها الى جامعة كمبردج حيث درست فيها لنيل الدكتوراه ودرّست فيها كذلك.

وبعد حصولي على «الورقة» عملت في كلية الشريعة (جامعة بغداد) ومنها الى كلية الآداب بعد أن أُلغيت كلية التربية.

عملت في قسم الدراسات الشرقية بجامعة «ليدن» بهولندا وكلية اللاهوت أيضاً. وساهمت في كثير من المؤتمرات الفلسفية والاستشراقية.

أعمل الآن أستاذاً في مركز البحوث (بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

من تحقيقاتي كتاب «الإنباء في تاريخ الخلفاء» لابن العمراني و«لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء» للثعالبي ورسائل عديدة في التصوف البغدادي والخراساني وجملة من الدراسات التراثية والاستشراقية

قاسم السامرائي

السعر: ثلاثون ريالاً